



مجموعة الأعمال الكاملة لمحمود السعدني

قطاع الثقافة
والكتب والمكتبات







محمود السعدنى

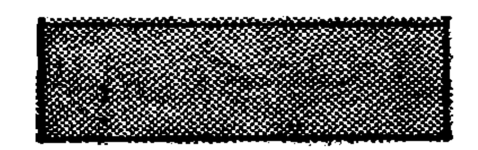
الفصل الأول

وهكذا بدات رحلة الضنى والعذاب .. واصل الحكاية ان العبد لله كان فى دمشق فى شتاء عام ١٩٥٧ ، وكانت دمشق وقتئذ واحة الديمقراطية والحرية وحلبة الآراء المتصارعة فى العالم العربى ، كان فيها الحزب الشيوعى السورى برئاسة بكداش .. هو الحزب الشيوعى العربى الوحيد المعترف به فى الكرملين .

الطريق

إلى « زمش » !





كانت له جريدة يومية منتشرة هى جريدة النور ، وكان هناك حزب البعث القديم بقيادته الثلاثية عفلق ، البيطار ، الحورانى. وكان هناك الحزب الوطنى بقيادة صبرى العسلى ، وكان هناك حزب الشعب بقيادة على بوظو ، وكان إلى جانب هؤلاء يوجد الناصريون واليمينيون والذين مثل طنجة على الحياد ، كانت الصحف السورية بعدد شعر الرأس وكل منها يعبر عن اتجاهه .

وفى الحكم كان هناك الجيش السورى بفرقه المختلفة ، فرقة حزب البعث بقيادة مصطفى حمدون ، والناصريون بقيادة عبدالحميد السراج ، وكانت هناك فرق أخرى مجهولة الهوية أحيانا ومريبة الهوية أحيانا ، ثم بعد هذا وقبل هذا كان يوجد الشيوعيون بقيادة عفيف البزرى رئيس الأركان ، واستهوتنى الحياة فى سوريا وامتدت اقامتى من نوفمبر ٥٧ إلى فبراير ٥٨ ، وخُرجت منها بصديق هو أكرم الحورانى رئيس المجلس النيابى ، وعبدالغنى قنوت أحد زعماء الفرق السياسية فى الجيش ، وأحمد جنيدى وكاظم زيتونة من زعماء القبائل العسكرية السورية ، وقدر للعبد لله أن يشهد الاجتماع التاريخى الذى تم بين بكداش وأكرم الحورانى فى مكتب الأخير فى المجلس النيابى ، جاء خالد بكداش يعلن لرئيس المجلس النيابى احتجاجه على عملية الوحدة بين مصر

وسوريا واشترط بكداش للموافقة على الوحدة السماح بقيام أحزاب فى القطرين وخصوصا الحزب الشيوعى ، واجراء انتخابات حرة مباشرة لانتخاب الحكومة فى القطرين ، وقال بكداش لرئيس المجلس النيابى ، إذا تمت الوحدة بالشكل الذى تريدونه فإن الشيوعيين سيقاتلون فى المستقبل ولكن ليس على طريقة القومية العربية .

وقال أكرم الحورانى لبكداش : الليلة هى الجلسة التاريخية للمجلس النيابى وتستطيع أن تقول رأيك كما تشاء ، وسننصت لك وسنعطيك الوقت اللازم لعرض آرائك ، وسنعرض الأمر فى النهاية على ممثلى الأمة وما تقرره الأغلبية سيلتزم به الجميع .

وقال خالد بكداش وهو يغادر المكتب : إذن إلى اللقاء فى المجلس النيابى ، وخرج من مكتب أكرم الحورانى إلى المطار واستقل الطائرة وسافر بها إلى موسكو ، وانعقد المجلس النيابى فى المساء ولم يحضره خالد بكداش ، ووافق المجلس بالاجماع على قيام الوحدة بين مصر وسوريا وانفجرت سورية من أقصاها إلى أقصاها ونام الشعب السورى فى الشوارع ورقص الجميع الدبكة ، وانطلقت الصواريخ فى السماء وتعطلت جميع المصالح والمؤسسات لمدة اسبوع ، وعاشت سوريا كلها فى عيدها الأكبر .

فى تلك الأثناء كان زعماء الحزب الشيوعى العراقى يعيشون فى دمشق هربا من جحيم نورى السعيد ، وقدر للعبد لله أن يجتمع بهم عدة مرات مع سياسى مصرى توفاه الله هو المرحوم الدكتور فؤاد جلال ، وكان رجلا من أخيار الناس ، وكان أول وزير للارشاد لحكومة الثورة ، ثم صار وكيلا لمجلس النواب ، ثم رئيسا لمؤتمر الخريجين العرب ، وهو الذى جمع صفوة شباب الأمة العربية ، وقد حاول المهرجون تقليده ولكنهم لم يفلحوا حتى الآن ولكن لأن الشيوعيين العرب كانت لديهم هواية التحليل ، فقد حللوا مسألة العبد لله ، خرجوا بنتيجة تقول : إننى من كبار المسئولين فى

مصر والدليل على ذلك اننى حضرت اجتماعاتهم مع فؤاد جلال ، بل وذهب بعضهم إلى حد انهم تصوروا اننى مسئول عن فؤاد جلال ورقيب عليه ، لأننى التزمت الصمت خلال الاجتماعات التى حضرتها .

وبعد فرار خالد بكداش إلى موسكو فوجئت بالأستاذ عامر عبدالله والأستاذ عزيز شريف والدكتور صفاء وهم من قادة الشيوعيين العراقيين المقيمين فى دمشق يتصلون بالعبد لله ويدعوننى إلى سهرة سياسية فى منزل أحدهم ، ولأن العبد لله هلهلى وعلى بركة الكريم فقد تصورت انها دعوة للسهر والسمر فلبيت الدعوة وبالفعل قضيت سهرة ممتعة فى حى أبو رمانة تبادلنا فيها أنخاب الشراب وتناولنا فيها شرائح اللحم المشوى على الفحم ، إلى جانب الكبة النية والنقانق وبلح الشام ، وفى نهاية السهرة قال لى عزيز شريف : نريد منك طلبا ونرجو أن نجد استجابة لديك ، وتصورت انهم يريدون اقتراض بعض النقود ، أو شيئا اشتريه لهم من القاهرة ، فقلت سأفعل على قدر ما أستطيع.ولكنى فوجئت به يخرج مظروفا كبيرا وقال لى فى هذا المظروف رسالة ونريد توصليها إلى الرئيس عبدالناصر ، وفى براءة منقطعة النظير قلت لعزيز شريف : اذن سأسلمها فى الصباح للسفير محمود رياض ، ورد عامر عبدالله:نحن نعرف محمود رياض ونتصل به دائما ولو أردنا توصيلها عن طريقه لفعلنا ، ولكن اخترناك أنت بالذات لأننا ندرك ونعلم أنك تستطيع أن تفعل ذلك فلا تقع الرسالة فى يد انسان آخر ، لأن الهدف هو أن يسمع عبدالناصر صوتنا وأن تصل الرسالة إليه .

وببراءة أشد قلت : ولكنى لا أعرف عبدالناصر ولم أقابله من قبل ، وارتسمت ابتسامة على شفاه الجميع ، لقد تصوروا اننى باعتبارى من كبار المسئولين لا ينبغى لمثلى أن يكشف سره ! واننى رجل حويط أخفى عن نفسى صفتى وأخفى مقامى السامى ومنصبى الرفيع.ولما ابتسموا عملت بنصيحة عمنا المتنبى فابتسمت أنا الآخر .

فلمـا صار ود النـاس خبا   جزيت على ابتسام بابتسـام

وانتهت السهرة على خير ما يرام وذهبت إلى الفندق وقد نسيت الأمر كله ، ولكن الرسالة لا تزال فى جيبى ومرت ثلاثة أيام وإذا بالعبد لله يتلقى برقية من جريدة الجمهورية تدعونى للعودة بسرعة إلى القاهرة ، وتصورت أن هذه البرقية نتيجة منافسة بين بعض الزملاء فى الجريدة وان البعض يريد ايفاد أحد غيرى لينقل للجريدة أخبار دمشق ، ولذلك قرأت البرقية وصهينت ، ولكنى تلقيت برقية بعدها بيومين تدعونى للعودة ثانيا ، وبعد فترة أصبحت عادة أن أستيقظ كل يوم من النوم فأتلقى مع الافطار برقية من القاهرة تدعونى إلى العودة ..

وفجأة وصل إلى دمشق وفد مصرى برئاسة الأستاذ أحمد سعيد المذيع الذى كان اسمه يدوى كالطبل فى أنحاء الأمة العربية وقتئذ ، وقلت لأحمد سعيد : اننى تلقيت عدة برقيات من القاهرة تدعونى للعودة وسألته المشورة ، فنصحنى بالعودة على الفور وقال : لابد أن فى الأمر شيئا ، وبعد اسبوعين من تسلمى رسالة الحزب الشيوعى العراقى وصلت إلى القاهرة ، وكان أول من التقيت به هو السيد أنور السادات رئيس تحرير الجمهورية وقتئذ وهو المسئول الوحيد من رجال الثورة الذى أعرفه ، كما أنه رئيسى المباشر ، وأخبرته بالرسالة التى فى جيبى ، وسلمته الرسالة وعندما وجدها مغلقة لم يحاول فتحها ، ولكنه اتصل تليفونيا بجهة مجهولة وطلب منها ايفاد مندوب لتسلم الرسالة التى جاء بها السعدنى من دمشق ، وبعد دقائق قليلة حضر رجل دخل الغرفة وسلم على رئيس التحرير وصافح العبد لله أيضا ثم تسلم الرسالة ومضى .

وجلست مع الرئيس أنور السادات يرحمه الله أحكى له عما شاهدته فى دمشق وعن آخر التطورات هناك ، ثم قال لى وأنا أغادر مكتبه : يلا بقى روح استلم شغلك وعاوزك تشد حيلك ، وقضيت شهر أبريل كله أشد حيلى ، وعهد إلى المرحوم كامل الشناوى بمهام جديدة فى الجريدة وأضاف

إلى العبد لله أعباء أخرى ولكنى كنت حريصا على تنفيذ نصيحة رئيس التحرير وشمرت عن ساعدى وهات ياشغل كما الحمار الحصاوى ، ولكن حدث ما لم يكن فى الحسبان ، وكما تصور الشيوعيون العراقيون الذين يقيمون فى دمشق اننى من كبار المسئولين فى مصر ، تصورت الأجهزة فى مصر اننى من كبار الشيوعيين فى العالم العربى ، وإلا فلماذا اختارنى الحزب الشيوعى العراقى دون بقية خلق الله لكى أحمل الرسالة وأذهب بها إلى الرئيس عبدالناصر ، لابد أننى جهة أمينة وموثوق بها وعلى علاقة ود بكل الأحزاب الشيوعية فى العالم العربى ، ولابد أننى حريص وحويط وجن أزرق مفلفل لدرجة أن جميع الأجهزة المصرية لم تشعر بتحركاتى ولم تكتشف الدور الذى كنت أؤديه على مدى سنوات طويلة ، قدروها بعشر سنوات على أقل تقدير !

وفى أول شهر مايو ذهبت إلى خزينة جريدة الجمهورية لتسلم المرتب ، ولكن مسئول الخزينة الطيب انتحى بى جانبا وراح يعتذر للعبدلله عما حدث ، ولم أكن قد فهمت بعد ما هو الذى حدث ، ثم قدم لى ورقة لكى أوقع عليها ، ثم قدم لى خطابا فإذا به خطاب فصل من الجريدة .

ياقوة الله ، فى المواقف الصعبة من حياتى تنتابنى حالة غباء منقطعة النظير ، تصورت أن أعدائى فى الجريدة قد تمكنوا منى أخيرا ، وسرحت بعيدا استعرض الأشخاص الذين يمكن أن يكونوا قد اشتركوا فى هذه المؤامرة لفصل العبد لله ، ولكننى اكتشفت أن آخرين محررين مثلى فى الجريدة يوقعون على نفس الورقة ويتسلمون نفس الخطاب ، وكان بعضهم من كبار الشخصيات العامة أمثال بيرم التونسى ، وكان بعضهم فنانين شبانا كألفريد فرج ، فسألت رئيس الخزينة ، هل هناك كثيرون ، قال حوالى ٦٠ شخصا ، وسألت على الفور ، هل منهم عبدالرحمن الخميسى ، فأجاب بالايجاب ، فضحكت ، ضحكة صافية وعميقة انتزعتها من أعماقى ، وأمسكت بسماعة التليفون واتصلت بالخميسى فى المنزل وبعد

السلام والذى منه ، سألنى الخميسى أنت بتتكلم منين ؟ وأجبته من الخزينة فى الجمهورية ، فقال على الفور فيه فلوس ، فلما أجبته بالايجاب قال طيب يابنى ماتمشيش من عندك أنا جايلك على طول ، قلتله أنا مستنيك بس فيه حاجة عاوز أقولها لك ، قال ايه ، قلتله أنا فصلونى النهاردة ، قال بدهشة شديدة مين الحمار اللى فصلك ده ؟ قلتله مش عارف ، قال خليك ماتمشيش وانت مش ممكن تتفصل ، وان فصلوك أنا هكون معاك ولازم ترجع الليلادى ، استنانى يا ابنى .

عندما أقتحم الخميسى غرفة رئيس الخزينة كنت جالسا أرتشف ما تبقى من كوب الشاى وصرخ الخميسى فى وجه رئيس الخزينة : الخبر ده صحيح إزاى ترفدوا الصحفى الوحيد فى الجريدة ، وقال الرجل معتذرا أنت عارف احنا ملناش لا فى الطور ولا فى الطحين ، وأنا بعتذر لك انت كمان يا أستاذ عبدالرحمن ولو تكرمت وقع على الورقة دى ، ووقع الخميسى بسرعة على الورقة ثم ناوله المظروف إياه ، فتح الخميسى المظروف وقرأ قرار فصله ، وهاج الخميسى وثار ثورة عارمة وسحبنى من يدى وراح ينزل درجات السلم بسرعة وهو يردد بصوت عال . رضينا بالهم والهم مش راضى بينا ، ناس معندهاش دم ولا أدب ، ترفدوا ناس من جواهر المجتمع المصرى ، ثم قال وبيرم التونسى كمان ده معقول ! ؟ الناس دى اتجننت ، الناس دى اتجننت ، ثم خرج إلى الشارع واستوقف تاكسيا ودعانى إلى الركوب فركبت ، وقال للسائق : اطلع بينا على ميدان التحرير ، وتصورت انه ذاهب إلى جريدة الشعب حيث كانت فى طريقها إلى الصدور وكان يقع مبناها فى شارع قصر العينى ، ولكن الخميسى صرخ فى السائق ونحن فى ميدان التحرير ، اكسر يمين على كوبرى قصر النيل ، وقلت للخميسى انت رايح على فين ، قال أنا رايح للشعب ، قلتله الشعب كده فى شارع قصر العينى ، سألنى ايه ده ، قلتله الشعب الجريدة ، فصرخ فى وجهى جريدة ايه ومصيبة ايه أنا رايح للشعب المصرى ، قلتله

لا .. نزلنى هنا وروح انت لوحدك للشعب المصري ، أنا رايح الشعب الجريدة .

حاول الخميسى أن يمسك بى ولكنى قفزت من التاكسى وركبت سيارة أجرة إلى منزلى ، وجلست فى المنزل أفكر فى النهاية التى انتهيت إليها بعد عمل مخلص دائب لمدة خمس سنوات فى جريدة الجمهورية ، توليت فيها أمر القسم الداخلى فترة ، والشئون العربية فترة ، والمحرر المقيم بدمشق فترة ، ورحت أفكر فى الأسباب التى أدت إلى فصلى بلا مقدمات وبلا سبب ، وخطر على نفسى ألف سبب وسبب إلا السبب الحقيقى ، وهو الخطاب الذى حملته معى من دمشق للرئيس جمال عبدالناصر ، ولم أكتشف هذه المسألة إلا بعد ذلك بزمن طويل ، ولو أنهم سألونى أو استفسروا منى لأراحوا أنفسهم وأراحونى من مشاكل كثيرة ومصائب ليس لها مثيل .

وبعد شهر من فصلى اتصل بى الأستاذ كامل الشناوى وطلب منى الذهاب إلى الأستاذ احسان عبدالقدوس فى روز اليوسف لأنه ينتظرنى هناك لأمر هام ، فذهبت وقابلت الأستاذ احسان وعرض على العمل كسكرتير تحرير لروز اليوسف ، ووافقت على الفور ، ولم أناقش معه أى تفاصيل أخرى ، اعتبرت العمل فى روز اليوسف كسكرتير تحرير لها هو رد اعتبار للعبد لله بعد الاهانة التى ألحقتها بى جريدة الجمهورية ، وتصورت أن الحياة صفت للعبد لله . ولم أكن أدرك أن المصائب الحقيقية لم تبدأ بعد ، وهى مصائب ونوائب وكوارث كسرت ظهرى ولونت حياتى بعد ذلك بلون الهباب !



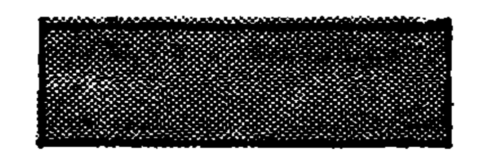
الفصل الثانى

كان العمل ممتعا فى روز اليوسف ، فقد كان يعمل بالمجلة شلة من الفنانين الكبار ، كل منهم مدرسة فى حد ذاته ، حسن فؤاد وجمال كامل ورجائى ونيس وصلاح جاهين وبهجت بتاع الفراخ وايهاب وجورج البهجورى .









وكان يشرف على توضيب المجلة عبدالغنى أبو العينين . وكان يعمل بها اثنان من الشعراء البارزين .. صلاح عبدالصبور وأحمد عبدالمعطى حجازى ، وكان أحمد بهاء الدين يرأس تحرير صباح الخير وفتحى غانم يشرف على تحرير روز اليوسف ، وكان احسان عبدالقدوس يتولى الاشراف على المجلتين ، وتوجيه المسئولين عن التحرير ، وأشهد أنه كان استاذا بحق ، واستفاد العبد لله من خبرة احسان عبدالقدوس ، وكان يعمل بالمجلة عدد من الشباب بدأوا منذ فترة قصيرة خطواتهم الأولى على بلاط صاحبة الجلالة ، كان هناك نبيل أباظة ، ومحمد تبارك ، وكان هناك ممدوح الليثى أحد المسئولين عن التليفزيون المصرى فى الوقت الحاضر ، وكانت مهمتى هى مراجعة موضوعات المحررين وحذف ما ينبغى حذفه ، وإضافة ما ينبغى اضافته ، والسماح بنشر ما يليق ، وحجب ما دون المستوى ، كان عبدالستار الطويلة يكتب تحقيقات صحفية جيدة ، ولكنه فى كل تحقيق كان يشطح شطحة نضالية خنفشارية عن الشواشى العليا للبرجوازية ، والكومبرادورية المتعاونة مع الاستعمار الذى هو أرقى مراحل الرأسمالية ، وكنت أسمح بنشر موضوعات عبدالستار على الفور بعد حذف هذه الشطحات التى ليس لها محل من الاعراب على رأى عمنا ابن منظور المصرى عليه رحمة الله .

وذات صباح والحملة على أشدها بين عبدالناصر وعبدالكريم قاسم ،

واذاعة مصر تشن حملة لا نظير لها على قاسم العراق ، ومظاهرات الشيوعيين فى بغداد تشعل النار فى تماثيل صغيرة لعبدالناصر وتطلق عليه ناصر الرجعية والاستعمار ، فى هذا الجو المجنون دخل مكتبى عبدالستار الطويلة وكانت أول مرة أراه شخصيا ، وبعد أن مد يده وصافحنى ، قدم نفسه قائلا : عبدالستار الطويلة .. شيوعى ! واندهشت جدا أن يعلن أحدهم بدون مناسبة انه شيوعى فى هذا الجو المشحون بالكراهية والعداء ، فصافحت عبدالستار وقلت له . محمود السعدنى مخابرات أمريكية . وبهدوء شديد يصل إلى حد البرود قال عبدالستار الطويلة : احنا معلوماتنا أنك مخابرات انجليزية . فقلت له : الانجليز افتقروا علشان كدة غيرت .

ثم جلس عبدالستار الطويلة وراح يمتدح سلوكى فى سكرتارية التحرير لأننى لا أعطل نشر مقالات أحد بسبب خلافات سياسية أو مذهبية ، وقال إن هذا السلوك من جانبك يجعلك عدوا سياسيا شريفا . كان يبدو من لهجته وهيئته انه ريفى وانه ساذج على نحو ما . وان تجربته كلها تنحصر فى العمل السرى فى التنظيمات الشيوعية التى اشترك فيها منذ كان صبيا فى الخامسة عشرة ، وسألته عن الأحوال فقال ببساطة : الجو كما ترى ليس على ما يرام ، والحملة ضد الشيوعيين على أشدها ، وبعد أيام سأكون نزيل المعتقل ، وكل ما أرجوه منك أن تعمل بشدة من أجل أن تستمر الجريدة فى صرف مرتباتنا ، وأن تقف مع قضية الديمقراطية بكل قوة . وقلت للطويلة : ما عليك اذهب إلى السجن ومن الأفضل أن تقيم هناك أطول مدة ممكنة ، وسأقاتل من أجلك بأشد ما تشتهى.وضحك عبدالستار وغادر مكتبى .

وفى ليلة رأس السنة لعام ١٩٥٩ ، شنت قوات الأمن حملة اعتقالات واسعة ضد الشيوعيين المصريين ، واعتقلت عشرات من المثقفين اللامعين ، وبعض القيادات العمالية ، ولكن عبدالستار الطويلة ظل حرا طليقا يأكل ويشرب ويمشى بين الناس فى الأسواق ، ولذلك أصبح عبدالستار موضع سخرية المحررين فى روز اليوسف ، ولكنه كان يعدهم

خيرا بأنه سيحل ضيفا على المعتقل فى القريب العاجل ، ولم تحل نهاية شهر مارس حتى كانت الحملة قد بلغت أوجها بين حكومة مصر وحكومة العراق ، واشترك فى الحملة طبعا خالد بكداش إلى جانب الحزب الشيوعى العراقى .

ولما كان الشيوعيون العراقيون محدثى سلطة ، فقد تدنوا فى الخلاف إلى إحقر مستوى ، ولم يتركوا نقيصة إلا وألصقوها بعبدالناصر . ولم تقصر أجهزة الاعلام المصرية أيضا فنسبت إلى الشيوعيين ما ليس فيهم . واتهمتهم بالانحلال واحتقار القيم وعدم الشرف والعمل لحساب من يدفع أكثر .

كان يوم ٢٧ مارس عام ١٩٥٩ هو اليوم العاشر على ما أعتقد فى شهر رمضان المبارك .. فى هذا اليوم دخل مكتبى عبدالستار الطويلة ، وأبلغنى بأن مسألة اعتقاله هى مسألة ساعات ، وانه على الأغلب سيكون الليلة مع الرفاق الذين سبقوه إلى المعتقل ، وأوصانى مرة أخرى بأهل بيته وبحقوقه لدى الجريدة ، ومرة أخرى وعدته خيرا بشرط أن يذهب إلى المعتقل هذه المرة ولا يخلف وعده كما حدث منه فى المرة السابقة . وبعد انتهاء العمل فى المساء غادرت مكتبى فى شارع محمد سعيد خلف مجلس الوزراء وذهبت إلى منزلى ، ولم يكن عندى من الأطفال إلا « هالة » وكان عمرها عاما وبضعة شهور ، وزوجتى حامل فى شهرها الثانى .

وبعد السهرة قمنا لتناول طعام السحور ، ولكن جرس الباب دق عدة مرات متواصلة فقمت أفتح الباب ، وفوجئت بأن الطارق أفندى فى الثلاثينات من عمره ومعه شخصان ، وقال الرجل بأدب شديد : لدينا إذن بتفتيش الشقة وسألته عن السبب .. فأجاب : للبحث عن منشورات ، ولما لم يكن لدى أى منشورات من أى نوع فقد رحبت بهم ودعوتهم لدخول الشقة ، ويبدو أنهم أصيبوا بخيبة أمل لعدم العثور على منشورات فاستولوا على بعض الكتب من بينها كتب أدبية وكتب ثقافية وكتب سياسية ووقفوا طويلا أمام أحدها كان يحمل غلاف شعار الشيوعية العالمية « المطرقة والسندان » وهو كتاب آثرت الحرية ـ لكرافيشينكو ،

وهو ـ فيما يبدو من اسمه ـ مواطن سوفيتي كان يعمل عميلا للمخابرات المركزية الأمريكية ، وتصورت أن الأمر انتهى عند هذا الحد ، ولكن الضابط طوسون طلب منى ـ فيما يشبه الرجاء ـ أن أصحبهم إلى مباحث الجيزة مؤكدا للعبد لله أن الأمر لن يستغرق إلا دقائق . وارتديت ملابسى على عجل واكتشفت أن الضابط تنتظره أسفل البيت سيارة شرطة وسيارة نقل بها عدد كبير من الجنود والمخبرين . وأصابتنى الدهشة لهذا العدد الوفير من رجال الحكومة ، واستبعدت أن يكون الهدف هو القبض على العبد لله . لأن فردا واحدا يكفى لهذه المهمة.وركبت السيارة البوكس إلى جانب الضابط وانطلق الموكب بنا إلى بيت فى الدقى . وصعد الضابط بصحبة اثنين من المخبرين وغابوا فترة وعندما نزلوا كانوا قد أصبحوا أربعة . واركبوا الزائر الجديد فى العربة اللورى ولم أتبين شخصيته إلا بعد أن وصلنا إلى إدارة المباحث بالجيزة التى كان يتولى رئاستها المرحوم حسن طلعت الذى صار مديرا عاما للمباحث فى مصر فيما بعد .

اكتشفت أن زميل الرحلة هو الكاتب الكبير المرحوم أحمد رشدى صالح أحد العلامات الثقافية المضيئة فى تاريخ مصر ، اكتشفت أيضا أن معه شنطة بها ملابس و « عدة » حلاقة وفوطة وشبشب وكأنه قرر أن يمكث فى المباحث عدة أيام ، وسألته عن سبب اصطحابه للشنطة ونحن لن نمكث فى المباحث أكثر من خمس دقائق . فرد على رشدى صالح بسخرية شديدة : انت صدقتهم ؟ وهتفت صارخا : ياخبر اسود أمال هانقعد كثير ؟ وأجاب رشدى صالح : ربك وحده هو الذى يعلم . وحبسونا فى الحجرة مع غيرنا من المعتقلين لم أتعرف على أحد منهم إلا رشدى صالح . كان مع بعضهم منشورات ومع بعضهم أجهزة آلات كاتبة ، وكان بعضهم يرتدى ملابسه وبعضهم بالفانلة واللباس ، وبعضهم هيئته طبيعية والبعض الآخر مضروب ضرب غرائب الابل .

وفى التاسعة صباحا سمحوا لصلاح السعدنى شقيقى بدخول الغرفة التى يوجد بها جميع المعتقلين . كان فى السنة الأولى بمدرسة السعيدية الثانوية ، وبكى عندما رآنى فنهرته بشدة وأفهمته أننا فى رحلة لمدة

اسبوع نعود بعدها إلى المنزل ، وهدأ صلاح وجلس بعض الوقت يتحدث مع أحمد رشدى صالح وخرج مطمئنا عندما اكتشف أن شقيقه ليس وحده فى هذه الرحلة ولكن هناك عشرات آخرين .

وعند الظهر تماما حملونا فى سيارات نقل ضخمة والحديد فى أيدينا ، ولحسن الحظ جاءت قرعتى فى حديدة واحدة مع أحمد رشدى صالح . وتوقفت بنا السيارة أمام سجن القلعة ، وهو سجن قديم بناه المماليك ليسجنوا داخله العصاة من المماليك ، الذين يخرجون عن طاعة السلطان ، والذين يدخلون ضده معركة ، فإذا نجحوا فى خلعه جلسوا مكانه ، وإذا فشلوا أقاموا فى سجن القلعة !

نزلنا من السيارات وطلبوا منا أن نجلس القرفصاء على الأرض ، وقلت لرشدى صالح : الآن أدركت سر تمثال الكاتب الجالس القرفصاء عند قدماء المصريين ، يبدو أنه كان هو الآخر من نزلاء سجن القلعة . وضحك أحمد رشدى صالح بفتور وقال للعبدلله : هوه دا وقته !

لم تكن مباحث الجيزة فقط التى تقوم بترحيل المعتقلين إلى سجن القلعة ، ولكن كانت كل مباحث جمهورية مصر تقوم بنفس العمل وفى نفس الوقت . كنت أنا ورشدى صالح فى منتصف الطابور وكان الطابور يمتد أمامنا أكثر من خمسين مترا ، ويمتد خلفنا أكثر من خمسين مترا ، وكان كل صف يتكون من أربعة معتقلين . وبدأ الطابور يزحف ببطء إلى داخل السجن ، فقد كانوا يأخذونهم فردا بعد آخر ، وعندما تصاعد آذان العصر من فوق مئذنة جامع محمد على ، كان الصف الذى ننتظر فيه قد اقترب من باب القلعة . وبدأت أتبين عددا من الأشخاص الذين كانوا فى الصفوف الأمامية لحظة دخولهم من باب السجن .

كان هناك الدكتور لويس عوض ، والأستاذ لطفى الخولى والصحفى فتحى خليل والفنان زهدى ، ولكن الذى جعل قلبى ينقبض بشدة هو وقوع بصرى على شخص لم أتوقع وجوده فى هذا المكان على الاطلاق . ولمحت الفنان جمال كامل وهو يدخل من الباب إلى السجن وهو فى حالة أقرب إلى الذهول ، وكان من حقه أن يصاب بالذهول لأنه كان فنانا

فحسب ، ربما كانت له أفكار تقدمية شأنه شأن كل شباب الجيل ، ولكن جمال كامل لم يكن من النوع الذى ينتمى لتنظيم أو يمارس نشاطا سريا . وعلق أحمد رشدى صالح على وجود جمال كامل بين المعتقلين قائلا : يبدو أنهم لن يتركوا أحدا فى الخارج !

ولمحنا فى الصفوف الخلفية الكاتب المسرحى الفريد فرج ، والمناضل العجوز عمر رشدى الذى كان شيوعيا فى عام ١٩٤٥ ، وكان قد كف بالتأكيد عن أى نشاط سياسى واكتفى بالجلوس على قهوة ايزايفتش بميدان التحرير يتكلم فى السياسة ولكنه لا يمارسها ، ورحت أفتش بين الصفوف عن عبدالستار الطويلة ولكنى لم أعثر له على أثر . وظننت أنه وصل مبكرا ودخل السجن مبكرا وهو الآن مع الرفاق الذين كان يتشوق لرؤيتهم .

كان يجلس فى الصف الذى أمامنا مباشرة أربعة أشخاص يرتدون الجلابيب ، أحدهم كان مضروبا بشدة ودمه مجفف على وجهه ورأسه ، وكان زميله فى الحديد رجل عجوز عرفنا فيما بعد أنه رئيس نقابة فى كفر الدوار ، أما الاثنان الآخران فقد كانا فى سن الشباب ، كان أحدهما طويلا بشكل ملحوظ وكان الآخر أقصر منه بقليل ، وكان الطويل يبكى باستمرار وبصوت عال ، وشعر أحمد رشدى صالح بالضيق من بكاء الرجل الطويل ونهره بحزم وطلب منه أن يكف عن البكاء قائلا له : يابنى عيب عليك تبقى طويل كده وتقعد تعيط . ولوى الشاب عنقه نحونا وقال لرشدى صالح : والله ياسعادة البيه أنا ما عملت أى حاجة ، ورد عليه رشدى صالح قائلا : انت بتقوللى أنا ، ابقى قول لهم لما يسألوك ، ودلوقتى بطل عياط وبلاش توجع دماغنا احنا مش ناقصين ، وكف الشاب عن البكاء ومسح دموعه بطرف جلبابه ، ثم التفت إلى رشدى صالح وقال له : احنا هانخرج امتى ياسعادة البيه ؟ ورد عليه رشدى صالح بغضب : ماحْنا بره أهه ، انتظر لما تخش جوه وبعدين اسألهم هانخرج امتى .

وأضحكت نكتة رشدى صالح المعتقلين الذين كانوا بالقرب منا ، والتفت أحد الضباط لمصدر الضحك ووضع سبابته على فمه وقال :

هس .. وبعد دقائق كنا أمام قائد معتقل القلعة الذى جردنا من الساعات والأوراق والأقلام والنقود وأحزمة البنطلونات ووضعها فى أظرف على سبيل الأمانة ، ثم وزعنا فى زنزانات وكان حظى سعيدا ، لأننى دخلت زنزانة كانت تضم أربعة أشخاص بالاضافة إلى العبدلله ، أما الأربعة فهم المناضل العجوز عمر رشدى والكاتب المسرحى الفريد فرج والصحفى فتحى خليل والأستاذ الكبير أحمد رشدى صالح . ولما كان بالزنزانة ثلاثة أسرة فقط فقد افترش الفريد فرج الأرض ثم انضم إليه فتحى خليل وانضم إليهما ثالث وفد علينا فى اليوم الثانى هو الأستاذ يوسف عيسى موسى وهو مدرس لغة انجليزية جاء من الاسكندرية . ولولاه لمتنا فى الزنزانة من شدة الكسل والقذارة . فقد تولى مسئولية النظافة ومسئولية اعداد الطعام ، وكان نعم الرفيق والصديق .

ولمدة ثلاثة أيام لم يفتح فيها الباب لحظة واحدة إلا وقت تسليم الوجبات ، أما بقية الوقت فالباب مغلق ، والنافذة أضيق من صدر الكافر ، وهكذا بدأت الرحلة الميمونة التى استمرت خمسة أعوام بالنسبة للبعض ، والتى انتهت بنا إلى « زمش » أشهر وأغرب تنظيم عرفته الحركة الشيوعية فى تاريخها الحافل المثير !!

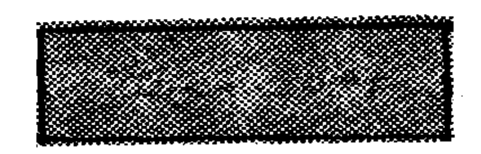


الفصل الثالث

ثلاثة ايام والأبواب مُغلقة والمساجين مكدسون كالسردين فى الزنازين .. واتاحت هذه الأيام الثلاثة للعبد لله ان يتامل الزنازين التى بنيت فى العصور الوسطى لينزل بها الأمراء الخارجون عن طاعة السلطان . كانت الجدران فى سجن القلعة مبنية من حجارة شبيهة باحجار الأهرامات .

هابيوس كوربوس





وكانت سميكة إلى الحد الذى يكفى لعزل ساكنى الزنزانة عن العالم الخارجي ، ولم يكن فى الزنزانة أى منفذ للهواء إلا ثقب فى السقف مركب على فتحة ماسورة أشبه بـ « شكمان » السيارة.أما الباب فهو من الحديد الصلب وسمكه أكثر من عشرة سنتيمترات ، وله مزلاج خارجي يحدث صريرا عند عملية الفتح والقفل أشبه بصرير تروموای شبرا عند الدوران .

وفى هذا السجن الكئيب عاش ومات مئات من الأمراء والقادة والوزراء والمماليك . ونزل به عشرات من أبطال ثورة عرابى ، واستخدمته كل العهود وكل الحكومات فى حبس أعدائها والمناوئين لها والذين تحوم الشكوك حولهم . وبسبب هذا السجن لقى البطل العظيم السلطان المظفر قطز حتفه وهو راجع من معركة عين جالوت بعد نصره التاريخى على التتار ، فقد حدث أن قال له الظاهر بيبرس : لقد وعدتنى بولاية حلب بعد المعركة ، وأنا الآن فى انتظار تنفيذ وعدك ، ولكن السلطان الظافر قطز ابتسم للظاهر بيبرس وقال له : إنس هذا الوعد فأنا أريدك بالقرب منى فى القلعة ، وقلبت العبارة مخ الظاهر بيبرس فما الذى يقصده قطز بعبارة « أريدك بالقرب منى فى القلعة » ان بالقلعة قصر السلطان والسجن ، وليس هناك شىء آخر ، لابد أنه يقصد السجن ولاشىء آخر . فاضمرها الظاهر بيبرس فى نفسه ، وحانت له الفرصة بالقرب من غزة عندما رمح

السلطان وراء غزال يريد اصطياده ، فرمح الظاهر بيبرس خلفه ورماه برمحه فاستقر بين ضلوعه وسقط ميتا على الفور !

وعلى جدران الزنزانة نقوش كثيرة وكلمات أكثر . حديث نبوى كتبه أخ مسلم « اتقوا البرد فقد قتل أخاكم أبا الدرداء » والتاريخ نوفمبر ١٩٤٨ ! على جدار آخر عبارة « تحيا لجنة الطلبة والعمال » والتاريخ ١٩٤٦ ! فى جانب آخر من الجدار « تسقط الملكية الفاسدة » والتاريخ فبراير ١٩٥٢ ! تحتها مباشرة عبارة « تسقط الفاشية العسكرية » والتاريخ ١٩٥٤ بعدها أيضا بيت من الشعر :

ولست أبالى حين أقتل مسلما   على أى جنب كان فى الله مصرعى

والتاريخ ١٩٥٤ ! فى جزء آخر من الجدار عبارة « عاش كفاح الطبقة العاملة » والتاريخ ١٩٥٩ ! ثم عبارة أخرى « قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا » والتاريخ ١٩٥٧ ! فى أسفل الجدار عبارة « عاشت ذكرى مؤسس الاخوان الشيخ حسن البنا » والتاريخ ١٩٦٥ .

عبارات كثيرة هى فى الحقيقة تاريخ الزنزانة بأقلام الذين دخلوها-لقد دخلها الجميع منذ عام ١٩٤٦ اخوان وشيوعيون وديمقراطيون وطلبة وعمال وصياع ومتآمرون ومشاغبون ، ناس ضد الملكية ، وناس ضد الثورة ، ناس مع الله ، وناس مع ماركس ، وكلهم جمعتهم الزنزانة غالبا فى عصور متعاقبة وأحيانا فى عصر واحد !

بعد أن ضاق صدرى بالحبس فى الزنزانة ناديت على عم طه الحارس ودار بينى وبينه الحوار التالى :

— افتح يا عم طه

ويفتح عم طه الباب فيدور الحوار على النحو التالى :

— انت قافل علينا ليه يا عم طه ، احنا عملنا حاجة .

— لا ، انتو ما عملتوش لكن الواد اللى فى الزنزانة اللى جنبك دى شتمنى وقل أدبه علىّ .

— طيب احنا عملنا حاجة .

— لأ ما عملتوش ، لكن ما فيش فتح خالص

ثم يغلق عم طه الباب .
واعود أزعق مرة أخرى بالصوت الحيانى .
— افتح يا عم طه الباب .
ويفتح عم طه الباب ويدور نفس الحوار وبنفس الكلمات . ثم يغلق الباب من جديد .
وتمضى ثلاثة أيام كاملة ونحن فى الحبس الرهيب ، نأكل ونشرب ونتحاور وننام نوما متقطعا ونستيقظ على أحلام غريبة وكوابيس مزعجة ، وكان المناضل القديم عمر رشدى يحلم بكأس من الويسكى وصحن من الترمس ، وكان رشدى صالح شديد الصمت شديد الشرود ، ولكن كان أحيانا يفصح عما فى صدره .
— تصوروا .. ثلاث مرات أعمل بيت والحكومة تهده !
كان أسف رشدى عميقا ، فعندما ألقوا القبض عليه كان قد ابتعد تماما عن الحزب الشيوعى وكان يكتب فى الجمهورية مذكرات طالب عراقى بدون امضاء ، عن حالة القهر والتعذيب والارهاب الذى يلقاه المعتقل فى سجون عبدالكريم قاسم ولكن الدوسيهات لا ترحم والقوائم لا تغفر ، وعندما ألقت الحكومة القبض على الشيوعيين ، كان الأمر الصادر إلى رجال الشرطة بالقبض على الشيوعيين والمتعاطفين معهم ومن يوجد معهم لحظة القبض عليهم ، ولكن رشدى صالح كان لديه أمل فى الافراج عنه سريعا ، فقد كتب رسالة الى المرحوم كامل الشناوى وطلب من السيدة حرمه توصيلها إلى الأستاذ كامل فى جريدة الجمهورية ، ولكن الأيام مرت بطيئة دون أى بادرة تلوح فى الأفق عن افراج قريب .
وكان المرحوم فتحى خليل ساهما ومتشائما على طول الخط . وكان من رأيه انها المعركة الأخيرة مع السلطة ، وانها ستنتهى بشنق الشيوعيين على أعواد الشجر .
وكان الكاتب المسرحى الفريد فرج نائما طول الوقت ، وعندما يستيقظ كان يردد عبارة واحدة .. احنا مش معتقلين ، احنا يا استاذ مخطوفين فى الذرة !

وجاء الفرج بعد ثلاثة أيام ، فتحوا الأبواب فخرجنا إلى الحوش .. وكان العبد لله هو أسبق الجميع للخروج ، وهالنى ما رأيت .

فقد كانت فكرتى عن الشيوعيين حتى هذه اللحظة انهم مجرد مجموعة من الصحفيين والفنانين الذين أعرفهم ومجموعات أخرى مِّن المثقفين كانوا يجلسون على قهوة ايزافيتش بميدان التحرير . ولكن الذى رأيته فى صالة السجن كان يختلف تماما عن الفكرة التى كانت فى رأسى .

كانت هناك مجموعة كبيرة من العمال من بينهم رؤساء نقابات ، ورجال أعمال ، وفلاحون ومزارعون ، وعندما رأيت المرحوم الدكتور لويس عوض هرعت إليه كغريق يتعلق بقشة . كنت أعلم أن لويس عوض ماركسى ولكنه على خلاف حاد مع الشيوعيين . فلماذا ألقوا القبض عليه ؟ ولماذا ألقوا القبض على العبد لله أيضا ؟ مع أن بينى وبين الشيوعيين مساحة شاسعة !

لقد وقعت الحكومة فى نفس الغلطة التى وقع فيها الشيوعيون المصريون . فمن ليس معى فهو ضدى . وأذكر اننى ذهبت مرة إلى جريدة المساء قبل اعتقالنا بعدة أيام . ورأيت فى الطرقة الضيقة مجموعة من الصحفيين يتحاورون بحرارة . وكان من بينهم الدكتور عبدالعظيم أنيس وعندما رآنى قال بصوت عال حتى يسمعه كل الحاضرين :

— أهلا .. الأستاذ محمود السعدنى جى يزور الأستاذ محمد عودة .

وكانت هذه اشارة للجميع بأن يكفوا عن الكلام واندهشت لموقف الدكتور عبدالعظيم أنيس ، فمحمد عودة ليس مع الحكومة ولا هو فى جهاز المباحث . ولكنه كان صاحب رأى وكان رأيه يختلف عن رأى الرفاق الشيوعيين .

وكانت هذه الحالة هى احدى الأخطاء القاتلة التى وقعت فيها الحركة الشيوعية المصرية . فكل من ليس عضوا فى التنظيم هو امبريالى استعمارى وعميل للشواشى العليا للبورجوازية . ولذلك لم ينفتح التنظيم الشيوعى فى مصر على الجماهير المصرية فى أى وقت من الأوقات ، ولم يستطع التواجد فى الشارع المصرى فى أى وقت ..

اما عضو التنظيم فهو المناضل الثورى الذى يملك فى يده مفاتيح الحل لكل المشاكل على وجه الخصوص . أما الآخرون فهم اما برجوازى منحل ، واما عميل للاستعمار ، وأما كلب للسلطة ، ولذلك .. اكتسب الشيوعيون المصريون أعداء كثيرين كان يمكن كسب ودهم ، أو على الأقل تحييدهم !

ولكن .. الحق أقول .. لم يكن كل الشيوعيين من هذا النمط ، كان هناك حسن فؤاد الفنان الطيب ، الذى يصادق فى ود ، ويخاصم بدون عداء ، وكان هناك بكر سيف النصر الذى لم أصادف فى الحياة شخصا مثله . وكان هناك زكى مراد المحامى ذو القلب الكبير والعقل الراجح . وكان هناك أسعد حليم الهادىء العميق الذى كان يرى أن الحركة الشيوعية هى قمة الفشل لأنها حركة انطوائية . وكان هناك سيد ابراهيم الذى كان كالمرهم يداوى جروح الآخرين ويحمل همومهم ، وكان هناك على الشلقانى الفارس .

وكان هناك محمود المانسترلى الطيب الهادىء المتفائل دائما الفاهم دون ادعاء المثقف دون جعجعة . وكان هناك على الشوباشى المسالم المندهش دائما الضاحك فى كل وقت . المهم اننى هرعت الى الدكتور لويس عوض أسأله رأيه فى المحنة التى نمر بها ، واستفسر منه عن الوقت الذى ستنقشع فيه . كان لويس عوض ـ يرحمه الله ـ يرتدى روب دى شامبر أحمر اللون وشبشبا سويسريا « بالى » ويركن السيجارة فى ركن فمه ، ورد علىّ الدكتور لويس عوض تحيتى قائلا :

— هاللو

سألته عن رأيه فى المحنة التى عصفت بنا فقال :

ماتخافشى لازم نخرج بكرة أو بعده . كانت هذه أول بشارة أتلقاها من عمنا لويس عوض . ولكن لكى يطمئن قلبى عاودت السؤال :

— يعنى .. انت متأكد ..

وقال الدكتور فى ثقة تامة .

— طبعا .. هابيوس كوربوس .

وقلت يا فرج الله .. لابد أن له قريبا فى المباحث العامة اسمه هابيوس كاربوس ، ولابد أن الرجل طمأنه وأكد له موعد الافراج ، لابد أن الحكومة فى ذروة الأزمة اضطرت إلى القبض على الكثيرين ، ثم بدأت فى البحث والفحص ولابد أنها ستفرج عن الذين لم يكونوا أعضاء فى الحزب الشيوعى ، وبالطبع سيخرج الدكتور لويس عوض ، وسيخرج العبد لله أيضا .. يا سلام .. هل سيكتب للعبد لله التجول فى شوارع القاهرة مرة أخرى . ونذر على العبدلله أن أطوف بالحوارى وأن أجلس على الرصيف وأن أسرح خلف عمنا زكريا الحجاوى فى القرى والكفور ، وننام على المصاطب أو على الرصيف .. لا فرق !

وعدت أسأل الدكتور لويس عوض لكى يطمئن قلبى :

— لكن هوه اللى قالك بنفسه ؟

وارتسمت الدهشة على وجه الدكتور وقال مستنكرا :

— هو مين دا ؟

— هابيوس كوربوس ، مش هوه لواء فى المباحث .

واتخذ الدكتور لويس عوض هيئة الأستاذ وقال باشمئناط :

— أنا ما عرفش مباحث وماعرفش الناس دى .

— مش انت اللى قلت هابيوس كوربوس قالك لازم نخرج بكرة أو بعده .

وقال الدكتور لويس عوض :

— هابيوس كوربوس دا ياجاهل ـ قانون رومانى قديم اسمه أبرز الجثة .

— قانون رومانى ! .. طيب مالنا احنا ومال القانون الرومانى ده .

— القانون دا بيقول مايمكنش حد يقبض على مواطن أكثر من ثلاثة أيام ، بعدها لازم يظهر المواطن .. إما أمام المحكمة وإما فى الشارع ..

وقلت للدكتور لويس عوض :

— وانت مصدق الحكاية دى ؟

وقال الدكتور فى ثقة شديدة :

— طبعا .

وساد الصمت بيننا برهة قطعه العبد لله قائلا :

— تصدق بالله ، لو هابيوس كوربوس جه هنا ، هيحبسوه معانا .. وهياكل ضرب ماكلوش حرامى فى مولد ، هابيوس كوربوس مين يا عمنا ، ان كان اعتمادك على هابيوس كوربوس دا ، يبقى مش هنخرج من هنا غير يوم القيامة ؟

وابتسم الدكتور لويس عوض ، وسحب أنفاسا عميقة من السيجارة ومضى فى اتجاه زنزانته شاردا ، وكأنه تأثر برأى العبد لله فى السيد هابيوس كوربوس اياه !

كان الشخص الآخر الذى لفت نظرى فى فناء السجن ، الشاب الطويل الذى كان دائم البكاء ونحن فى انتظار الدخول إلى سجن القلعة . كان منظره يختلف تماما عن منظره فى ذلك اليوم . كان يرتدى الشورت وفانلة مخططة مثل فانلات بتوع الكورة . وكان يحمل فى يده براد شاى من الحجم الكبير ويزعق بأعلى صوته .

— مين عاوز يشرب شاى يا زملا .

وتصورت فى البداية انه ابن بلد بجبوح يسقى المعتقلين شايا على حسابه ، ثم اكتشفت انه يبيع الشاى مقابل سجاير . لم يكن هدفه التجارة ولكن كان هدفه البحث عن سجاير أكثر بسعر أرخص . فقد كانت سعادته فى الحياة لا تتحقق إلا بوجود الشاى والسجاير ، وسيأكل ضربا خلال السجن الطويل من أجل الشاى والسجاير .

كان اسمه أحمد شوقى عبدالهادى ، وهو من سكان منيل شيحا بالجيزة ، ووالده ناظر مدرسة أولية ، وهو موظف فى مديرية التحرير ، وقد ألقوا القبض عليه مع شقيقه الطالب . وهو فى الحقيقة ليس شيوعيا ولكنه استقبل بعض أصدقائه من العاملين فى مديرية التحرير . وكانت سعادته بهم كبيرة لأنهم كانوا يجلبون معهم الدخان المعسل والحشيش . وتكررت زيارتهم فى بيت أحمد شوقى وكانوا أثناء القعدة يتحدثون عن حزبهم وضرورة النضال ضد الفاشية . ولكن شوقى لم يجد فى هذه الأحاديث

مايلفت النظر ، فالمهم ان الجوزة شغالة ، والنار لا تنطفىء ، وبراد الشاى شغال عمال على بطال .

وذات ليلة طرق الباب مجهول . ولما سأل شوقى عن شخصية الطارق ، جاء الجواب :

— بوليس .

بوليس !! يا ليلة سودة ، كان شوقى يحتفظ معه بقطعة من المزاج فأسرع بالتخلص منها ، ثم فتح الباب بعد أن اطمأن أن كل شىء على ما يرام !

ولكنهم بالرغم من عدم عثورهم على حشيش ، فقد ألقوا القبض عليه مع شقيقه .

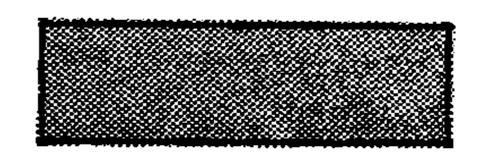
ولكن حديثى مع شوقى انقطع فجأة ، فقد دوت الصفافير فى أنحاء السجن تدعو المعتقلين إلى دخول الزنازين .

الفصل الرابع

ومرت الأيام بطيئة ومملة فى اول الامر ، ومر اسبوع كامل قبل ان يظهر عبدالستار الطويلة فى السجن ، وجاء متلهفا على رؤية الرفاق والاصدقاء ولكنه كان حزينا لوجوده فى سجن القلعة ، كان يتحرق شوقا إلى الذهاب لسجن الواحات الخارجة حيث المناضلون الأصلاء الذين سبقونا مع بداية العام الجديد .

ولكن هناك فرق !





وعندما رآنى عبدالستار قال على الفور : لقد سمعت بنبأ اعتقالك ولم أصدق بادىء الأمر ، وعندما تأكدت أدركت أن الحملة هذه المرة شديدة . والهجمة شرسة ، والمعركة ستكون فاصلة لأنها ستكون المعركة الأخيرة ، ثم قال : واعتذر لك عما قلته فى مكتبك بروز اليوسف ، فالحقيقة أنك برجوازى وطنى شريف . وحمدت الله وشكرته لهذه الترقية السريعة .

وجاء الفرج بعد أسبوع واحد ، انطلق صوت الشاويش طه فى الدهليز الضيق الذى يفصل بين الزنازين ينادى بأعلى صوته .. فين أحمد رشدى صالح ، وعندما أجابه الأستاذ أحمد رشدى صالح أمره بالاستعداد للرحيل ، وأوصاه بأن يجمع كل متعلقاته ، وحذره من أن يحمل معه أوراقا أو خطابات من معتقلين آخرين .

وغاب الشاويش طه دقائق ، استعد رشدى صالح خلالها فارتدى ملابسه وجمع أمتعته وجلس ينتظر ، وجاء الشاويش طه وفتح الباب وسمح لرشدى صالح بالخروج وكان الوقت يشير إلى التاسعة مساء ، وأصوات ميكروفونات تتردد من بعيد تحمل بعض الابتهالات الدينية ، ودعاء من شيخ يدل صوته على أنه كفيف يصرخ بصوت يقطر أسى .. يا أرحم الراحمين ارحمنا ، وتمنيت لو كنت مع الشيخ الضرير فى السرادق ، أو مع جموع الناس الطيبين فى أزقة سيدنا الحسين ، أو معهم على مقاهى السيدة زينب ، أو جالسا على الرصيف مع عمنا

زكريا الحجاوى فى قهوة محمد عبدالله ، وانتابتنى حالة من الكآبة ورشدى صالح يغادر الزنزانة .

كان لدى العبد لله احساس بأن رشدى صالح خارج إلى الحرية ، وكان لديه احساس بأنه ذاهب إلى سجن آخر .. ربما إلى الواحات .. وربما إلى سجن مصر تمهيدا لمحاكمته .. وعندما أغلق الشاويش طه باب الزنزانة انتاب الجميع حالة من الشرود والصمت لم يقطعها إلا المناضل العجوز عمر رشدى الذى قال فجأة وبلا مناسبة .. سيأخذ رشدى صالح حماما ساخنا هذه الليلة ، وبامكانه أن يخرج إلى الشارع وان يدخل أى بار ، وأن يطلب واحد ويسكى بالثلج وطبق ترمس ويحلق فى الفضاء العالى ، ونمنا مبكرا تلك الليلة ، وفى الصباح ساقونا جميعا إلى الحلاق ، وعندما وضع « الموسى » على ذقن العبد لله أدركت أن الحلاقة فى سجن القلعة هى جزء أساسى من التعذيب . فلم يكن « الموسى » الذى يستعمله الحلاق « موسى » من النوع الذى نعرفه ، ولكنه كان قطعة من الصفيح الصدىء ، ويستعمل فوطة سبق استعمالها فى تنظيف مراحيض باب اللوق ، وكان فرضا على كل معتقل أن يحلق ذقنه ، لأن ادارة السجن كانت حريصة على أن يبدو جميع المعتقلين بهيئة مناسبة تتفق مع حقوق الانسان وحقه فى الحياة بكرامة حتى وهو خلف الأسوار !!

ولم يكن الحلاق وحده هو سبب تعاسة العبد لله ، كان متعهد الأكل سببا آخر ، كان الافطار مكونا من عشر فولات ورغيف يشبه أرغفة هذه الأيام . وأحيانا كان يضيف الى الوجبة قطعة من الجبن هى فى الواقع جزء من اصبع طباشير من النوع الذى تستعمله الكتاتيب فى الريف المصرى . أما الشاى فيحتاج إلى شاعر عبقرى من نوع بيرم التونسى لكى يتمكن من وصفه . أما « السجاير » فكان مسموحا بها خصما من أمانات المعتقل وعلى حسابه . وبالرغم من ذلك استطاع العبد لله أن يألف جو السجن ، وكانت رقة الزنزانة هى خير معين على تجاوز محنة الاحساس بالقهر . ثم جاء الفرج أخيرا وبدأوا فى استدعاء بعض المعتقلين للمثول أمام النيابة ، وأفتى بعض العارفين ببواطن الأمور ، ان الحكومة تقوم بتصفية المعتقل ،

وانها ستكتفى بسجن الذين يثبت ضدهم اتهامات محددة ، أما الناس الذين ليسوا أعضاء فى الحزب الشيوعى المصرى ، ولم يضبط لديهم ممنوعات فسيغادرون السجن بعد عدة أسابيع على الأكثر .

واطمأن العبد لله لهذه الاشاعات واعتبرتها حقيقة لا تقبل الجدل . وراح بعض الذين توهموا انهم فى الطريق الى أعوام طويلة من السجن يوصون العبد لله بمهام كثيرة أؤديها لهم عندما أصبح خارج الأسوار . ولكن ـ وآه من لكن هذه ـ جاء مدير المعتقل ذات صباح ونادى على أسماء المعتقلين الذين سيذهبون للتحقيق أمام النيابة ، وكان اسم العبد لله على رأسهم . وبقدر الحزن الذى انتابنى لأننى سأقف أمام النيابة بقدر الفرح الذى شعرت به ، لأننى سأخرج من بوابة السجن وسأشاهد الشارع وأتفرج على الناس وعلى الترمايات وعلى الأتوبيسات ، وأستمع إلى نداءات الباعة و .. يللى الهوى هزك يامشمش ، ولاتين ولا عنب زيك ياخيار يالوبيا .. وجلست فى سيارة السجن وعيناى تلتهمان ـ من خلال الفتحة الضيقة ـ كل منظر ، حتى أسفلت الشارع صار له معنى جديد . حتى برك المياه التى تغرق الشارع كانت أجمل فى نظرى ألف مرة من بحيرات جنيف ، وغبطت كل المارين فى الشارع حتى المتسول العجوز الذى كان يقف أمام المتحف الصحى بعابدين ، تمنيت من الله أن أحل محله .

ياسلام لو كان الانسان حرا ومتسولا : ما أجمل أن يكون الانسان حرا وعاطلا ، أو حرا وضائعا ، وحبسونى فى حجرة مع معتقل آخر كان يجلس على الأرض وبجانبه مطبعة وعشرة صناديق منشورات ، وكان يرتدى جلبابا وشبشبا ، وسألنى عن المضبوطات التى معى فنفيت له ضبط أى أوراق سوى عدة كتب تباع كلها فى الأسواق فقال على الفور .. براءة ! سألته عما معه فأشار إلى أحد الصناديق الضخمة وقال : « ده مطبعة » وأشار إلى الصناديق الأخرى وقال : ده منشورات.وسألته : هل أنت معترف بما لديك من مضبوطات قال طبعا ولى الشرف ، وعندما سألته عن الحكم الذى ينتظره قال : عشر سنوات لأننى أتشرف بأننى عضو قيادى بالحزب الشيوعى المصرى !

وعندما جاء الدور على العبد لله أدخلونى حجرة بها مكتب كبير يجلس عليه رئيس نيابة أمن الدولة واعتقد أنه كان الأستاذ سمير ناجى على ما أتذكر وكان بدينا بعض الشيء ، وصاحب وجه مستدير ومريح ، وكان هادئا ومهذبا ، ودعانى للجلوس ، ثم ألقى نظرة على أوراق بجانبه ، وسألنى هل أنت عضو بالحزب الشيوعى المصرى ؟ فأجبته بالنفى ، وسألنى عن رأيى فى المعركة الناشبة بين جمال عبدالناصر وعبدالكريم قاسم وأجبته .. عبدالكريم قاسم مخطىء ، واعتقد أنه ينفذ مخططا بريطانيا انتقاما من عبدالناصر لتأميمه قناة السويس ولموقفه من حرب الجزائر ، وسألنى عن أصدقائى من الشيوعيين فأجبته بأننى صديق للكثير من الناس خصوصا فى مجال الفن والصحافة ، ولكنى لا أعرف أن كانوا شيوعيين أو رأسماليين ولا يهمنى ذلك .. ثم وضع الرجل القلم الذى فى يده على المكتب وسألنى وهو يبتسم .. أمال همة جايبينك ليه ؟

قلت له : والله ما أنا عارف .. فى هذه اللحظة نهض رجل كان يجلس فى الحجرة على مقربة من مكتب رئيس النيابة واقترب منه ومال على أذنه وهمس بعدة كلمات لم أسمع منها إلا كلمة الحزب الشيوعى المصرى . ولم أهتم بالرجل أو بما قاله وتصورت أنه أحد مساعدى النيابة ولكنى عرفت بعد عودتى إلى الزنزانة أن هذا الرجل يدعى عشوب وكان مفتشا للمباحث العامة فى مدينة القاهرة .

المهم أن رئيس النيابة قال للعبد لله وبلهجة تنم عن صدقه .. لو كان الأمر بيدى لأمرت بالافراج عنك من سرايا النيابة . وسألته بسذاجة : أما الأمر بيد مين ؟ .. فأجاب : أنت معتقل بقرار جمهورى . ولايفك أسرك إلا قرار جمهورى آخر ، ثم قال على كل حال مجيئك إلى النيابة أتاح لك فسحة ليست على البال ، وزيادة فى التكريم سأبقيك هنا بعض الوقت وسأطلب لك « فنجانا » من القهوة لكى تعدل دماغك ، وانست للرجل واطمأنت نفسى فى حضرته فسألته بود شديد : وتفتكر السجن ده لحد امتى ؟ فأجاب : علم ذلك عند ربى ، فهتفت دون وعى : ياخبر اسود ، قال رئيس النيابة ميهمكش السجن للجدعان !

عندما عدت إلى السجن أمطرنى زملاء الزنزانة بأسئلة كثيرة عن جو التحقيق وعن سلوك رئيس النيابة ، وحكيت لهم ما حدث بالتفصيل فأفتى عمر رشدى بأن هذه الحبسة ستكون أطول حبسة فى تاريخ الحركة الشيوعية المصرية ، وأن الشيوعيين لن يغادروا السجن إلا إذا غادر عبدالناصر الحياة . وقال فتحى خليل ستنتهى المعركة بتعليق زعماء الحزب الشيوعى على المشانق وتصفية القواعد وقطع دابر الشيوعية من ارض مصر ثم هز رأسه وقال : ولكن ستنتصر الشيوعية فى نهاية الأمر .. ولم يكن يشغل بال العبد لله انتصار الشيوعية أو هزيمتها . كل ما كان يشغل بالى هو الخروج من سجن القلعة الى الشارع بأى ثمن وبأى وسيلة حتى لو أدى الأمر إلى هروبى من المعتقل ، أو وقوع انقلاب فى مصر يخرجنا بقوة السلاح ، أو بهبوط طائرة هليكوبتر فى فناء السجن تحملنى معها إلى أى مكان ولو الى جهنم الحمراء : فقد كنت بطبعى أكره البقاء فى مكان واحد وقتا طويلا . وكنت دائم التنقل من مكان لآخر كالنحلة ، وكنت أسافر من القاهرة فى الصباح الى بورسعيد ثم انتقل منها الى دمياط ثم أعود الى القاهرة فى مساء نفس اليوم . ولكنك فى السجن مفروض عليك أن تبقى مكانك والزنزانة ضيقة والباب مغلق على الدوام ، حتى المناقشات بيننا انتهت . حتى الكلام أصبح معادا ولا جديد حتى السرحان خارج الأسوار أصبح محدودا كأنما خيالنا مسجون هو الآخر مع أجسامنا فى زنزانة سجن القلعة .

ولم تكن لدى أى أخبار عن الأسرة ، لم يكن عندى من الأولاد إلا هالة وكانت فى شهرها الخامس عشر وكانت زوجتى « حامل » فى أكرم منذ شهر ونصف ، ليلة اعتقالى ، ولم يكن لهم مورد سوى مرتبى وسيارتى تركتها فى الجراج لا أدرى عنها شيئا . وشقيقى صلاح كان فى السنوات الأولى بالمدرسة السعيدية لا حول له ولا قوة ، والوالد كان على المعاش ولا يعلم أحد ماذا يخبئه الغد لأسرتى الصغيرة !

وذات مساء همس السجن كله بأن مدير عام المباحث وصل الى السجن بنفسه ليشرف على اعداد زنزانة لاستقبال شخصية هامة فى طريقها الى

السجن . وضرب الشيوعيون أخماسا فى أسداس ، وراحت التحليلات والتنبؤات إلى كل اتجاه ، بعض العارفين ببواطن الأمور أكدوا أن خلافا حادا وقع بين عبدالناصر وعبدالحكيم عامر بشأن اعتقال الشيوعيين ، وان عبدالحكيم عامر يرفض بشدة اعتقال أى شيوعى باعتبارهم من القوى الوطنية الذين حاربوا المستعمر ١٩٥٦ ! وان عبدالناصر أمر باعتقال عبدالحكيم عامر وهو فى الطريق الآن الى معتقل القلعة ، وقال البعض الآخر انه المهندس عبدالمنعم شتلة أحد زعماء الحزب الشيوعى المصرى الذى كان يقود النضال من مخبئه قد وقع فى أسر الحكومة .

وجاء المعتقل الـ VIP فى منتصف الليل وحاول البعض أن يسأل حراس الليل عن اسمه أو عن شكله ولكن أحدا منهم لم يحصل على شىء يفيده . وفى الصباح كانت المفاجأة ، فالسجين الجديد ضابط فى الجيش المصرى برتبة عقيد وكان ملحقا عسكريا لمصر فى ليبيا ، ثم سحبوه من ليبيا لسبب أو لآخر وأبقوه فى القاهرة بلا عمل ، فلا هو عاد الى ليبيا ولا هو عاد إلى صفوف الجيش ، فتحمس الرجل وكان من الضباط الأحرار وكتب برقية إلى زكريا محيى الدين وزير الداخلية نصها : ان السجن الصغير أحب الى من السجن الكبير ، فكتب زكريا محيى الدين على البرقية : يجاب الى طلبه ، فألقوا القبض عليه وحبسوه فى سجن القلعة ، لقد صار الملحق العسكرى مسجونا مثلنا .. ولكن هناك فرقا ! كانت الزنزانة مفتوحة الأبواب على الدوام ، والملحق العسكرى يشخط وينطر فى جميع الحراس من أول مدير المعتقل الى الشاويش طه .. وكان الجميع يلزمون الصمت أمامه ويؤدون له التحية العسكرية ، وعندما رفض أكل المتعهد جلبوا له طعاما من مطعم شهير فى القاهرة ، وسمحوا له بوابور سبرتو وبراد شاى وكنكة قهوة لكى يصنع لنفسه ما يشاء من مشروبات ، وكان من حقه أن يكلف الجندى بشراء أى شىء يلزمه من الأسواق . وكانت زنزانته عامرة بكل أنواع المعلبات ، كما جاءوا له بملاءات بيضاء نظيفة وبطاطين خاصة من منزله ، كما سمحوا له بجهاز راديو ليستمع الى الأخبار ، ودخل الشيوعيون معه فى حوار ولكنه كان

اشبه بحوار الطرشان ، فهو لا يعرف الفرق بين الشيوعية والانكشارية ، وهو رجل ضبط وربط . وخلافه مع الحكومة كان خلافا حول حقه كضابط من الضباط الأحرار فى اتخاذ القرار المناسب وعدم التقيد بالأوامر المركزية التى تأتيه من فوق . ولم يمكث طويلا فى السجن ، جاءه مدير المعتقل فى العاشرة مساء كما فعلوا مع رشدى صالح وأمره أن يستعد للخروج ، ولكنه صرخ فى الضابط صرخة عنترية ونهره بشدة ، واتهم الحكومة انها تدبر مؤامرة لقتله وأقسم انه لن يغادر سجنه إلا فى الصباح وفى سيارته ومع أشقائه وأهل بيته . وقلت ياسبحان الله .. لو طلبوا من العبد لله مغادرة السجن فى منتصف الليل لوضعت ذيلى فى اسنانى وانطلقت بأقصى سرعة حافى القدمين والى غير مكان إلا إلى الشارع .. وبالفعل لم يخرج من سجنه إلا فى الصباح وحاول الرجل توزيع مالديه من علب محفوظة وكميات شاى وبن على المعتقلين ولكن مدير السجن رفض ، فغادر سجنه بعد أن مر على جميع الزنازين وصافح جميع المعتقلين . وكانت لفتة طيبة من الضابط الذى رفض السجن الكبير وآثر السجن الصغير فأجيب إلى طلبه !



الفصـــل الخامـس

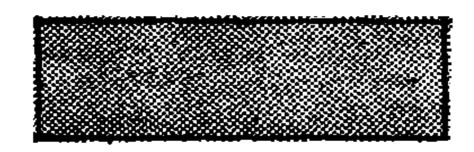
عمت الفرحة جميع المعتقلين فى سجن القلعة عندما سرت شائعة بأننا سننقل جميعا إلى معتقـل الفيوم . وسر الفرحة أن سجن القلعة سجن كئيب وهـو من مخلفات العصور الوسطى ، وليس فيه حوش للفسحة ، ولكن مجرد ممر للانتقال بين الزنازين لاتشاهد فيه إلا حيطان وزفت وأبـواب خشبية مطعمـة بالحديد .

معتقـــــل



الأحـــــلام !





ويبدو أن هذا الواقع المؤلم المرير دفع البعض إلى التحليق بعيدا ، فتصوروا أن معتقلا فى الفيوم لابد أن يكتسب شيئا من صفات الفيوم ، وشطح البعض بعيدا فزعم أن معتقل الفيوم على شاطىء بحيرة يسبح فيها البط وعامرة بكل أنواع الأسماك ، ومسموح للمعتقلين بالصيد وبالسباحة أيضا . وصدق العبد لله الأكذوبة الكبيرة ، فرحت أعد العدة لتكوين فريق كرة قدم أخوض به مباريات الهول ضد الفرق الأخرى ، ولكى أجعل من الكورة سكينا لقتل الوقت . ولكن فرحتى لم تدم طويلا ، فسرعان ما تبددت فى المساء عندما ناقشنا الأمر داخل الزنزانة ، ورحت أستعرض أمام زملاء الزنزانة الجنة الموعودة فى معتقل الفيوم ، حيث يقوم المتعهد بتوريد المواد الأولية من لحم وخضار وفاكهة ونقوم نحن بطهى الطعام بأنفسنا ، ودق لحم متبل وطواجن محوجة وفتة بالكوارع وملوخية بالأرانب وفول مدمس مهروس فى زيت الزيتون . وسرح الفريد فرج فى الجنة الموعودة ثم قال :

— لو كده .. الواحد يقعد ويكتب مسرحية ، وعلق فتحى خليل قائلا :

— ما أعتقدش فيه معتقل بالشكل ده.وقضى عمر رشدى على كل أمل فى وجود معتقل من هذا النوع ، وكانت شهادته فرق كل شهادة ، لأنه زبون قديم لجميع السجون والمعتقلات . قال العجوز عمر رشدى :

— السجن اللى انتوا فيه ده ، هو أحسن سجن هاتشوفوه فى الحبسة

كلها ، وأى انتقال من سجن إلى آخر معناه انحدار فى المستوى وفى المعاملة ، واذا ذهبت إلى معتقل الفيوم ، فستبكى دما على الأيام التى قضيتها هنا ..

ولزمت الصمت بعد تعليق عمر رشدى ، وقضيت ليلة مضطربة ، فقد انتابتنى حالة من القلق والاحباط . ولكن رأى عمر رشدى لم يقض تماما على الشائعة ، لأننى استمعت اليها من أكثر من واحد فى أنحاء السجن فى صباح اليوم التالى ، وأضاف البعض أن فى معتقل الفيوم صالة للالعاب الرياضية وملعبا لكرة القدم ومستشفى صغيرا لعلاج المعتقلين ..

وتمزقت أحلام العبد لله بين عمر رشدى وأحلام المعتقلين . وفجأة وبعد الظهر بقليل دخل السجن الرائد فوزى مدير المعتقل وبصحبته ضابط آخر بالملابس المدنية ، وأمرا المعتقلين جميعا بالاصطفاف فى طابور ، وألقى الضابط الزائر كلمة قصيرة ، قال فيها : إن الدولة قررت أن تمنح كلا منكم فرصة لتوضيح موقفه السياسى تمهيدا لتصفية المعتقل ، ولذلك سنسمح لكل منكم أو لمن يطلب ذلك بمقابلة أى مسئول فى الدولة يكون على صلة به فى الماضى . ومر الضابط بين الصفوف حاملا ورقة وقلما وراح يسأل كل معتقل عن المسئول الذى يريد مقابلته ، البعض قال إنه يريد مقابلة عبد الناصر ، والبعض ذكر اسم حسين الشافعى وأنور السادات وزكريا محيى الدين ، وعندما جاء دور العبد لله طلبت مقابلة النائب الأول لرئيس الجمهورية العربية المتحدة .. أكرم الحورانى . أما سر اختيار أكرم الحورانى بالذات فلأننى تعرفت به عندما أقمت فى سوريا فترة من الزمان مندوبا لجريدة الجمهورية ، وكنت لدواعى العمل قد أصبحت على صلة بكل زعماء سوريا ، خصوصا أكرم الحورانى وصلاح البيطار وعبد الغنى قنوت ومصطفى حمدون وأحمد جنيدى وعبدالحميد السراج وعفيف البزرى ، والوحيد الذى لم أستطع هضمه أو الاقتراب منه هو المرحوم ميشيل عفلق ، فقد كان أغلب الوقت نائما على روحه ، اذا تكلم فكأنه يتكلم من تحت الماء . ولكن اعجابى بأكرم الحورانى كان بلا حدود ، شدتنى اليه واقعيته الشديدة وعناده واستعداده للنضال فى سبيل

ما يؤمن به حتى آخر لحظة فى العمر ، ومن فرط اعجابى به أطلقت اسمه على اسم ابنى الوحيد أكرم . وظلت الصلة بينى وبين أكرم الحورانى مستمرة حتى بعد أن جاء للقاهرة وأصبح النائب الأول لرئيس الجمهورية . وأذكر فى أول لقاء بينى وبينه فى شقته الصغيرة المطلة على نادى الجزيرة قال للعبد لله وهو يرعش حاجبيه من شدة الدهشة :

— ايش هدا الحال يا أخ محمود ؟ الجماعة أصحابك ها دول ما فيهم غير جمال عبد الناصر ، الباقين لا بيعرفوا سياسة ولا بيفهموا فى السياسة ولا بيشتغلوا فى السياسية ، ها دول عسكر وبس ..

وكان اكرم الحورانى يقصد أعضاء مجلس قيادة الثورة فى مصر . وفى آخر مقابلة تمت بينى وبينه قبل اعتقالى بأيام ، كان يبدو شديد القلق وشديد الحزن أيضا . وأغلب الظن انه كان يشعر بقرب انهيار التحالف بين البعث وعبدالناصر .

المهم اننى طلبت مقابلة أكرم الحورانى ، وعندما جاء الدور على عمر رشدى طلب مقابلة العقيد حسن المصيلحى رئيس مكتب مكافحة الشيوعية بإدارة المباحث العامة . واستهزأ العبد لله بعمر رشدى والطلب الذى طلبه ، فمن يكون حسن المصيلحى ؟ وماذا يستطيع أن يفعله بالمقارنة بالكبار الذين طلب بقية المعتقلين لقاءهم ؟ ولم تنقض أكثر من ٤٨ ساعة حتى جاء قائد المعتقل وطلب من عمر رشدى أن يستعد لمقابلة المسئول الذى طلب مقابلته ، وارتدى عمر رشدى ملابسه وجلس ينتظر حتى جاءت سيارة فى الساعة السابعة مساء ، وذهبت به إلى ادارة المباحث العامة ، ولم يعد من هناك إلا فى الساعة الواحدة بعد منتصف الليل . وعندما دخل علينا الزنزانة استقبلناه بشوق كبير ورحنا نمطره بالأسئلة ، ولكن عمر رشدى لم يشف غليلنا ، قال إنه ذهب إلى إدارة المباحث والتقى بالعقيد حسن المصيلحى ، وأكد له أنه ترك الحركة الشيوعية منذ فترة طويلة وأنه قطع صلته نهائيا بالشيوعيين ، وأنه لايعرف جدوى اعتقاله وهو لم يشارك فى أى عمل سياسى منظم ضد الدولة . وقال أيضا : ان حسن المصيلحى وعده خيرا ، ولم يضف حرفا واحدا بعد ذلك .

وانتظرنا أن تستدعينا الشرطة لمقابلة المسئولين الكبار الذين طلبنا لقاهم ، ولكن الأيام راحت تمضى تباعا .. ولا حس ولا خبر ، ثم جاء من استدعى عمر رشدى فحمل امتعته وغادر الزنزانة والمعتقل ومضى . ولم نعرف إلى أين مضى إلا بعد أسبوع من ذهابه ، عرفنا أنهم أفرجوا عنه على الفور ، وأنه يجلس كل مساء على قهوة ايزافيتش بميدان التحرير كما اعتاد من قبل . وبدأ الملل يتسلل إلى جميع المعتقلين ، فالأيام خلف الأسوار متشابهة ومتكررة ، وبدأت سلسلة من الخناقات الصغيرة بين المعتقلين على أشياء تافهة ، ثم بدأ التناحر بين التنظيمات الشيوعية على تجنيد المعتقلين الذين ليس لهم فى الطور ولا فى الطحين . وكانت عملية مضحكة للغاية ، لأن بعض الأعضاء الجدد كانوا يدخلون الحزب الشيوعى فى المساء لينفصلوا عنه فى الصباح ، ولينضموا بعد الظهر لتنظيم « حدتو » أو تنظيم « ط/ش » ، أو تنظيم « و/ش » ، وللأسف الشديد كانت حركة الانتقالات تتم أحيانا طبقا لكمية السجاير التى يصرفها كل تنظيم لأعضائه المنتمين !

ولجأ بعض المتهمين الشيوعيين إلى أساليب تعلموها من المجرمين الذين تعرفوا بهم فى مختلف سجون مصر ، وكان أحدهم قد تم نقله إلى مستشفى قصر العينى بعد أن ارتفعت حرارته إلى ٤٢ درجة ، ثم أعادوه فى اليوم التالى إلى السجن بعد أن اكتشفوا أن الحرارة المرتفعة كانت نتيجة وجبة من الحلاوة الطحينية المخلوطة بالشطة !

وكان قد مضى علينا شهر بأكمله خلف أسوار سجن القلعة ، وكان شهر رمضان قد ولى ومضى العيد أيضا ، وازدادت ليالينا فى السجن مللا وظلاما ، وكنا خلال شهر رمضان نستمع إلى الحفلات الفنية والدينية التى تذيعها ميكروفونات تبث من حى القلعة ، وذات أمسية من أمسيات رمضان المبارك ، استمعت إلى صوت الشيخ مصطفى اسماعيل يلعلع عبر الميكروفونات ، وبكيت فى تلك الليلة لأن الجدران الصماء والقضبان التى علاها الصدأ تحول بينى وبين صوت الشيخ مصطفى اسماعيل الذى أعشقه . وكم من ليلة تعقبته فيها وسافرت خلفه من القاهرة إلى طنطا ،

وأحيانا إلى دسوق ، كما تعقبته فى داخل القاهرة من بولاق إلى سيدنا الحسين إلى السيدة نفيسة إلى جامع الأزهر حيث كان يقرأ السورة فى صلاة الجمعة . ولم أكن وحدى الذى أتعقبه ، ولكنها كانت شلة كبيرة ، من بينها الفنان الكبير صلاح منصور ، والقارىء المصرى السودانى الشيخ مهدى الذى كان يوما ما من سميعة الشيخ على محمود ، ثم أصبح مجنونا بصوت الشيخ مصطفى اسماعيل ، ولم يترك حفلا للشيخ مصطفى اسماعيل لم يحضره .

وذات مساء أكلنا علقة فى حفل دينى كانت تقيمه احدى الطرق الصوفية فى مسجد بولاق ، أعتقد أنه مسجد الخادم ، أو شىء من هذا القبيل . وكنا قد ذهبنا مبكرين لكى نضمن مكانا بجوار الدكة التى سيجلس عليها الشيخ مصطفى ، ولكن بمرور الوقت صار المسجد يزدحم حتى ضاق بالناس عن آخره ، ومضت ساعتان ولم يحضر الشيخ حتى خيل الينا أنه اعتذر عن عدم احياء الحفل السنوى الكبير ، وفجأة هب رجل واقفا وسط المسجد وصرخ صرخة مدوية .. الله حى .. الله حى ، واذا بجميع من فى المسجد يهب واقفا .. الله حى .. الله حى ، وهم يتمايلون ذات اليمين وذات اليسار فى سعادة تامة ونشوة بالغة ..

لم يبق فى المسجد من يفترش الأرض إلا شلتنا ، وكان منظرنا غريبا ومريبا أيضا ، فها نحن اولاء فى قلب القعدة الصوفية ومع ذلك لزمنا أماكننا فلم ننهض ولم نتمايل ، وأدركنا أننا أكلنا مقلبا فضحكنا . واعتبر البعض ضحكنا مؤامرة ضد الليلة المباركة ، فانهالوا علينا بالضرب . وحاولنا الفرار ، فاصطدمنا بالحلقات المضروبة بعضها فوق بعض ، وعندما تمكنا من اختراق الحصار والخروج من المسجد ، كنا قد أكلنا علقة ولا حرامى فى مولد ، وأصبحنا حفاة بلا أحذية بعد أن تركناها على باب المسجد ولم نجرؤ على التوقف لارتدائها من شدة الضرب وقسوته ، ووقفنا على ناصية الشارع الذى يقع فيه المسجد واعتقد أن اسمه شارع سليمان الخادم ، وأخيرا جاء الشيخ مصطفى اسماعيل ، وأصطحبنا معه إلى المسجد ، وأصبحنا محل حفاوة وتكريم الجميع . يالها من أيام

جميلة مرت كالحلم ، فلم ندرك قيمتها إلا بعد أن أصبحنا أسرى وراء الأسوار .

على العموم .. أصبحت الأيام ثقيلة فى السجن وبطيئة وقاتلة ، افطار وغداء وعشاء ، ومناقشات مكررة ومعادة ، واجترار حكايات واستعادة صور . وتمنيت ذات ليلة وأنا سارح فى ملكوت الله لو كنت فلاحا فى بلدنا أسرح فى الغيطان على كيفى ، وأخوض فى مياه الترع على مزاجى ، وأنام فى الوقت الذى أريده ، وأجالس من اختاره ، وأعيش حياتى عيشة الوحوش الكاسرة والطيور المهاجرة . ملعون أبو المدينة وملعون أبو السياسة ، وملعون أى نظام يأخذ الناس بالشبهات ويسجنهم بدون حكم من القاضى ..

حظنا المهبب اننا ولدنا فى العالم الثالث بعد المائة . لايوجد فى أوربا مثلا مواطن مسجون لأنه ضد سياسة تاتشر ، أو لأن وجهة نظره تختلف مع وجهة نظر ميتران ، لأن هناك كل مواطن له رأى ، وكل صاحب رأى محترم حتى لو كان رأيه يخالف رأى الحكومة . ولكن ما العمل والميلاد نفسه قسمة ونصيب ؟

واذا كانت فرنسا ليست مسقط الرأس .. فالحمد لله على كل حال لأننا ولدنا فى القاهرة ، ولا أحد يدرى ماذا كان يمكن أن يحدث لو كانت زائير هى مسقط الرأس أو شيلى أو بيرو أو كمبوديا ؟ على أية حال جاء الفرج ونفخ فى النفير وأمرونا بالاستعداد للسفر إلى المعتقل الجديد ، فى الفيوم . والغريب أننا انتهينا من الاستعداد فى السابعة مساء ، ولكننا لم نبدأ التحرك إلى السجن الجديد إلى فى الثانية صباحا .. وكانت رحلة بائسة وليلة مظلمة .. مازلت أذكرها كأنها حدثت بالأمس !

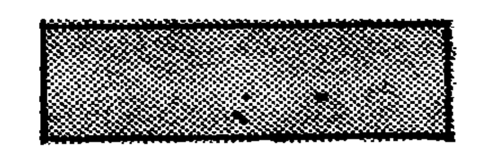
الفصل السادس

كانت ليلة سوداء ولا قلب الكافر ، حشروا المعتقلين فى عربات نقل ، أحكموا اخفاء من بداخلها بقماش من النوع المستعمل فى صنع الخيام . وبجوار كل سائق كان يجلس ضابط برتبة رائد ، وفى مؤخرة كل سيارة كان يجلس خمسة من الجنـود المسلحين بمدافع رشاشة . كانت القافلة مكونة من خمس سيارات نقل ، كل سيارة محشور فيها أكثر من خمسين معتقلا ، بعضهم يقف على أطراف الأصابع .

عساكر







وكان يتقدم القافلة ثلاث سيارات نصف نقل محملة بجنود مسلحين بالمدافع الرشاشة تتقدمهم سيارة نجدة ، يتقدمها اثنان من راكبى الموتوسيكلات ، وفى مؤخرة القافلة كانت هناك سيارة نجدة وعدة سيارات نصف نقل تحمل جنودا مسلحين وموتوسيكل واحد . وكان العبد لله فى حديدة واحدة مع الدكتور عبد الرازق حسن ، وهو مستشار اقتصادى برئاسة الوزارة ، كما أنه أحد العقول الاقتصادية المشهود لها على المستوى العربى والدولى أيضا .

وعندما مرت القافلة بميدان الجيزة ، واستطعت أن أخطف نصف نظرة على الميدان وعلى قهوة عبد الله ، انتاب العبد الله حزن شديد . فى هذا الميدان مارس العبد لله شقاوته مع شلة الطفولة والصبا ، وشهد الميدان خطواتى الأولى فى عالم القراءة والكتابة ، كتلميذ صغير فى ندوة قهوة عبد الله ، الذى كان من بين نجومها الدكتور عبد القادر القط والأستاذ أنور المعداوى والشيخ عبد الحميد قطامش والأستاذ زكريا الحجاوى والشاعر محمود حسن اسماعيل ، ثم صرت عضوا بالندوة مع الجيل الثانى .. الكاتب المسرحى نعمان عاشور والاذاعى الكبير يوسف الحطاب وفنان الكاريكاتير أحمد طوغان .. وفجأة قطع حبل ذكرياتى صوت المعتقلين فى السيارة يرتفع بنشيد :

الحزب الشيوعى المصرى

نبنيه من عزيمتنا
ونحط الأساس خرسانة
من وحدة ارادتنا

كان النشيد ساذجا وكلماته ركيكة ، مع أنه يوجد بين الشيوعيين شعراء أفذاذ وكتاب على أعلى مستوى ، ولكن الخيبة الكبرى التى هى بحجم المسافة من هنا إلى شبرا ، أن النشيد الذى فرض نفسه على الحزب الشيوعى كان من وضع مهندس انشاءات ومبان ، وكان هذا واضحا فى عبارة (خرسانة) وأعتقد أن النشيد كان يحتوى على كلمات أخرى من نفس الصنف .. رمل ودبش ومونة وخشب لطزانة .. إلى آخر المواد التى تصلح لبناء البيوت وليس لبناء الأحزاب !

أما لماذا نشيد المهندس بالذات وليس نشيد شاعر ككمال عبد الحليم أو كمال عماد أو ابراهيم شعراوى ، فلأن المهندس صاحب النشيد كان يحتل موقعا قياديا فى الحركة الشيوعية ، وهى من الأسباب التى أدت إلى ضمور الحركة الشيوعية وعدم تجاوزها الحلقة التى ضربت حولها ، فظلت دوائر (ديدانية) كما وصفها زعيم الحزب الشيوعى السورى - يوما ما - خالد بكداش ..

عندما انطلقت الأصوات بنشيد الخرسانة ، انطلقت فى الوقت نفسه كعوب البنادق فى رؤوس ووجوه المعتقلين ، ثم هدأت الأصوات وتوقفت حركة الكعوب ، وعادت القافلة تسير فى صمت لايقطعه إلا أصوات سارينات سيارات الشرطة لكى تفسح الطريق أمام الموكب الحزين ..

عندما اقتربت القافلة من معتقل الفيوم ، كان الليل قد انسحب فى هدوء وأشرقت شمس الصباح على استحياء . وعندما أنزلونا من السيارات ، تذكرت ما قاله المناضل العجوز عمر رشدى بأننا سنتدحرج إلى أسفل كلما انتقلنا من سجن إلى آخر . لأنهم لم ينزلونا من السيارة ولكنهم دفعوا بنا إلى الأرض ، بينما أصوات الجند كانت تصرخ فى حركة هستيرية وكأنما جحافل المغول قد هجمت على البلاد . وأجلسونا على الأرض بنفس الطريقة التى أجلسونا بها من قبل أمام معتقل القلعة ..

كان معنا فى القافلة عشرات من الأصدقاء .. لطفي الخولى وجمال كامل وفتحى خليل والفنان زهدى والفنان حسن فؤاد والدكتور لويس عوض وآخرون .

والقيت نظرة على معتقل الفيوم ، كان فى الأصل معسكرا للجيش البريطانى أثناء الحرب العالمية الأخيرة ، ويضم ثمانية عنابر مصنوعة من الخشب ، فى كل عنبر باب واحد فى المنتصف تماما ، وعلى كل جانب نافذتان ، كل نافذة بعرض مترين وارتفاع متر ، تسدها ٦ أسياخ متينة من الحديد تحول بين المعتقلين والهروب وتسمح لأفراد الحراسة بمتابعة كل ما يجرى داخل العنبر . ولكن لدواعى الاهمال والتسيب والتقشف ، ضرب السوس فى خشب العنابر ، وجعلت الوساخة من العنبر شيئا أشبه بجدران حمام بلدى من النوع الذى كان يستخدم فى انضاج الفول المدمس . وكان يقف على الباب ضابط شرطة برتبة صاغ ، ولكن منظره يوحى بأنه كان ضابطا فى جيش على بك الكبير وبنفس الرتبة ، فقد كانت هيئته تدل على أنه يقترب من سن الستين ..

كان هذا الرجل هو مدير المعتقل ، وهو ضابط من تحت السلاح واسمه منير بك ـ هو الذى خلع على نفسه هذا اللقب ـ وراح يلقى على مسامعنا بعض المواعظ التى تحفظنا من كل شر ، وأكد لنا فى وضوح أنه من النوع الذى (لايرحم أمه) وأنهم جاءوا به مديرا للمعتقل لأنه صاحب دوسيه حافل بكل أنواع (الجرائم والمضبوطات) وأعتقد أنه كان يقصد الانضباط .

وبعد استماعنا إلى المواعظ من الباشا المدير ، كان من نصيبى الاقامة فى عنبر ٤ مع زميلى الدكتور عبد الرازق حسن . ووجدنا عند باب العنبر هيئة استقبال مكونة من صول تجاوز سن المعاش بكثير وأربعة عساكر شرطة درجة أولى ، يمسكون فى أيديهم مدافع رشاشة وأصابعهم على الزناد ، ومعهم عسكرى من الدرجة الثانية برتبة عريف ، أعتقد أنه كان جاموسة فى الأصل ، طويل عريض ، ملامح وجهه تثبت أنه معتاد اجرام ، وكان اسمه على ما أذكر أحمد غطاس أو سيد غطاس ، المهم أنه

غطاس والسلام . وعلى رأس هيئة الاستقبال ضابط شاب يبدو عليه أنه ابن ناس ، كان طويلا ونحيفا ووسيما ، وأعتقد أنه يدعى حلمى العيسوى أو نظمى العيسوى .. المهم أنه عيسوى والسلام ..

عندما وقفنا ـ الدكتور عبد الرازق حسن وأنا ـ أمام هيئة الاستقبال ، سأل حضرة الصول الدكتور عبد الرازق حسن :

ــ اسمك إيه ؟

ونطق الدكتور عبد الرازق حسن باسمه ، ولكن يبدو أن الطريقة التى نطق بها اسمه لم تعجب سيادة العريف غطاس ، فقال بطريقة مستفزة :

ــ انطق اسمك زى الناس ياوله

واستشاط الدكتور عبد الرازق غضبا ، وقال للسيد العريف :

ــ أنا مش وله .. أنا الدكتور عبد الرازق حسن ، وفى الحال لهف العريف غطاس الدكتور عبد الرازق حسن قلمين من النوع السمين ، وقال له وهو يستعد للدخول فى معركة ولا معارك العلمين :

ــ مافيش هنا حاجه اسمها دكتور .. دكتور دى فى بيتكم .. هنا انت ولهْ وبس وستين وله كمان .

وقال عبد الرازق حسن :

ــ أنا أحتج

ويبدو أن الدكتور عبد الرازق حسن ارتكب جريمة الخيانة العظمى فى حق سيادة العريف ، فانهال عليه الضابط عيسوى ضربا بالأقلام والشلاليت ، وهو الذى كان يبدو عليه أنه وديع وابن ناس طيبين .

وبالطبع ساعد العريف غطاس قائده وحسم المعركة ، وبشلوت واحد من نوع أرض ظهر ، طرح الدكتور عبد الرازق حسن أرضا . ولأن العبد لله مربوط معه فى حديدة واحدة ، فقد سقطت معه أنا الآخر ونابنى من الحب جانب .. قلمين .. واحد على القفا وواحد على الوجه . ثم دفعوا بنا داخل العنبر . اذن هذا هو معتقل الفيوم ، وأول القصيدة كفر ، وآخرها لايعلم به إلا الله .

جلسنا فى العنبر تحيط بنا الكراهية من كل جانب ، المأمور شبه أمى لايعرف الألف من عمود النور ، سأل مرة الفنان زهدى :

ـــ بتشتغل إيه ؟

وعندما قال الفنان زهدى إنه رسام كاريكاتير ، عقب السيد المأمور قائلا :

ـــ شاعر يعنى !!

والضابط العيسوى لا هم له إلا اصطياد أخطاء المعتقلين وتوقيع العقاب عليهم ، والعريف غطاس من يدفع له ينجو من العقاب ، ومن يرفض الدفع أو يعجز عن الدفع ، فيأنهار أمه أزرق ، وياليلة أبوه أسود من أسفلت الطريق .

ذكرنى معتقل الفيوم بمعتقلات النازى التى ظهرت فى أفلام هوليوود . انوار كاشفة تمسح المعتقل طوال الليل ، وكلاب بوليسية تنبح بحثا عن فريسة ، وأصوات كئيبة تنادى على الأسوار .. واحد تمام ، وتصل إلى عشرين تمام . والعريف غطاس ينظر كل لحظة من الشباك ليشرف بنفسه على انضباط المعتقلين ، وحملات تفتيشية تفتح الباب فجأة وفى أى وقت من أوقات الليل والنهار ، ثم تبدأ بحثها بين الملابس وتحت السراير ، وبين الفتحات التى نتجت عن تشققات فى خشب الجدار . والمعسكر فى حالة استنفار دائم ، ومنير بك لايكف عن التجوال فى أنحاء المعسكر .. ومتعهد الأكل حرامى يقدم طعاما لايكفى لاشباع قطة ، والمعتقلون فى توتر دائم وفى خوف من المجهول ..

رأيت من خلال النافذة ذات صباح الفريد فرج وهو فى طريقه إلى دورة المياه فألقيت عليه السلام ، وكان جزائى عن هذه الجريمة الرهيبة قلمين مع تهديدى بالجلد اذا عدت إلى ارتكاب مثل هذه الجريمة فى قادم الأيام .

واستعانوا بعساكر من الهجانة للمساعدة فى اقرار النظام داخل أسوار المعتقل .. وعندما رأينا عساكر الهجانة وهم يدخلون من باب المعتقل ، أدركنا أن الموت على الأبواب .. ولكن .. ياميت فل على سلوك الهجانة

النبيل وعلى شموخهم وعلى اعتزازهم بأنفسهم وعلى نظافة يدهم وحسن معاملتهم للمعتقلين .

وكانت الذروة عندما طلب قائد المعتقل منير بك من أحد الهجانة أن يضرب معتقلا بالكرباج ، ولكن العسكرى البسيط رفض تنفيذ الأمر . وعندما أصر البيه المدير على تنفيذ الأمر ، ألقى عسكرى الهجانة بالكرباج فى وجهه قائلا له :

— أنا مش جاى هنا علشان أضرب .. ان كنت عاوز تضرب .. اتفضل خذ الكرباج واضرب ، وابتلع منير بيه الاهانة أمام المعتقلين ، وقال لعسكرى الهجانة وهو يحاول أن يخفى كسوفه .

— أنا هاوريك .. أنا هاعملك محكمة عسكرية .

ونظر اليه العسكرى فى استخفاف وقال له فى احتقار شديد :

— انت ولا حاجة .

وفى المغرب ، غادر العساكر الهجانة المعقتل على ظهور الجمال وفارقونا إلى الأبد ، بينما كانوا يلوحون بأيديهم للمعتقلين ويرسلون لهم قبلات فى الهواء . وباختفاء الهجانة اختفت نسمة طرية هبت على المعتقل فجأة وتلاشت فجأة ، لم يعد فى المعتقل إلا نباح العساكر وكف غطاس وصوت العيسوى الكئيب ، وتسلط البيه المأمور الذى يتصور نفسه قائدا لجيش هتلر .

● ● ●

اختلفت المنظمات الشيوعية فى العنبر الذى كنت أقيم فيه ، وفوجئت بعد ثلاثة أيام من بدء الخلاف بثلاثة من نزلاء العنبر يطلبون من العبد لله أن أقدم لهم خدمة ، ولخصوا الموضوع فى أن لجنة الحياة العامة والتى تتولى توزيع المأكولات والسجاير ، ولأنها تثق فى العبد لله ، قررت أن يكون العبد لله الذى هو حضرتنا مسئولا عن تخزين السلع وتوزيعها . وقبلت العرض على الفور ، وقمت بتخزين السلع تحت سريرى وتوليت توزيعها كل صباح على مندوبى الأحزاب الشيوعية ..

كان سريرى فى المعتقل يقع بين سرير الدكتور عبد الرازق حسن

وسرير معتقل يدعى ضبع شنودة ، وهو أصلا من الاسكندرية ويقيم بها ، وكان يقوم بتوزيع الخبز على المنازل فى عربة يد صغيرة ، ولكنه كان أحيانا يقوم بدس المنشورات الشيوعية فى أرغفة الخبز . وانكشف أمره بالطبع ، فذهب إلى المعتقل فى عهد النقراشى ، ثم دخل المعتقل فى بداية الثورة ، وكانت هذه المرة هى الرابعة فى سلسلة غزواته للسجون والمعتقلات . المهم أن ضبع شنودة اقترب منى ذات مساء وهمس فى أذنى يطلب سجاير لزوم عدل الدماغ ، وعندما أخرجت علبة سجائرى ليلتقط منها سيجارة ، قال ضبع :

— انت يظهر مافهمتش قصدى .. أنا عاوز علبتين من الكوميونه .

وعندما ارتسم على وجهى تعبير عن عدم الفهم أشار بأصبعه تحت سريرى وقال :

— انت مش ماسك الكوميونة دلوقت ؟

وقلت لضبع :

— هى دى اسمها كميونة ؟

وعندما هز ضبع رأسه بالايجاب ، قلت له :

— بس انت عارف ان الحاجات دى مش بتاعتى .. دى بتاعة الزملاء .

— أيوه عارف .. بس انت مسئول الكوميونه ، ومن حقك تتصرف ، وعلى كل حال أنا هاردلك العلبتين .

وأعطيت العلبتين لضبع شنوده ، فراح يشعل السيجارة وراء الأخرى . وأحسست أنه يعانى بشدة ، وربما سرح بفكره خارج الأسوار ، إلى شوارع الاسكندرية وحواريها ، إلى منزل الأسرة التى لابد أن ضبع افتقده كثيرا .. فقررت أن أقطع تفكيره وأشغله بشىء آخر ، فسألته :

— ايه رأيك ياضبع ، وخصوصا أنك مناضل قديم وخبير بكل أنواع السجون

وكأنما انعشت كلمات الثناء نفس ضبع ، فخرج من سرحته وأصغى

للعبد لله بكل اهتمام ، واعتدل فى جلسته عندما ألقيت عليه السؤال التالى :

— تفتكر إيه بقه اللى ها يحصل معانا ياضبع فى الفترة الجاية ؟

كنت أسأله طبعا عن مصيرنا كمعتقلين ، وهل هناك أمل فى افراج قريب أم أن الحبسة ستطول وستقضى علينا فى نهاية الأمر . ولكن ضبع شنودة الذى اعتدل فى جلسته وتأهب للدخول فى حوار طويل ، راح يتكلم وكأنه يقرأ من كتاب مفتوح :

— شوف لما أقولك .. العيش خاص .. والجبنة لازم حلوم و ١٥٠ جرام ، واللحمة يوم طشة فى السمنة ويوم مسلوقة .. ولازم حلو وفاكهة .. ولازم الكفالة ٦ جنيه للعامل و ١٠ جنيه للموظف .

تصورت أنه سيحدثنى عن الافراج ، فكان حديثه عن طيب الاقامة فى المعتقل ، ولكن الذى أرقنى فى حديثه هو الكفالات ، فسألته :

— احنا كمان هاندفع كفالات للحكومة ؟

— لا دى الحكومة اللى ها تدفعلنا .

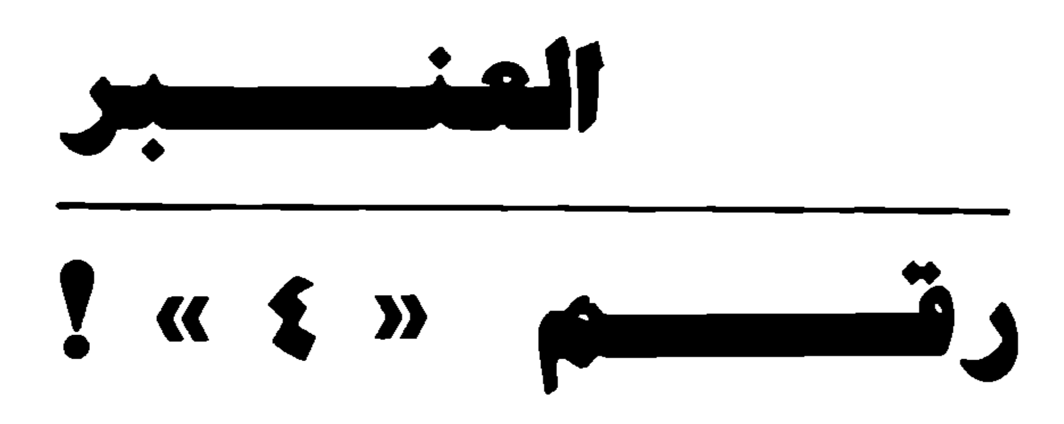
وراح ضبع شنودة يحكى للعبد لله طول الليل عن حياة المعتقلات فى العهد القديم .

كان بين المعتقلين أثرياء يهود ، وكانوا يتولون الانفاق على جميع المعتقلين ، وكانت السلطة تعاملهم باحترام . وفى المعتقل الذى فتح أبوابه بعد حرب فلسطين ، تذوق ضبع شنودة أصنافا من الطعام لم يسمع عنها فى حياته ولم يرها فى أى مكان . كان الافطار يصل إلى المعتقل مباشرة من جروبى ، وكان الغداء يأتى من الشيمى وأحيانا من الدهان ، وكانت السجاير كنت وكرافن وملك مصر . وعندما أفرجوا عن ضبع شنودة بكى وهو فى القطار المتجه إلى الاسكندرية كما لم يبك من قبل . لقد خرج ضبع شنودة من جنة المعتقل إلى زحام الناس ومتاعب المهنة ومشاكل الأسرة .

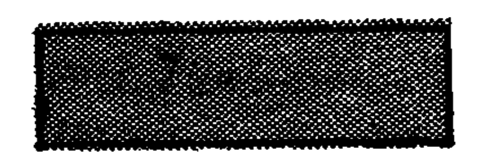
وقطع الحديث بيننا زميل همس فى أذنى بأن الزملاء فى جميع العنابر قرروا الاضراب عن الطعام غدا ، وأن الاضراب سيبدأ من العنبر رقم ١ .

الفصل السابع

●● كان صباحا حارا شديد الرطوبة عندما بدا الاضراب عن الطعام فى معتقل الفيوم.وقد جاء الأخ غطاس واغلق جميع النوافذ حتى لانرى ما يدور فى الخارج ، وكان عنبر واحد هو الذى يقف فى وش المدفع ولطفى الخولى بين المعتقلين فى العنبر إياه . وكان لطفى قد اصبح شخصية مرموقة فى المعتقل والمامور يعمل له الف حساب .







والسبب أنه وسط هذا الجو الرهيب سمحت السلطات بزيارة لطفى الخولى ، وجاء بعض أقاربه واجتمعوا به فى حجرة المأمور ، وبالرغم من جهل المأمور الذى صعد من تحت السلاح ، إلا أنه أدرك بذكائه الفطرى أن لطفى شخصية ذات وزن ، ومن الأفضل اتقاء شره وعدم الاحتكاك به . وجاء المتعهد بالطعام ولكن مندوب عنبر واحد أعلن رفض الاستلام ، وأبلغ المأمور بأن العنبر مضرب عن الطعام . وتصور المأمور أنه يتعامل مع مجموعة من مهربى المخدرات فوقف يهدد ويتوعد وقال فيما قال .. انه مفوض من فوق باتخاذ كل الاجراءات إلى حد ضرب النار فى المليان . ثم أمر العنبر بالخروج فخرج جميع المعتقلين على الفور . وكأنهم كانوا يستعدون منذ فترة لهذه الموقف الرهيب . وراح المأمور يكرر اسطوانته المشروخة ، وأنا عندى أوامر بالقتل ، واللى مش هياكل سأدفنه فى المعتقل .. إلى آخر هذا الكلام الهرش مخ . ثم قال بعد بعد أن فقد صوته من شدة الحزق .. اللى مصر على الاضراب يأخذ خطوة قدام . وتقدم اثنا عشر معتقلا خطوة إلى الأمام وفوجىء المأمور بأن لطفى الخولى من بينهم ونظر المأمور إلى لطفى وقال .. بلاش انت يا أستاذ لطفى . ورد عليه لطفى الخولى .. وبلاش أنا ليه ؟ أنا أولهم ! وزفر المأمور زفرة حارة ثم شوح بيده ، وقال .. خلاص اتفضلوا خشوا جوه العنبر ، ثم راح يحجل فى اتجاه مكتبه ، واضطر إلى التنازل فوافق على اجراء حوار مع بعض المعتقلين لعرض شكواهم على البيه المأمور .

وكان هذا الحادث الصغير سببا فى انهيار نظام المعتقل ، صار الأمر فوضى . وتراخت الأيدى التى كانت ممسكة بقوة على زمام الأمور ، لم يبق إلا العيسوى فى حالة اشمئناط دائمة ، وغطاس فى حالة البحث عن رشوة من أى مكان .

وبعد عدة أيام كبس المعتقل عدد من رجال المباحث العامة ، وراحوا يفتشون فى العنابر ويوجهون أسئلة إلى بعض المعتقلين وعندما دخلوا عنبر ٣ حيث كان العبد لله يقيم ، راحوا ينظرون هنا وهناك ، وعندما اقتربوا من سريرى القوا نظرة تحته .. ثم سألنى الضابط .. إيه كل الحاجات ده ؟ وقلت للضابط ببراءة شديدة .. دى الكوميونة . وقال الضابط فى براءة مصطنعة .. إيه الكوميونة ده ؟ وراح العبد لله يشرح للضابط مهمة الكوميونه وكيف أننا نوزع السجاير والفاكهة والأطعمة على الغلابة المعتقلين ، وبعد أن استمع الضابط وانشكح وسألنى عن اسمى ، وقام بتدوينه على ورق قبل أن ينصرف ، ومرت أيام قليلة ثم حضر إلى السجن مفتش المباحث بالفيوم وعدد من مساعديه واتجهوا إلى مكتب المأمور وغابوا فيه قليلا ثم عادوا من حيث أتوا ، ولكن المأمور اتجه نحو العنابر وفى يده كشف طويل ثم حدثت حركة وجلبة وضوضاء فى أنحاء العنابر التى دخلها المأمور ، ثم جاء إلى عنبر ٣ وراح ينادى على أسماء وكان اسم العبد لله من بينها ..

اجتاحتنى نوبة شديدة من المشاعر والانفعالات هى خليط من الفرحة والخوف والقلق ، أخيرا بدأت المياه تتحرك فى البحيرة الراكدة وهذا الذى يحدث الآن قد يكون خيرا وقد يكون شرا ، ولكنه شىء مختلف على كل حال ، أخيرا فهمنا أن المقصود من هذه الحركة هو اجراء حركة تنقلات بين المعتقلين لأسباب أمنية .. هكذا قال حضرة المأمور العليم ببواطن الأمور .. ووجدت نفسى أخيرا فى عنبر ٤ مع وجوه جديدة ونزلاء آخرين ، كان من بينهم الماركسى القديم أسعد حليم والمناضل القديم عزب شطا والزميل عبدالستار الطويلة ، ونفس المعتقل السابق ذكره الذى بكى ذات صباح ونحن جلوس فى صفوف منتظمة خارج باب سجن القلعة ، والذى

رأيته بعد ثلاثة أيام فى فناء السجن يرتدى فانلة كورة شبيهة بفانلة فريق الترسانة ومعه براد شاى كبير وعدة أكواب فى اليد الأخرى وينادى على بضاعته .. مين يشرب شاى يا زملا ؟ المعتقل أحمد شوقى عبد الهادى ، الذى سيلازمنى كل مراحل فترة الاعتقال ، والذى سيكون له شأن كبير فى تنظيم زمش عند تأسيسه فى سجن الواحات الخارجة .

ورحت استفسر من معتادى النضال والمترددين على المعتقلات عن سر هذا الاجراء الذى ضمنا جميعا فى عنبر واحد . وجاءت الاجابات مختلفة ومتناقضة ، البعض قرر أن هذا الاجراء هو تمهيد لبدء عملية الافراج وتصفية المعتقل .. وأكبر دليل على ذلك هو وجود العبد لله وسط هذا الحشد من المعتقلين ، فقد كان العبد لله فى رأى هؤلاء بريئا من تهمة الشيوعية.وأخيرا جاء دور أسعد حليم ليفسر للعبد لله هذه الظاهرة ، فقال فى هدوء شديد وفى ثقة العالم الخبير : ان تجميع هذا العدد من المعتقلين هو نذير سوء بلا شك .. وأننا جميعا فى الطريق إلى المحاكمة أو إلى التصفية الجسدية ، وعندما سألته عن سر تشاؤمه إلى هذا الحد ، أجاب بأن كل الموجودين تم اختيارهم بدقة ، فأغلبهم سبق اعتقاله أكثر من ست مرات ، وبعضهم قضى نصف حياته فى السجون وبعضهم صدر ضده أحكام من المحاكم ، وضرب أسعد حليم مثلا بعبد الستار الطويلة الذى تردد على المعتقلات أكثر من سبع مرات وعزب شطا الذى يخرج من المعتقل إلى المعتقل ، كما أنه شقيق محمد شطا أحد رموز الحركة الماركسية فى مصر ، ثم راح يعدد ويشرح ويفيض فى الشرح ، وأخيرا سألته : ولماذا أنا وسط هؤلاء ؟

أجاب .. هذا هو الشىء الذى يحتاج إلى تفسير .

صدقت نبوءة أسعد حليم ودخلت المعتقل فى صباح اليوم التالى قافلة من السيارات الضخمة ، وسرية حراسة مسلحة بالمدافع الرشاشة يرأسها ضابط برتبة عقيد ومعه اثنان برتبة المقدم وثلاثة برتبة رائد ونصف دستة من النقباء والملازمين ثم عدد لا حصر له من الصولات والشاويشية . وفتحوا باب عنبرنا وراحوا يقيدون المعتقلين بنوع من القيود

الحديدية يطلقون عليه اسم الحجلة وهذه الحجلة تقيد القدمين واليدين ويتصل القيد الذى فى اليد بالقيد الذى فى القدم بسلسلة طويلة تحدث صوتا أثناء عملية السير وتقيد الحركة فلا تسمح إلا بخطوة قصيرة.وركبنا السيارات وغادرنا معتقل الفيوم فى الصباح الباكر ، وراحت السيارات تتهادى بنا عبر طريق زراعى موحش وغير ممهد فى طريقها إلى بنى سويف ، وافتى بعض الخبراء بأننا فى الطريق إلى سجن بنى سويف تمهيدا لتقديمنا إلى المحاكمة وقرر البعض أن سجن بنى سويف هو أسوأ سجون مصر على الاطلاق ، ان لم يكن أسوأ سجون الدنيا كلها ، ولكن القافلة اتجهت إلى محطة بنى سويف وتخلصت من حمولتها هناك وأجلسونا على الأرض وأعادوا فرزنا من جديد ، ولما اطمأنوا إلى أننا (تمام) ولم ينقص منا أحد تركونا جالسين على الأرض ، بينما أحاط بنا العساكر والمدافع مصوبة نحونا ، بينما احتل عشرات من الجنود أسطح المحطة ، وافترش آخرون الرصيف المقابل وخيل للعبد لله أن الحلفاء القوا القبض على هتلر وزعماء النازى وقادة الجيش الألمانى وأفراد جهاز الجستابو الشهير ..

كانت شمس مايو تتوسط الأفق والحرارة شديدة والعطش يستبد بنا عندما مر من أمامى مساعد حكمدار بنى سويف واسمه على ما أذكر صدقى الغنام أو صادق الغنام ، وكنت قد عرفته فى العام ١٩٥١ ابان معركة السويس حيث كان وقتئذ برتبة نقيب وكانت له مواقف وطنية إلى جانب الفدائيين مع اليوزباشى نجم الدين واليوزباشى محمد عسل واللواء مصطفى المتولى ، ونظر الغنام للعبد لله وطويلا ، واعتقد أنه وقف أمام سؤال هل الجالس وسط المعتقلين هو العبد لله أم شخص يشبهه ؟ وعندما التقت نظراتنا أسرع بعيدا عن المكان ثم اتجه نحو قائد الحراسة وألقى نظرة على كشف المعتقلين الذى يحمله ، وعندما تأكد أن الشخص الذى رآه هو العبد لله ولا أحد غيره بقى بعيدا ولم يقترب مرة أخرى من المكان ..

وبعد ساعات من الحر والعطش والجوع والانهاك الشديد وصل القطار

المتجه إلى الصعيد ، واكتشفنا أننا سنسافر فى عربات خصصت لنقل البهائم ، وبدأت عملية حشرنا داخل العربات بينما كعوب البنادق كانت تساعدنا على الاسراع فى عملية الركوب وتلقى العبد لله شلوتا فى ظهره وأنا أهم بدخول العربة وعندما القيت نظرة خلفى اكتشفت أن صاحب الشلوت هو العقيد الغنام نفسه ، ولا أعرف السبب الذى دفع الغنام إلى ضرب العبد لله بالذات ربما انتابه الخوف من أن أكون قد فضفضت إلى غيرى من المعتقلين بعلاقتى السابقة أيام معركة القناة ، ربما خشى أن يكون أحد من المسئولين على علم بهذه العلاقة فأراد أن ينفيها بشدة وأن ينفيها عمليا ، فأهدانى هذا الشلوت وأنا على باب عربة البهايم التى ستذهب بى إلى سجنى الجديد ، وراح القطار يزحف مغادرا بنى سويف فى طريقه إلى ابو طشت ، ولكن وقع حادث رهيب أثناء توقف القطار فى محطة صغيرة بعد سوهاج ، وكنا مربوطين كل عشرين معتقل فى حجلة واحدة . اذا أراد بعض المعتقلين من فريق حجلتنا أن يستنشق بعض الهواء النقى ، فوقف على السلم أثناء توقف القطار ، ولكن القطار اندفع فجأة إلى الأمام فسقط اثنان من المعتقلين على الأرض ثم سقط اثنان آخران أذكر من بينهم شعبان الحدق وعبد الستار طويلة واندفع القطار بهمة فى طريقه إلى الأمام ، بينما راح المعتقلون يسقطون أسفل القطار واحدا وراء الآخر ، وصرخ عبد الستار الطويلة والقطار يجرجره على الأرض .. مؤامرة .. مؤامرة يا زملا .. المخابرات المركزية .. المخابرات المركزية يازملا ..

كان الصف الذى أمامى قد سقط على الأرض بينما انحشرت أنا وزميلى شوقى عبد الهادى عند الباب ، نحاول دون جدوى أن نتشبث بمكاننا عند الباب ولكن الحمل ثقيل والذين سبقونا إلى الأرض يجذبوننا بقسوة ، وفى هذا الوقت انطلقت عدة رصاصات فى الهواء تبعتها زخات من طلقات المدافع الرشاشة ، ويبدو أن السائق انتبه إلى أن هناك شيئا يجرى فى القطار فتوقف عن السير ، وكانت وقفته المفاجئة سببا فى وقوعنا على الأرض ولكننا لم نصب إلا بخدوش بسيطة ، بينما أصيب شعبان الحدق وعبد الستار الطويلة وآخرون برضوض وجروح خطيرة ، وتوقف القطار

نصف الساعة لاعادة حصرنا من جديد ولما تأكدوا من أن عدد الجثث الحية مضبوط عاود القطار سيره فى هذا الليل إلى محطة الوصول ..

وصلنا إلى أبو طشت فى الصباح الباكر وتوقف القطار فى محطة جانبية وبدأنا فى النزول ثم الجلوس القرفصاء على رصيف المحطة انتظارا للقطار المتجه إلى الواحات ، وجاء القطار فى الحادية عشرة صباحا وبدأنا رحلة جديدة إلى واحة المحاريق وسط الصحراء ، وكان قطارا أشبه بلعبة من لعب الأطفال ومن النوع الذى يظهر فى أفلام والت ديزنى ، ولكنه كان أفضل من قطار الصعيد فيه مقاعد ونوافذ ، وامتدت الصحراء أمام أعيننا بلا نهاية ، تضاريس أشبه بتضاريس القمر التى رأيناها على الشاشة عند هبوط أول رائد فضاء على سطح القمر ، فجوات وتلال وأخاديد ورمال محترقة ورمال ناعمة وكهوف وجحور ومناظر لم تقع عليها أعيننا من قبل ، وسرحت بعيدا إلى سجن الواحات ، لابد انه سجن رهيب أقيم خصيصا لتأديب عتاة المجرمين ولابد أننا سنلاقى الشدائد والأهوال خلف أسواره ، واذا كان معتقل الفيوم كان يشبه معتقلات النازى فماذا يكون شكل معتقل الواحات وهو على بعد مئات الأميال من وادى النيل ؟

واستسلمت لنوم عميق ولم استيقظ إلا والزملاء يهزوننى بعنف لاكتشف أننا فى محطة المحاريق ، كانت المحطة أشبه بمحطات الريف مجرد رصيف وكشك ثم لاشىء بعد ذلك ، وصحراء بلا نهاية وفرقة من عساكر بلوكات النظام يحملون البنادق ، ونزلنا وسط هذه المظاهرة الأمنية الشديدة واتخذنا طريقنا على الأقدام إلى سجن الواحات ..

كان السجن عبارة عن عنبرين كل عنبر من دور واحد بناؤه يشبه بناء المساكن الشعبية ومبنى ثالث أغلب الظن أنه مبنى الادارة ولم يكن للسجن سور والعنابر منها للصحراء بلا حواجز ، وعدنا للجلوس على الأرض أمام عنبر رقم ١ ، ومن خلال قضبان باب العنبر جاءنى صوت ينادى باسمى وكان صاحب الصوت يرتدى بدلة سجن زرقاء ويضع على عينيه نظارة طبية ودققت النظر فيه ، كان صاحب الصوت يشبه صديقى الكاتب الكبير صلاح حافظ وكان قد غاب فى السجن منذ عام ١٩٥٤ ، ولم

ارد على صاحب الصوت فقد خفت من تكرار ما حدث فى معتقل الفيوم ، ولكن الصوت عاد ينادى من جديد ، ثم نادى على أحد عساكر السجن وأمره بالبحث عن محمود السعدنى وأعطاه سيجارة مشتعلة لكى يعطيها لى ، وراح العسكرى يفتش عن محمود السعدنى وسط هذا القطيع البائس فلما اقترب منى وسألنى عن اسمى أجبته فناولنى السيجارة ولكنى اعتذرت ولكن العسكرى أصر ، وناولنى السيجارة فأخذتها وأنا غير مصدق لما يجرى أمامى ، هل المعاملة هنا أفضل من المعاملة فى معتقل الفيوم ؟! وهل العساكر هنا أرق وأرحم ؟ غريبة .. هل هذا هو سجن الواحات ؟

ولم تمض دقائق حتى صرنا داخل العنبر وتلقانى صلاح حافظ بالأحضان ، ووجدت نفسى داخل حجرة لاتشبه حجرات السجون ولكنها أشبه بحجرة عادية فى بيت ..

ووجدت نفسى مع خمسة عشر معتقلا بينهم أديب ديمترى ولطفى الله سليمان صاحب المكتبة الشهيرة فى شارع عدلى وأسعد حليم وأحمد شوقى عبد الهادى ، ثم جاء الغداء ملوخية لم أتذوق مثلها منذ ماتت المرحومة ستى هدية ، وعيش لم أر مثله منذ أغلق مخبز الرمالى الشهير ولحم ليس له نظير فى محل الشيمى.وانتعش العبد لله وهتفت فى أعماقى يا سبحان الله .. أين أنت ياسجن الواحات الخارجة ؟

ولماذا تعطل مجيئنا إليك منذ يوم ٢٧ مارس وهو يوم القبض علينا ؟

وهكذا قدر للعبد لله أن يكون واحدا من فئة الشراشى العليا المناضلين الكبار ، فليس بعد سجن الواحات مرتبة يرتفع إليها المناضل الكبير ، وهكذا أيضا قدر للعبد لله أن يتذوق طعم النوم العميق لأول مرة منذ خطفنى الضابط المهذب طوسون من بيتى فى الجيزة إلى مكتب المباحث العامة فى الدقى مؤكدا للعبد لله ان العملية لن تستغرق أكثر من خمس دقائق .. لا تزيد !



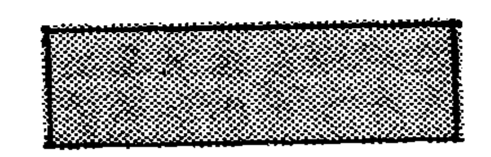
الفصل الثامن

اخيراً .. وصلنا إلى سجن الواحات ، واصبحنا مكافحين من الفئة الممتازة ، وهاهم عشرات من اصدقاء الصبا والشباب نلتقى بهم بعد غيبة طويلة فى صحراء المحاريق .. على الشوباشى ، الذى اكتشفت من خلال تنظيمه ان الشيوعيين فى مصر ليسوا فى تنظيم واحد ، ولكن هناك تنظيمات شتى .. متصارعة ومختلفة .. ومن خلال تنظيم (و ش) ، اكتشفت ان الحركة الشيوعية تضم عددا لا باس به من اليهود .









عرفت من بينهم عادل رفعت ، الذى كان فى نفس الوقت زوجا للفنانة فاتن الشوباشى ، وأحمد صادق سعد ، الذى كان نجما من نجوم الحزب الشيوعى ، والمحامى شحاته هارون ، وآخر اسمه ريمون دويك وقد اشتغل بعد المعتقل مديرا للعلاقات العامة لاتحاد الكرة ، وكان لهؤلاء اليهود نفوذ كبير فى التنظيمات الشيوعية ولكن فى الخفاء ، ولم يكن أحد منهم - رسميا - فى قمة التنظيمات الشيوعية . وأقول رسميا ، لأنهم بالفعل كان لهم نفوذ واسع ومؤثر فى الحركة الشيوعية المصرية ، فهم جميعا من الحرس القديم ، الذين عاصروا الحركة الشيوعية فى بدايتها أيام الحرب العالمية الثانية ، وكانت التعليمات خلال فترة اعتقالهم بالواحات هو عدم الاعلان عن دورهم الحقيقى فى الحزب ، والتأكيد على أنهم مجرد أعضاء فى الحزب الشيوعى المصرى . وربما كان هذا الموقف هو نتيجة عقدة من اتهام الآخرين لهم بأنهم يعملون مع اليهود ، وينفذون مخططا يهوديا لصالح إسرائيل ..

ولقد وقع من جراء هذا الموقف حادث مضحك للغاية . فقد ذهب ريمون دويك إلى المحكمة ووقف فى القفص وعندما سأله رئيس المحكمة .. هل أنت عضو فى الحزب الشيوعى المصرى ؟ أجابه ريمون دويك .. اتشرف بأننى عضو قيادى بالحزب الشيوعى المصرى . ونطق القاضى بالحكم .. السجن مع الأشغال الشاقة لمدة ١٠ سنوات ، ولو كان ريمون دويك أجاب بأنه

عضو فى الحزب الشيوعى المصرى فقط من غير قيادى ، لكان الحكم ٥ سنوات فقط !

المهم أن ريمون دويك عاد إلى السجن وهو يحمل على كتفه حكما بالسجن مع الأشغال الشاقة مدة عشر سنوات . وفى مثل هذه الحالات يستقبل السجن العائد من المحكمة إلى سجنه بزفة ، ولكن الذى حدث أن ريمون دويك عندما عاد إلى سجنه لم يجد ترحيبا من أحد ، ولكنه وجد محكمة حزبية فى انتظاره ، وبعد محاكمة عاجلة ، صدر الحكم ضده بالفصل من الحزب ، ليه ؟ لأنه خالف التعليمات الصريحة ، وقرر أمام محكمة أمن الدولة أنه عضو قيادى ، وهو أمر مخالف للحقيقة ويلقى على التنظيمات الشيوعية ظلا من الشك .

الأمر المهم الذى استرعى انتباه العبد لله أن أغلب اليهود الشيوعيين الذين كانوا معنا فى سجن الواحات ، أشهروا اسلامهم واكتسبوا أسماء جديدة ، وكان أكثرهم غرابة أحمد صادق سعد وهو مهندس ، كان يرتدى فى المعتقل قميصا مفتوحا وشورتا ، ويقضى نهاره كله يدور ويلف حول نفسه ، بينما السيجارة تتدلى من بين شفتيه ، ونادرا ماكان يتبادل الحديث مع أحد ، ولكنى لاحظت أنه كانت تبدو عليه السعادة اذا تبادل حديثا باللغة الفرنسية .

وذات صباح خطر للعبد لله أن يمزح معه ، فقلت له .. بونجور .. واذا به يلتفت للعبد لله وهات يارطن بالفرنساوى . وعندما اكتشف انى لا أعرف الفرنسية غضب غضبا شديدا . والسبب اننى أثناء انهماكه فى الحديث بالفرنسية كنت أهز رأسى وأردد كلمة وى .. وى ، لكنه يبدو أنه ألقى على العبد لله سؤالا ، فلما أجبته بالعبارة التى أرددها دائما (وى) أدرك أننى أعرف فى الفرنساوى كما تعرف خالتى بهانة فى اللغة اليابانية . وعندما ضحكت ، ازداد غضبه ، فتدخل ابراهيم العطار وحاول اصلاح ما أفسده الدهر ، ولكن ناله من أحمد صادق سعد ما نالنى من قبل .

وكان ابراهيم العطار من الشيوعيين القدماء ، وكان صاحب تاريخ فى المعتقلات السابقة ، وفى بداية حياته كأحد صولات الجيش فى سلاح

الطيران ، واتهم مع بعض زملائه باعتناق المبادىء (الهدامة) ولكن التحقيق معهم لم يثبت شيئا ضدهم ، فاكتفوا بنقلهم إلى الواحات وكان رجلا خفيف الدم مرحا وعطوفا وطيب القلب ، ولذلك توثقت الصلة بينى وبينه من أول لحظة اجتمعنا فيها داخل معتقل الواحات ، وتطورت علاقتنا إلى صداقة حقيقية عندما تحالفنا معا ضد صادق سعد ، ورحنا نلاحقه فى الحوش بالنكت ، ولكن صادق سعد لم يكلف نفسه مرة واحدة بالرد علينا ، أو حتى مجرد الاهتمام بأمرنا .

لكن بعد أسبوع من بداية حملتنا ضده ، تشرفت زنزانتنا بزيارة زميل جاء يقضى الليل معنا ، وتصور انه جاء لقضاء سهرة مع أصدقائه ولكنه أفصح عن سر الزيارة فى منتصف الليل ، عندما نظر للعبد لله وقال وعلى وجهه تعبير كبار المسئولين الذين يحملون على أكتفاهم هموم البشر : اسمع ياسعدنى .. أنت وابراهيم العطار بتنكتو على صادق سعد .. وعاوز أقولك إن صادق سعد ده علامة فى الحركة الشيوعية ، وعاوز أقولك ان الشيوعيين لما دخلوا شانجهاى شنقوا اللى زيك انت وابراهيم العطار . وقلت للزميل المتحمس .. على كل حال لما تخشوا القاهرة يبقى يحلها ربنا .

وهذا الزميل المتحمس تعمدت عدم ذكر اسمه لأنه انتقل إلى رحمة الله ، ولأنه بعد ستة أشهر من هذا الانذار الذى وجهه للعبد لله ، حمل متاعه القليل وجاء إلى زنزانتى ، وصار واحدا من زعماء حزب زمش .. الذى سيأتى ذكره بالتفصيل-فيما بعد . وغير على الشوباشى ، كان معنا على الشلقانى ، وهو برنس حقيقى وفارس من عصر الفرسان . كان شديد الاعتداد بنفسه وشديد التواضع فى نفس الوقت ، وكان يتصرف فى السجن وكأنه يعيش على شاطىء بحيرة ليمان فى جنيف .

وكان هناك أسعد حليم .. الهادىء الصامت الواثق من نفسه . وكنت قد سمعت بأسعد حليم من صديق مشترك هو بكر سيف النصر . الذى مات فجأة وهو فى شرخ الشباب . ثم التقيت به فى بيروت وفى ظروف غريبة . ففى اثناء العدوان على مصر فى عام ١٩٥٦ ، أصدرنا نحن

مجموعة من الصحفيين المصريين الذين تصادف وجودنا فى لبنان وقت وقوع العدوان ، صحيفة مصرية ، وبالفعل صدرت جريدة الجمهورية (لسان حال جمال عبد الناصر) واشترك فى تحريرها مجموعة من الصحفيين والكتاب المصريين ، منهم محمد عودة وسعد الدين وهبة وعبد الرحمن الشرقاوى وسامى جوهر وعلى جمال الدين طاهر . وباعتبار العبد لله هو المحرر المقيم فى مكتب الجريدة ، والمشرف على تحريرها مع سامى جوهر ، فقد كنت أتلقى رسالة يومية تحوى مقالا يدل على أن كاتبه من الكتاب المحترفين . وكان كاتب المقال المجهول يحضر كل صباح إلى مكتب الجريدة ويسلم مقاله إلى البواب وينصرف . وكان يوقع مقالاته باسم أحمد صادق ، ولم أكن قد سمعت من قبل بكاتب يحمل هذا الاسم .

وذات صباح تصادف مجىء العبد لله إلى مكتب الجريدة فى نفس اللحظة التى كان فيها أحمد صادق يسلم مقاله إلى البواب ، فصافحته ودعوته للدخول . وجلسنا فترة نتحدث . وتشعب الحديث بنا إلى مصر ، وجاءت سيرة بكر سيف النصر ، وكان اسم بكر سيف النصر هو العصا السحرية التى فتحت مغاليق الكاتب المجهول أحمد صادق . واكتشفت أن الذى يجلس أمامى فى مكتبى المتواضع فى جريدة الجمهورية فى بيروت ، هو المناضل القديم أسعد حليم . وكان أسعد حليم لسوء حظه فى المعتقل عندما قامت الثورة ، وأفرجت الثورة عن كل المعتقلين ، ولكنها احتفظت فى المعتقل بعدد قليل منهم ، كان من بينهم أسعد حليم . وأدرك أسعد حليم المجرب الخبير ان المعتقل سيكون هذه المرة بلا نهاية . فخطط للهرب من المعتقل ومن مصر كلها ، ونجح فى تنفيذ الخطة بمساعدة الصديق الشهم بكر سيف النصر . وبعد أن قضى فى مصر عدة أسابيع بعيدا عن العيون ، استطاع الخروج منها على ظهر مركب ، نقلته إلى بيروت . وعندما وقع العدوان على مصر ، سارع المناضل القديم إلى حمل القلم والدفاع عن وطنه ضد المعتدين ، وبعد العدوان أصدرت حكومة الثورة عفوا عن جميع المتهمين السياسيين ، ودعت الذين يعيشون منهم فى الخارج للعودة ،

وصافى يالين ، وفتح صفحة جديدة لبناء المجتمع الجديد .

كان أسعد حليم من أول الذين لبوا النداء وعادوا إلى أرض الوطن . ولكن عندما حانت الفرصة اعتقلت الحكومة أسعد حليم ، مع أنه لم يكن عضوا فى أى تنظيم شيوعى ، ولم يكن له نشاط ضد الدولة من أى نوع ، ولكنها الدوسيهات القديمة والملفات التى ملأها التراب ، أيضا كان هناك فايق فريد .. المهندس العالم والأستاذ العبقرى . كان فايق فريد فى سجن الواحات كالنسمة الطرية فى ليلة صيف ، وكان حريصا على أن يبدو هادئا وسعيدا على نحو ما . وأخيرا كان هناك الدكتور حمزة البسيونى .. الضاحك دائما ، المتفائل بالرغم من كل شىء .

وطابت الحياة فى سجن الواحات للعبد لله ، فالحياة محتملة ، والرفقة بعضها طيب ، وأغلبها مش ولابد ، ولكنها محتملة على كل حال . ثم جاء يوم وجرى توزيع المعتقلين داخل السجن على أساس الانتماء الحزبى . أعضاء الحزب الشيوعى المصرى فى غرف خاصة بهم ، منظمة حدتو فى غرف خاصة بها ، وغرف أخرى مخصصة لتنظيم طش ، وغرف أخرى لتنظيم وش .. وكانت المشكلة التى احتار حلها الجميع هى مشكلة المستقلين .

وأصل الحكاية أن السجن كان يضم عشرات من الذين لا ينتمون لأى تنظيمات شيوعية ، بعضهم ماركسيون .. مثل لطف الله سليمان وأسعد حليم ، وللبعض منهم علاقته بالشيوعية الماركسية كعلاقة ستى هدية بعلوم الفضاء .. مثل أحمد شوقى عبد الهادى ، وكان هناك نوع آخر ، هم الذين كانوا فى تنظيم شيوعى لحظة القبض عليهم ، ولكنهم خلعوا من التنظيم بعد وصولهم إلى المعتقل . وعقدنا اجتماع قمة حضره ابراهيم العطار وأحمد شوقى عبد الهادى وعبد الموجود ابراهيم أبو زيد وهو من عمال السكة الحديد ، ومحمد عبد الواحد وهو رئيس نقابة عمالية كبرى .. والعبد لله .

كان الهدف من الاجتماع أن يكون لنا تنظيم خاص بعيدا ومختلفا عن التنظيمات الشيوعية ، صحيح أننا شيوعيون أمام الدولة ، ولكننا فى واقع

الأمر لا علاقة لنا بالتنظيمات على الاطلاق . ولكن كيف ؟ هذا هو السؤال .

كان من رأى ابراهيم العطار أن انضمامنا لأى تنظيم ، حتى ولو كان تنظيماً فكاهياً ، سيجذب انتباه الأجهزة الحكومية ، وقد تكون له عواقب وخيمة ، ولكن كان لابد لنا من حل المشكلة ، ولذلك قررنا أن يفكر كل منا فى حل يحقق لنا الهدفين معا .. التنظيم وعدم استفزاز الحكومة . وقضينا أسبوعا فى الشتات .

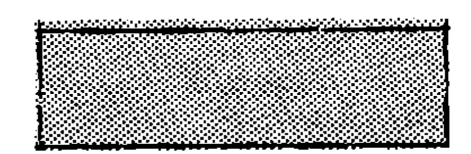
كان العبد لله يعيش فى حجرة تضم اديب ديمترى ، وهو رجل فاضل من خبراء التعليم ، وكان قصير القامة ، وحبكت النكتة مع العبد لله ، فأطلقت عليه اسم أديب ديمللى ، باعتباره أنسب لقصر قامته ، ومع ذلك لم يغضب أديب ديمترى ولم يحتج ولم يوجه للعبد لله انذارا كما فعل صادق سعد ، ولكنه ضحك من أعماقه ، واعتبرها نكتة أشاعت فى جو السجن الكئيب ضحكة صافية ، كان معنا أيضا محمد المستجير ، ولو كان كل الشيوعيين مثله ، لحكموا العالم كله . ولكن هؤلاء الرفاق لم يمنعوا العبد لله من التفكير ، وهو التفكير الذى قادنى فى النهاية إلى اكتشاف الحل .. ولكن ماهو الحل ؟

الفصل التاسع

كان تنظيم زمش هو الحل لمواجهة حالة عدم الانتماء التى اوقعتنا فى ورطة داخل سجن الواحات . كان اسم تنظيمنا الذى اهتديت إليه هو على وجه التحديد (زاى ما انت شايف) واخذت الحروف الاولى من الكلمات الثلاث (ز . م . ش) ولم يكن هذا اختراعا من اختراعات العبد لله ، فقد كان فى المعتقل تنظيم الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى . ولكنه كان معروفا بين الناس باسم (حدتو) وكان هناك تنظيم وحدة الشيوعيين الذى عرف باسم (وش) .

المؤامرة والتفاح !





كماكان هناك تنظيم طليعة الشيوعيين الذى عرف باسم (طش) وبالفعل قامت زمش واشتهرت ودخلت تاريخ الحركة الشيوعية فى مصر . وتولى العبد لله منصب سكرتير عام زمش . يعنى رأسى برأس خروشوف على طول ، وتولى إبراهيم العطار رئاسة المكتب السياسى ، وتولى أحمد شوقى عبدالهادى مسئولية الامداد والتموين .

والحق اقول ان مهمتى ومهمة ابراهيم العطار كانت سهلة للغاية ، فنحن نصدر البيانات ، ونضع التحليل المناسب للحالة السياسية ، اما مسئولية احمد شوقى عبدالهادى فقد كانت صعبة للغاية . فقد كان غذاؤنا يوفره السجن لنا . ولكننا فى اول الامر كنا فى حاجة الى شاى ناشف وسكر وكميات من الوقود لزوم إنضاج الشاى فى الزنزانة ، وقد نجح مسئول التموين فى تدبير هذه المواد ، بعلاقاته ببعض الشاوشية المشرفين على الكانتين وبأحد الزملاء الذين يعملون فى الورشة .

ومضت الحياة بنا سهلة ومسلية ومحتملة الى حد كبير . وإرتاحت اعصابنا من تدابير معتقل الفيوم الذى كان نسخة طبق الاصل من معتقلات النازى ، ولقد قام تنظيم زمش بضم مجموعة من خيرة ابناء مصر . الماركسى القديم أسعد حليم صاحب الاعصاب الباردة والعقل الهادىء ولطف الله سليمان المثقف العصبى الذى ينطق عشر كلمات فرنسية فى جملة من ١١ كلمة ، والمحامى على الشلقانى الهادىء البسيط

الذى جعل من الزنزانة صالونا سياسيا على ارقى المستويات . وكان هناك ايضا الدكتور فايق فريد . العالم الذى لولا الظروف السيئة التى تعصف بالعالم العربى منذ منتصف القرن ، لكان له الآن شأن آخر . وكان معنا الحالم المحلق فوق السحاب عادل ثابت ، والتحق بنا فيما بعد الكاتب الصحفى فتحى خليل عليه رحمة الله . الى جانب مجموعة من اولاد البلد الطيبين ، على رأسهم عبدالموجود ابو زيد وعباس الدبيكى من عمال السكة الحديد .

وعندما تضاعف عدد الاعضاء وازداد عدد العاطفين على تنظيمنا . اضطررنا الى توزيع بعض الاعضاء على غرف مشتركة ، وتعمدنا ان تكون هذه الفرق تابعة لتنظيم (حدتو) لأنهم كانوا اكثر فهما للموقف السياسى واكثر مرونة وتجربتهم اعمق باحوال الشعب المصرى ، ثم حدث اول شقاق فى تنظيم زمش . وكان اول المنشقين هو الاستاذ ابو الخير المحامى . وعندما دخل ابو الخير السجن كان ينتمى الى تنظيم (حدتو) . ثم انسلخ عن (حدتو) وانضم الى تنظيم زمش . وفى اول امتحان اعلن العصيان وخرج على زمش واعلن نفسه مستقلا عن جميع التنظيمات . أما سبب انفصاله .. فلأن الحزب الشيوعى المصرى اجرى اتصالا بالقيادة الزمشية طالبا التعاون معه فى الحياة العامة ، وكان معنى هذا الطلب هو التنازل عن جزء من دخلنا للحزب الشيوعى المصرى .

كان تنظيم زمش هو أغنى التنظيمات الموجودة داخل المعتقل . فهو يضم ٢٥ عضوا يحصل كل منهم على الحد الاقصى المسموح به شهريا لكل معتقل . وهو مبلغ عشرة جنيهات شهريا . وعلى الفور عقدنا اجتماعا على مستوى القمة ثم اصدرنا فى النهاية قرارا بالاشتراك مع الحزب الشيوعى فى الحياة العامة والتنازل عن ٥٠ ٪ من دخلنا لهذا الغرض .. وكان من رأى العبدلله ومن رأى اغلبية زمش ان المسائل المعيشية لا علاقة لها بالسياسة واذا كنا نختلف مع الحزب الشيوعى فى كل شىء بالنسبة للموقف السياسى ، فنحن لا نختلف مع الحزب الشيوعى المصرى فى أمور

الشاى والسكر والسجاير . ولكن محمد ابو الخير اعترض بشدة ووصف هذا الموقف من جانبنا بأنه خطير للغاية ، وبداية للتورط فى مشاكل لا حد لها . وقال ان السلطة ستعتبر هذا التعاون دعما للحزب الشيوعى المصرى ، وستعامل زمش على انه تنظيم مؤيد للحزب وموافق على سياسته ، وسنلقى اسوأ مصير فى المعتقل وامام المحاكم .

ولكن العبدلله ، وباعتبارى خروشوف زمش قررت تنفيذ قرار الاغلبية وابلغت به الزميل سيد عبدالله مندوب الحزب فى الحياة العامة . وفى هذه اللحظة قطع الاستاذ ابو الخير علاقته بزمش ، وكان حريصا على اعلان موقفه على الملأ ..

وفى اليوم التالى تم تأليف اللجنة العامة التى تمثل جميع التنظيمات للاشراف على تنظيم حياة المعتقلين ، وحضر الاستاذ احمد طه عن (حدتو) والاستاذ سيد عبدالله عن الحزب الشيوعى والاستاذ حمدى حمدان عن (طش) والاستاذ على الشوباشى عن (وش) ، والعبدلله عن زمش .

وفى أول اجتماع تم انتخاب العبد لله رئيسا للجنة العامة لمعتقل الواحات ، وفوضنا الاستاذ سيد عبدالله والاستاذ على الشوباشى فى شراء ما يلزم المعتقلين من لوازم ومواد غذائية وسجاير . وقام الزميلان بمهمتهما على اكمل وجه . وتم تشوين المشتريات فى حجرة داخل السجن تسلم العبدلله مفتاحها باعتبارى رئيسا للجنة العامة . واجتمعنا فى اليوم التالى للشراء للنظر فى القواعد الواجب اتباعها فى توزيع هذه المواد وحصة كل تنظيم حسب عدد افراده ووضع نظام خاص للمرضى والمسنين .

وتصور العبد لله ان مهمة اللجنة لن تستغرق اكثر من دقائق يتم بعدها توزيع المواد على المعتقلين . ولكن الذى حدث بالفعل كان اغرب من الخيال .

بدأ العبدلله الجلسة بكلمة قصيرة أكدت فيها وجوب الاسراع فى توزيع المواد الغذائية ، خصوصا ان من بينها كميات من التفاح والكمثرى وقد تتعرض للتلف اذا لم نسرع فى توزيعها على الزملاء .. ولكن الزميل سيد

عبدالله رفع اصبعه وطلب الكلمة .. وقلت لنفسى ان سيد عبدالله لديه خبرة عريضة فى المعتقلات وهو لابد لديه خطة كاملة لعملية التوزيع . ولكنى فوجئت بالاستاذ سيد عبدالله يقول فى حماس شديد وبصوت هادىء: اسمحوا لى ان ابدا بعرض بعض المواقف التاريخية التى حدثت فى معتقلات سابقة ، ففى الواقع ان بعض الزملاء فى معتقل اوردى ابو زعبل ماتوا بسبب سوء توزيع المواد الغذائية لأن المشرف على التوزيع كان من تنظيم (د . ش) وكان يخص اعضاء تنظيمه بكميات وفيرة من السلامون والجبنة البيضاء والخضراوات والخيار والطماطم ، بينما لم يصل الى ايدى اعضاء تنظيم (الراية) الا النزر اليسير من هذه الماكولات عندئذ رفع مندوب تنظيم (طش) اصبعه قائلا : نقطة نظام . وحاولت اسكاته . ولكنى اكتشفت ان عبارة (نقطة نظام) هى العصا السحرية التى تجبر رئيس اللجنة على السكوت واعطاء الكلمة للزميل صاحب نقطة النظام ، وبدأ مندوب (طش) فى الكلام : الحقيقة التى يعرفها الزملاء ان المؤامرة ضد ممثلى الجماهير الكادحة لا تأتى من خارجنا فقط ولكنها وصلت الى صفوفنا ، وهدفها الوحيد هو تزييف تاريخ الحركة الشيوعية.وهذا دليل قاطع على ان الامبريالية والشواشى العليا للبرجوازية والطبقة الطفيلية لا تعمل وحدها ، ولكنها تعمل للاسف الشديد بالتعاون والتنسيق مع بعض التنظيمات المشبوهة التى دخلت تحت عباءة الماركسية وناضلت باسمها ، وما قاله الزميل سيد عبدالله هو جزء من هذا المخطط الذى يؤكد ان الحركة النضالية فى الممارسة تصطدم بعقبات تلك اخطرها على الاطلاق ..

وهنا رفع سيد عبدالله يده ناطقا نقطة نظام ورغم احتجاج حمدى حمدان مندوب (طش) ، الا انى اعطيت الكلمة لسيد عبدالله وقال سيد عبدالله (فى الواقع ..) ولا اعرف ما الذى حدث بعد ذلك ولا استطيع أن ارويه لحضراتكم ، لأن العبدلله نام اثناء المناقشة ، وعندما استيقظت كانت الشمس على وشك المغيب ، صفارات كثيرة تدوى فى ارجاء السجن فقد حان وقت التمام ، والشاويش حسن يقف على باب الزنزانة وفى يده شىء اشبه بالحزام الجلد ، وقال لنا « انتوا لسة بتتكلموا .. انتوا مش

هتوزعوا الاكل بقه عشان ينوبنا من الحب جانب ؟ »

وسألت المجتمعين عن النقطة التى وصلوا اليها ، فأجابوا الرئيس الذى هو حضرتنا بانهم اتفقوا على مواصلة الاجتماع غدا فى نفس المكان وفى نفس الوقت للاستماع الى كلمات مندوب (وش) ومندوب (طش) ونمت ليلتى وانا شديد القلق على مصير التفاح والكمثرى والطماطم والخيار التى اشتريناها من الكانتين والتى توشك على العطب ، ولكنى رغم الخوف والقلق حضرت الاجتماع فى اليوم التالى وحدث فيه ما حدث فى اجتماع ليلة امس . تحدث مندوب (وش) وقص علينا ما حدث فى المعتقلات السابقة وعدد الاخطاء التى وقعت فيها الحياة العامة وتدخل مندوب الحزب وقال : فى الواقع ، ثم عاد مندوب (طش) والقى الضوء على ابعاد المؤامرة الدولية للقضاء على طليعة الشعب المصرى ، ثم نام العبدلله كما حدث بالأمس ، واستيقظت على صوت الصفافير تدوى فى ارجاء السجن والشاويش حسن على الباب يطالب بحقه فى الكمثرى والتفاح وقمنا على موعد فى اليوم التالى فى نفس المكان ونفس الزمان .

واسبوع كامل ايها السادة ونحن نستمع الى سرد تاريخى على ما جرى للزميل على ورة فى معتقل الزيتون ، وعن المصير الاسود التى انتهى اليه الزميل عبده زقلط فى معتقل روض الفرج وهى احداث مؤسفة كان السبب فيها سوء العمل داخل الحياة العامة فى تلك المعتقلات .

وعندما فاض الكيل بالعبد لله قلت لهم بالحرف الواحد : سنجتمع هنا غدا واذا لم تصلوا الى اتفاق سينسحب تنظيم (زمش) من الحياة العامة . ولكن للاسف الشديد لم يقدر لهذا الاجتماع ان ينعقد ، لا فى الغد ولا فى اى وقت بعد ذلك ، وما حدث يصلح اساسا لفيلم سينمائى ارشحه لجائزة اوسكار . فبعد ان فتحوا ابواب الزنازين فى السابعة صباحا وقدموا طعام الافطار ، واثناء تجول المعتقلين فى انحاء الحوش ، اطلقوا الصفافير فى العاشرة صباحا وامرونا بالعودة الى داخل العنابر . واخذوا فى حشدنا داخل الزنازين واغلاقها ، ثم تجولوا داخل السجن لعمل التمام ، وقال بعض الخبراء من المعتقلين : ان هذا الاجراء يتم فى

حالة هروب احد النزلاء وقال الاستاذ ابراهيم العطار : لابد ان هناك كشفا يضم عددا من اسماء الذين سيفرج عنهم وصل الى السجن الآن ، وإنهم بعد أخذ التمام سينادون على اسماء المفرج عنهم ، وافتى احد الزملاء واسمه انور بأن الأوامر وصلت لنقل بعض القيادات الى القاهرة تمهيدا لمحاكمتهم والحكم عليهم بالاعدام !

ووسط جو التخمينات والتكهنات دخل العنبر احد المسجونين من الاخوان المسلمين ووقف امام نافذة الزنزانة وقال بصوت يلونه الاسى والاسف : شدوا حيلكو والبسوا حاجات تقيلة .. وسخرت من نصيحة الاخ المسجون وقلت معلقا : ان الشتاء لا ياتى فى شهر سبتمبر وفى الواحات بالذات . ولكن البعض اخذ فى ارتداء جميع ملابسه من فانلات وكلسونات وجلاليب وجاكتات وبنطلونات حتى صار كل واحد منهم اشبه بالكرنبه . وجلسنا داخل الزنازين ننتظر ما تخبئه لنا الاقدار !

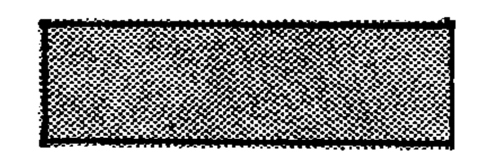
الفصل العاشر

الله يقطع الحنجورى ويقطع سنينه السوداء ، حرمنا من التفاح والكمثرى واضاع علينا فرصة الاستمتاع بطبق السلطة من الطماطم والخيار . لقد كان الاخ الذى نصحنا بارتداء ملابس ثقيلة على حق ، فقد فوجئنا بكتيبة من العساكر كلهم من صنف الاشاوس ، طول بعرض صدور مفتوحة وعضلات منفوخة ، ولديهم رغبة غريزية فى طحن عظام جميع مخاليق الله والمساجين منهم على وجه الخصوص .

ألفية

إبن ماركس !





لقد حل ضيف السجن سعادة اسماعيل باشا همت ، وهو ضابط جيش تخلصت منه الثورة والقت به الى مصلحة السجون وصار وكيلا لها ، ولكن فشر أن يقبل الباشا ان يكون واحدا من الوكلاء فاسس لنفسه جيشا داخل المصلحة ، وتولى منصب القيادة ، واحاط نفسه بحفنة من المساعدين القدامى الذين سبق لهم الخدمة مع حيدر باشا عندما كان مديرا لمصلحة السجون . وطرق اسماعنا من خلال القضبان وقع اقدام الجند وصدى كعوب بنادقهم وهى تصطدم بالأرض . ثم صاح احدهم فى الجنود :

— ابعد عن الرأس والبطن واضرب .. ثم فتحوا باب العنبر ، واخذوا فى اخراج زنزانة وراء زنزانة ، وكان يفصل بين خروج الزنزانة والاخرى حوالى ثلاث دقائق . وخلال هذه الدقائق القصيرة كانت تصل الينا صيحات المعتقلين تتصاعد فى الجو ، وكانت كل صرخة تختلف عن الاخرى حسب نوعية الضربة ومكانها ، إحيانا تخرج الصرخة مكتومة واحيانا متحشرجة واحيانا ممطوطة .. وكان وقع ضرب المعتقلين اشد وطأة علينا ونحن محشورون داخل الزنزانة ننتظر دورنا . وعندما حان الوقت كانت قلوبنا قد اصبحت فى كعوبنا ، وعندما اصبحنا خارج العنبر ، ابصرت صفا من الجنود ، بين كل جندى وآخر مسافة لا تزيد على متر واحد ، وفى يد كل جندى ما تيسر له من سلاح ، بندقية ، قمشة ، فرع شجرة ، كرباج سودانى ، حزام ينتهى بكتلة نحاس صفراء .

وحاول احد الضباط حماية زنزانتنا ونجح فى ذلك خلال عبورنا فناء السجن . ولكن عند خروجنا من البوابة انهال علينا الشوم من كل جانب ، وصاح احد الجنود فينا :

اجرى .

ولم ادر فى اى طريق اجرى ولا فى اى اتجاه ، كانت الصحراء مترامية امامى وفسيحة وبلا نهاية وعندما حاولت ان اجرى ناحية اليمين ، ردونى الى اليسار . ولكن العساكر المسلحين بالشوم دفعونى دفعا للجرى الى الامام ، ولكن احذية الشاويشية الغليظة ارغمتنى على الارتداد للخلف ، ثم جرنى احدهم من شعرى الى موضع خلف السجن ، حيث كانت هناك حفلة ولا كل الحفلات ، كانت هناك منصة يجلس عليها الباشا اسماعيل همت وقد وضع على رأسه الكاب الاحمر . وعن يمينه وعن يساره تجلس مجموعة من كبار الضباط ، بينما كان المعتلقون الذين سبقونا الى هناك يسجدون على الارض عرايا كما ولدتهم امهاتهم ومؤخراتهم نحو الباشا ورؤوسهم نحو الشرق !

وامرونا بأن نخلع ملابسنا ولأن العبد لله استمع لنصيحة الاخ المسلم ولبست كل اللى ع الحبل ، فقد استغرقت وقتا طويلا فى خلع ملابسى .. بينما كان العساكر ينهالون ضربا على اجسامنا بالاكف والعصى والشوم ، وعندما انتهيت من خلع ملابسى اجبرونى على السجود ثم جاء عسكرى حلاق وحلق رأسى زيرو ، ثم مر مرور الكرام على حواجبى وزيادة فى الفضل لزقنى بكفه على قفاى فانبطحت على الارض .

ومر الشاويش« متى » على جموع الساجدين فى خشوع ومؤخراتهم فى مواجهة الباشا همت ، وراح يوزع ضرباته بالشومة على رؤوس وظهور ومؤخرات المعتقلين بوحشية وبضراوة ، بينما كان الباشا همت يقهقه عاليا ، وزيادة فى جلب السرور على قلب الباشا ، اختاروا بعض المعتقلين وربطوهم على العروسة وجلدوهم بلا رحمة وكان الجلد يتوقف اذا فقد المعتقل وعيه ، عندئذ يفكون وثاقة ويرشونه بعدة جرادل من الماء ، وبعد ان نال الباشا كفايته من اللذة والسرور ، وزعوا علينا بدل السجن . وهى

بذل من باب الدلع ، بنطلون وقميص من الدمور المصبوغ بالنيلة ، واكتشفنا انها مستعملة وانها ممزقة لا تستر عورة ولا تحمى من تقلبات الجو ، وعدنا عرايا الى العنبر نحمل هلاهيلنا بين ايدينا . وعندما القيت نظرة على القطيع البائس وهو يقطع فناء السجن ، انتابتنى نوبة ضحك لم استطع مقاومتها. كان بينهم المحامى والصحفى والمهندس والطبيب والكاتب والاديب والمثقف والمفكر والعامل النقابى الذى يقود الالوف وهزنى منظر معتقل طويل كلوح خشب ، كان يدب على الارض فى خيلاء وقد قبض على بدلة السجن باصابعه ، وكان يدعى فخرى حبيب وكان يعمل مدرسا الزاميا على ما اعتقد ، ولكنه كان يشغل منصبا هاما داخل سجن الواحات ، فقد كان مسئول المنطقة وهو الذى يقود الحزب الشيوعى المصرى داخل سجن الواحات وكان داخل السجن عشرات من اساتذة الجامعة وكبار الكتاب والمفكرين والصحفيين ، ولكن كلمة المعلم الالزامى هى العليا وكلمة الاخرين هى السفلى . وكان شديد البراعة فى علم الحنجورى ، وكان يحفظ المنافستو كما يحفظ الطالب الازهرى النشيط الفية ابن مالك ، ولكن خارج هذه الدائرة كان يبدو قليل الحيلة ، فلم يسبق له فى حياته قراءة كتاب خارج نطاق الكتب الشيوعية وكان لا يقرأ الجرائد ، لأنها لسان حال البرجوازية والامبريالية والكمبرادوية ويفضل عليها قراءة المنشورات .. خصوصا المنشورات المكتوبة على ورق بفرة .

كان منظره وهو يمشى فى فناء السجن مشية الاوزة وقد امسك بملابسه بيده ، بينما هو نفسه يمضى زلط ملط كما ولدته امه منظرا ينتزع الضحك من صدور الموتى . لقد كان يقوم بدور ستالين الواحات . وكان يحلم بأن يكون ستالين مصر كلها يوما ما . ولقد تحققت احلامه كلها بعد ذلك ، فأصبح ستالين مصر اخيرا ، ولكن بعد ان افلس الحزب الشيوعى السوفيتى وانهارت الاحزاب الشيوعية الورقية فى شرق أوروبا ، وأضطرت الاحزاب الشيوعية الاوروبية الى التبرؤ من تهمة الشيوعية . وكانت قمة المأساة عندما حل الحزب الشيوعى البريطانى نفسه وهجر السياسة الى الابد واختفى عن الانظار .

يالها من ليلة بائسة قضيناها داخل الزنزانة فى ظلام دامس ، فقد بدأت فترة التكدير لتأديب المعتقلين وكان الأمر بالتكدير يشمل عدم اضاءة الانوار داخل العنابر ، عدم تقديم طعام للمساجين خلاف الكرنب المسلوق ، تشغيل المعتقلين اشغالا شاقة فى الصحراء .

وفى الصباح الباكر دوت الصفافير فى كل ركن من اركان السجن ، ودخل حضرة الصول شاهين فى يده شومة طولها متر ونصف متر ، راح يسوق بها المعتقلين خارج العنبر ، كان الوقت شتاء ودرجة الحرارة تحت الصفر ، وكنا حفاة وبلا ملابس تقريبا .

وكانت حبات الرمال المدببة اشبه بالمسامير الصغيرة ووقفنا فى صفوف فى مواجهة الصول شاهين ، بينما كان الباشا همت وحاشيته يقفون عند باب الادارة ، وامرنا الصول بالجلوس ، وكنا حوالى ستمائة معتقل ، وجلسنا على الفور ، ثم امرونا بالوقوف ، وقبل ان نعتدل فى وقفتنا ، امرنا بالجلوس ثم امرنا بالوقوف ثم بالجلوس وبين الوقوف والجلوس. كانت عصاه تمرح على هواها تنزل على الرؤوس والوجوه ، ولم تكن عصاه واحدة ولكن كانت هناك اكثر من مائة شومة ، وانبطحت رؤوس كثيرة ، وانكسرت عظام اكثر ، وانتابت الصول شاهين نوبة جنون فصار كالثور الهائج ، وبعد مائة قيام وجلوس امرنا الصول شاهين بمعتدل مارش ، واتجهنا الى البوابة ، ولكن عند البوابة بالضبط جاء الصول شاهين باوراق معه وطلب من الضابط عبدالعال سلومة ان يوقع على دفتر السجن باعتباره المسئول عن المعتقلين خارج البوابة ولكن الضابط سلومة اعتذر ، نطق بعبارة جعلت الدم يتجمد فى عروق المعتقلين ، قال الضابط سلومة وهو يشوح بيده :

انا مش هامضى على اى ورق ، هو أنا موعود بالمصايب ، تأخدوهم بره تقتلوهم وانا اللى اروح فى داهية .

رنت كلمة تقتلوهم فى إذن المعتقلين كالطبل وهتف واحد خلفى :

— مؤامرة يازملا

وتراجع بعض المعتقلين الى الصفوف الخلفية وحدث هرج ومرج فى

الصفوف مما دفع الصول شاهين الى ممارسة هوايته فراح يشوح بالشومة وقلده العساكر ، وتعالت الصرخات ولم يخلصنا من هذا الموقف الرهيب الا المامور شنيش الذى قال للضابط سلومة :

— انت خايف تمضى ليه

ورد عليه سلومة قائلا :

— انا اتاكلت قبل كدة ، ومش مستعد اتاكل اونطة تانى .

ووقع على الأوراق المأمور شنيش ، وبدأت رحلة الطابور البائس الى المجهول ، وعندما أصبحنا خارج الأسوار ، تأكدنا أن هناك مذبحة على وشك الوقوع ، كانت عساكر الباشا همت تحيط بنا من كل جانب وفى أيديهم مدافع رشاشة وأصابعهم على الزناد .

وعندما تأكد للعبد لله أن الرصاص سيحصدنا جميعا ، وضعت يدا على قلبى ، ووضعت اليد الأخرى على رأسى وقلت بينى وبين نفسى .. اذا جاء الرصاص فليدخل فى ساقى أو فى بطنى وسيكون من لطف الله أن تصيبنا رصاصة غير قاتلة وينقلونا الى المستشفى ويخلصونا من هذا الجحيم ، وبعد فترة من السير على رمال كالمسامير وأشواك كالابر ، خيل للعبد لله أن الرصاص وحتى الموت أرحم مما نحن فيه ، وكان الى جوارى معتقل انحدرت من عينه دمعة ، وقلت له :

– معلهش .. شد حيلك .

ونظر نحوى فى ذهول وقال :

– أنا مش زعلان على نفسى ، أنا زعلان ع الزملاء .أما العبد لله ، فقد كنت زعلان على نفسى أولا ولم يكن لدى وقت للتفكير فى مآسى الآخرين . ولكن بعض الناس تدعى فى أوقات الشدة خيالات ليس لها صلة بواقع الأمر .

كانت عساكر الباشا همت تحيط بنا احاطة العقد برقبة الحسناء ، وهبت ريح نشيطة محملة بالرمال من جوف الصحراء ، حلقت فى السماء أسراب نسور جائعة ، لعلها شعرت بأن هناك مذبحة وشيكة الوقوع ، وأن هناك مأدبة من أفضل اللحوم على الأبواب .

وكان الضابط سلومة لايزال يمشى على مقربة من الطابور وهو ينفخ من شدة القلق والغيظ ، لقد مر بمأساة سابقة كلفته تجميده فى رتبته عدة سنوات ، وحتى المأمور كان من دفعته ولكنه سبقه بعد هذه المأساة .
وأصل الحكاية أنه كان مسئولا عن عنبر للاخوان المسلمين فى سجن طره ، ثم حدث تمرد من جانب الاخوان ، فصدر الأمر باطلاق النار عليهم بعد أن احتجزوا معهم بعض الضباط وهددوا بالانتقام منهم . وقيل أن الذى أصدر الأمر باطلاق النار هو أركان حرب وزارة الداخلية صلاح الدسوقى الذى كان محافظا للقاهرة يوما ما . ولكن السيد أركان الحرب أنكر فى التحقيق أنه أصدر أمرا باطلاق النار . وانحصرت المسئولية فى الضابط سلومة . وكانت النتيجة أنه تراجع الى الخلف مائة خطوة ، بينما سبقه بقية الزملاء عدة خطوات الى الأمام .
بعد أن قطعنا عدة كيلو مترات داخل الصحراء ، صدر الأمر للطابور بالتوقف . القيت نظرة على المكان وأدركت أنه المسرح الذى أعدوه لارتكاب المأساة . كنا جميعا فى سهل منبسط تحيط به عدة تلال احتلها عساكر الباشا همت وانبطحوا على وجوههم وصوبوا مدافعهم نحو أفراد الطابور . ونصح عسكرى اسمه الصيفى زملاءه بالاسراع خارج الكردون إذا بدأ اطلاق النار ، وبينما الكل يترقب لحظة اطلاق النار ، جاء ضابط اسمه صلاح طه كان مسئولا عن الشئون العامة بمصلحة السجون وكان من رواد قهوة ريش وكثيرا ما جلس بيننا ودخل معنا فى نقاش طويل ، وكان يبدو مهذبا على القهوة ـ ومثقفا على نحو ما . جاء صلاح طه ووقف فى مواجهه المعتقلين وقال :
— اذا كنتم بتحبوا مصر صحيح لازم تثبتوا الحب ده عمليا ، واحنا النهارده هنعمر الوادى الجديد ، وأنتم هتشتركوا معنا فى عملية التعمير.ثم أشار لبعض العساكر فجاءوا يحملون مئات الفئوس ومئات الغلقان ، ثم قال :
— قسموا أنفسكم فرقتين . فرقة حمالة وفرقة جمالة .
أما الحمالة ، فهم يملأون الرمل الى مكان آخر بعيد . وحددت مكانى

على الفور وأصبحت مع الجمالة ، وقدرت أن الجمالة أفضل ، لأنها تسمح بالابتعاد عن أعين الرقباء وفيها شيء من الصياعة ، بينما الحمالة سيكونون تحت عين الرقيب طول الوقت .

وكان لكلمات صلاح طه وقع موسيقى عبد الوهاب على اذان المعتقلين . لقد توقعوا ضرب النار فإذا بهم مدعوون للاشتراك فى تعمير الوادى الجديد . صحيح أن العمل شاق ، ولكنها حالة أفضل من الموت .

وبدأ العمل بهمة ونشاط ، وبدأنا فى نقل الرمال ، ولكننى اكتشفت أن تقديرى لم يكن صائبا . فطابور الجمالة وراءه طابور آخر من العساكر ، والضرب على ودنه من أول اللزق على القفا الى الضرب بكعب البندقية على الضلوع . ولكن ما باليد حيلة ، والحياة قسمة ونصيب . كما أنها حظوظ ومزاجات . وعندما انتصف النهار مر موكب الباشا همت من بعيد ، وقهقه عاليا وهو يلقى نظرة على الحمالة وهم يملأون الغلقان وعلى الجمالة وهم يذهبون بها الى مكان بعيد .

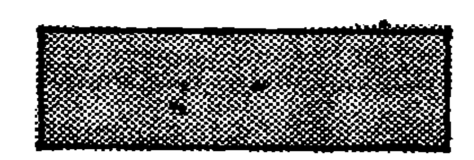
وثلاثة أيام وعنيك ما تشوف الا النور ، الصول شاهين نازل ضرب فى المعتقلين عمال على بطال ، والشاويش المرض وقف على أهبة الاستعداد لتضميد الجروح وتجبير العظام ، وقلت لنفسى : انها النهاية لامحالة وسنموت كلنا حتما وسندفن فى رمال الواحات . ولكن لأن الحياة لايثبت فيها شيء على حال فقد حدث بعد ثلاثة أيام ماهو أعجب من العجب وأغرب من الخيال .



الفصل الحادى عشر

ما حدث فى ذلك الصباح كان بالفعل اغرب من الخيال . دخل حضرة الصول شاهين الى العنبر كالثور الشرس . وعصاه الطويلة تشق له الطريق فى زحام المعتقلين الذين انحشروا فى سرداب السجن . ولم تشفع الصرخات والاستغاثات التى انطلقت من هنا وهناك فى اقناع الصول شاهين بالاقلاع عن هوايته فى كسر عظام المعتقلين .





وتحت ضغط عصا الصول شاهين خرج المعتقلون الى فناء السجن وجلسوا على الارض كما اعتادوا .. الرؤوس منكسة والعيون زائغة تترقب الضربات التى تأتيها من كل اتجاه وخرج الصول شاهين كالمعتاد وعصاه فى يده والشتائم تنهال من فمه لاعنا « ابو الشيوعيين » الكفرة القتلة الذين يستحقون القتل والدفن فى رمال الصحراء ، وراح يطوح بعصاه ذات اليمين وذات اليسار باطحا رؤوسا ومحطما ضلوعا بينما صبيانه من العساكر يفعلون نفس الشيء وبحماس أكبر من حماس شاهين .

كان المسرح على هيئته المعتادة كل صباح ، عساكر مسلحون بالمدافع يحيطون بالفناء وعساكر مسلحون بالشوم نازلين عج بالمعتقلين والصول شاهين يقود الفرقة الموسيقية بعصاه وبلسانه وبحذائه ، شخص واحد فقط كان غائبا عن المسرح .. هو البيه المامور

كان من عادة البيه المامور الوقوف عند باب الادارة محاطا بعدد من الجنود يشاهد المنظر ويلقى احيانا ببعض التعليمات . كان طويلا وعريضا وله هيئة ملاكم وصوته يرشحه ممثلا فى المسلسلات الدينية اياها التى يذيعها التليفزيون كل رمضان . وكان شديد الحزم شديد الحسم . ولكنه والحق اقول لم يتجاوز كثيرا كما فعل غيره من ضباط السجون فى الفيوم وفى ابى زعبل.ويذكر له انه لم يقتل احدا من المعتقلين فى سجن الواحات ، بينما سقط أكثر من عشرة معتقلين قتلى فى سجن ابى زعبل.

المهم ان المأمور كان غائبا عن المسرح فى هذا اليوم ، لم يكن فى مكانه

الذى اعتاد الوقوف فيه ومن اجل هذا السبب ضاعف الصول شاهين ورجاله من نشاطهم فى انتظار تشريف المأمور الذى لابد انه سيثنى عليهم ويحمد لهم عملهم ، وقد يأمر بصرف مكافاة الشهر المقررة للمجيدين منهم ، وهى جنيه مصرى واحد لاغير ، ولكن هذا الجنيه الواحد كان كفيلا بإدخال السرور والحبور على السجانين . ومر الوقت دون ان يظهر للمأمور أثر .

وفجأة .. لمح الصول شاهين عسكرى قادما من بعيد يمشى مشية غير عسكرية وغير منضبطة وكأنه يعيش فى عالم وحده لاعلاقة له بسجن المحاريق . وانتصب الصول شاهين ونفخ صدره بالهواء الطلق . وصرخ صرخة عسكرية ناشفة وصاح بكل ما فيه من قوة .. انت يا عسكرى يابايظ .. سريعا مارش . ولكن العسكرى ظل على مشيته غير مبال بصرخة الصول شاهين الذى أعاد صرخته وكررها عدة مرات . وعندما اقترب العسكرى من طابور المساجين البائس الجالس على الارض تبينت ان العسكرى القادم هو محمود الصيفى وهو عسكرى خبير فى ضرب عتاة المجرمين . والى الدرجة التى يجعلهم فيها اشبه بالمقعدين .

كان مأمور السجن يرسل دائما فى طلب محمود الصيفى اذا اراد تاديب احد كبار المشاغبين من المساجين . وكان محمود الصيفى ينقى العصى الشوم بعد تدقيق طويل : وكان يقرب العصى من انفه ويشمها ويختبرها بأصابعه ويقبض عليها بيده ويهزها فى الهواء ثم يعيدها الى مكانها ويختبر اخرى حتى يعثر على العصى المنشودة .

رأيته مرة يضرب مجرما من ابناء الاسكندرية كان دائم الاعتداد بقوته وكان فى شجار دائم مع المساجين ومع الحرس . وكان الجميع يخشونه ويعملون حسابا له ، وذات صباح ضرب احد الصولات العواجيز بقبضة يده ونطحه برأسه فى وجهه . وانتهت المعركة الخاطفة بنقل الصول العجوز الى مستشفى الواحات . وهناك تقرر نقله الى مستشفى اسيوط لاجراء عملية تربنة ، ولم يقدر لهذا الصول العودة مرة اخرى لسجن الواحات . واعتقد ان النطحة اجبرته على الاعتزال .

المهم اننى شاهدت محمود الصيفى يضرب المسجون الاسكندرانى بالشومة على كعوب قدميه ، وبعد خمس ضربات فقد النطق وبعد انتهاء الضرب فقد الرشد وسحلوه من رجليه الى زنزانة التأديب . وقضى الفتوة الاسكندرانى شهرا بعد العلقة يزحف على ركبته . وعندما رأيته واقفا على قدميه لم يكن هو نفس الشخص الذى كنت اعرفه من قبل !

على العموم هذه قصة جانبية لكى تتعرفوا على محمود الصيفى الذى جاء يتبختر فى مشيته على الرغم من صرخات الصول شاهين . وبالرغم من اقتراب الصيفى من موقع الصول شاهين الا انه ظل على مشيته المترنحة وكأنه سكران أو مسطول ، وعاد الصول شاهين يصرخ من جديد وقد برزت عروقه وانتفخت اوداجه وتناثر رذاذه . ولكن محمود الصيفى رد على الصول شاهين بلهجة ساخرة .. ياراجل بطل حزق ليطق لك عرق . وارتبك الصول شاهين فى البداية ثم استعاد هيئته كقائد عظيم . وشخط فى الصيفى شخطة عنترية .. انت كنت فين يا عسكرى ؟ ورد الصيفى بنفس اللهجة وهو يمشى نفس المشية .. كنت فى المحطة . وقال شاهين وكنت فى المحطة بتعمل ايه ؟ ورد الصيفى كنت باوصل سعادة الباشا ، يقصد اللواء اسماعيل همت الذى جاء لحضور حفلة التعذيب ، وقال شاهين وقد غير من لهجته قليلا .. هو الباشا سافر ؟ ورد الصيفى قائلا : أهو غار فى داهية . وقال شاهين .. انت متاكد ؟ ورد الصيفى .. انا اللى معاه من الساعة ٦ الصبح ومركبه القطر وفضلت واقف فى المحطة لحد القطر ما اخده وغار فى داهيه .

كان الصيفى قد أصبح على بعد خطوة واحدة من شاهين عندما سأله شاهين للمرة الاخيرة .. انت متاكد ان الباشا مشى ؟ وقال الصيفى وهو يشوح بيده فى وجه شاهين .. احنا اللى ح نقوله نعيده . وارتكز شاهين بعصاه على الارض ، ثم قام بترقيص وسطه فى حركة بارعة اشبه بحركة تحية كاريوكا فى صباها وهتف باعلى صوته .. اعوجها .. ثم ضرب الارض بعصاه وقال : قوموا يا شيوعية يا اولاد الكلب خلاص الرواية خلصت ملعون ابو الباشا لابو اللى جابه دى كانت ايام غم .

لم نصدق فى بادىء الامر ان هذا هو نفسه الصول شاهين الذى اذاقنا العذاب لمدة اسبوع كامل ، حتى تصورنا اننا فى معسكر نازى واننا سنسقط صرعى تحت ضربات عصى الصول شاهين وفريقه من السجانة الميامين .

ها هو ذا شاهين يسفر عن وجهه الحقيقى فى لحظة درامية نادرة . فإذا به مصرى اصيل . موقف شاهين هذا يثبت اننا لسنا اريين ولكننا مصريون وعرب ولسنا هواة تعذيب ولكنها الاوامر ورغبة المسئولين ، فإذا ما سافر المسئول وغادر مسرح الاحداث ، عاد الانسان المصرى الى طبيعته وسقطت الحواجز والفروق بين السجانة والمسجونين .

نسيت ان اقول لكم ان الصول شاهين لم يكن سجانا عاديا . فقد كان طويلا وعريضا ووجهه احمر كأنه انجليزى أو تركى من بلاد الاناضول . وكان شديد الشبه بالملك فؤاد . وكان دائم الحديث عن عائلة شاهين التى ينحدر منها والتى انجبت اللواء على شاهين حكمدار البوليس ، واللواء سيد شاهين قائد حملة فلسطين ، ولم يكن فى فلسطين قائد بهذا الاسم .. واحمد شاهين العمدة ، كان يكتفى بذكر كلمة العمدة ولكنه لا يذكر القرية التى كان عمدة عليها ، وكان يحكى عن ايامه الاولى فى الازهر وعن والده الذى يصر على ان يكون ولده شاهين من رجال الدين . ولم يكن باستطاعته ان يحقق رغبة ابيه ، لذلك اضطر شاهين الى الهروب من البيت ومن الازهر والتحق بالجيش ، ثم خرج من الجيش والتحق بخدمة السجون . وهو صول منذ عشر سنوات ، وفاته الدور ليحمل رتبة الضابط ، وبالرغم من ان الرتبة من حقه الا ان اللواءات يرفضون ، لأن منظره افضل من منظر اى لواء فى المصلحة لذلك يحقدون عليه ويكيدون له ويمنعون عنه رتبة الضابط التى يستحقها منذ سنتين . ولكن شاهين لن يرضخ ولن يتنازل وسيظل يطالب بحقه فى رتبة الضابط حتى يحصل عليها او يموت .

وخرجنا ذلك الصباح مع عم شاهين الى الجبل ولكن على نحو يختلف عن أى يوم سابق.قطعنا الطريق الى الجبل فى جماعات ونحن ندردش ونضحك حتى وصلنا الى موقع العمل .. وقال شاهين للمعتقلين : انتشروا

فى الجبل واشتغلوا على مهلكم بس ساعة الضابط ما ييجى اشتغلوا بحق وحقيقى وانا ح انام شوية هنا.واختار المعتقلون مجموعة من بينهم لمراقبة الطريق وحتى لا يفاجئنا المأمور بالزيارة.ووقع الاختيار على العبدلله لتسلية عم شاهين برواية القصص والحكايات التى تساعده على النوم العميق وتوطدت صلة العبدلله بالصول شاهين .

كان من قرية تجاور قريتنا وكان كلما ذكر لى اسم احد اقاربه من الاعيان اكدت له معرفتى به ورحت امدح فى خصاله واعدد اياديه البيضاء .. وكان يبدو سعيدا كلما اسهبت فى مدح عائلته التى ليس لها وجود . وكنت احكى له عن سفرياتى خارج مصر . عن مغامراتى فى لندن وباريس والدار البيضاء ومدريد ، عن شطحاتى فى روما واثينا وبيروت ، عن جولاتى فى تونس ودمشق والخرطوم . عن سهراتى فى فينا وجنيف وبرلين . وعندما انتهى كشف البلدان التى زرتها . رحت احكى له عن مغامراتى فى « ريودى جانيرو » ولاباز وفى غابات الفلبين ، وكان الصول شاهين يستمع الى فى شغف ويطالبنى بالمزيد .

والحق اقول اننى لم اتردد فى تادية المهمة ولم اقصر فى اداء عملى الذى كلفونى به . فرحت اطوف مع الصول شاهين فى كل ارجاء الارض الواسعة حكيت له عن جزيرة بالى وجزر هاواى وجزيرة مالماو ، وعندما انتهت الاسماء الموجودة على خريطة العالم ، رحت اخترع اسماء من عندى ، وعندما خيل الى اننى احكمت السيطرة على عقل الصول شاهين .. وجدت نفسى واقعا فى مطب لم استطع الخروج منه الا بصعوبة شديدة،فبعد شهرين من الحديث عن البلاد التى زرتها والبلاد التى لم ازرها . سالنى شاهين فجأة مارحتش ياجوج وماجوج ؟ وقلت له دون وعى .. ايه ياجوج وماجوج ؟ واستفزه سؤالى فسألنى فى حدة ما تعرفش ياجوج وماجوج ؟ ثم قال وكأنه يحدث نفسه .. طبعا ما انت شيوعى وابن كلب . ياجوج وماجوج مذكورة فى القرآن .. ولم اجد ما اقوله لشاهين فتوقفت عن الكلام واكتفيت بالتحديق فى وجهه .. وراح شاهين يتكلم وكأنه يخطب .. تقدر تقوللى ماروحتش ياجوج وماجوج ليه ؟ اهو انت لفيت الدنيا كلها . تقدر

تنكر انك شيوعى وتستاهل الحرق انا مش فاهم الناس اللى ربنا اداها عقول زيكم واتعلموا تبقوا شيوعيين ازاى ؟ تصدق بالله انا كان قلبى انفتح لك لكن انت ملعون وتستحق الحرق.وقلت للصول شاهين وكاننى اعتذر عن سوء الفهم .. يا حضرة الصول شاهين انا عاوزك تعذرنى وتفهم موقفى .. انا فعلا مازرتش ياجوج وماجوج بس ده حصل غصب عنى .. انا كنت عاوز اروح بس هم مارضيوش ..

وحدق شاهين فى عينى ثم قال .. انت ح تاكل بعقلى حلاوة فاكرنى فلاح مختوم على قفايا واللا فلاح مابافهمش .. يعنى ايه مارضيوش .. انت مش سافرت كل البلاد دى .. اشمعنى دول رضيوا ؟ وقلت للصول شاهين .. ياحضرة الصول شاهين انت راجل صول وتفهم فى الحاجات دى .. مش كل واحد عاوز يسافر بلد بيطلب فيزا منها .. ورد الصول شاهين .. طبعا ما احنا عارفين الحاجات دى . قلت له .. اهو انا طلبت فيزا اكثر من مرة مارضيوش .. قال شاهين وهو يضرب فخده بيده .. تعرف تقوللى ليه ما رضيوش ؟ وبعد فترة صمت تعمدت ان تكون طويلة بعض الشىء .. قلت للصول شاهين : مارضيوش علشان كانوا فاهمين أن انا شيوعى .. وقال شاهين وهو ينظر نحوى فى غيظ .. يعنى انت ما انتش شيوعى ؟ واجبته .. لا انا كنت شيوعى يا عم شاهين لكن ربنا تاب على .. وكل واحد بيغلط فى شبابه واهى غلطة والحمد لله خلصنا منها .. وبدا الارتياح على وجه الصول شاهين وفرد ساقه وهو جالس على قمة التل ثم قال .. تانى مرة اياك تكذب على .. ثم فتح زرار جيبه الاعلى واخرج نصف سيجارة وناولها لى وقال للعبدلله .. انا حايش لك دى فى جيبى من امبارح علشان تعرف انا باعزك قد ايه ودى سيجارة البيه المأمور نفسه كان بيشرب فيها امبارح وطفاها كبيره كده .. قلت اخذها للواد محمود .. ولعها واشربها فى السر وعمر دماغك علشان تحكى لى على اللى شوفته فى الجزيرة اللى ع البحر .. هى اسمها ايه ؟ سالته جزيرة مالماو ؟ فقال شاهين لا مش دى .. هونج كونج .. لا مش دى .. بالى . لا مش دى .. هاواى .. ايوه الهواتى دى .. مش دى اللى فيها النسوان زلط ملط .. ايوه

هى دى يا عم شاهين .. طيبّ احكى لى بقى اول ما ننزل من الطيارة يحصل ايه بقى ؟

ورحت احكى للصول شاهين حكايات ما انزل الله بها من سلطان وهو يستمع بشغف ويبدو على وجه الارتياح الشديد ولم يلبث شاهين ان أراح راسه على الوسادة التى صنعها من معطفه الميرى السميك وسرعان ما ارتفع شخيره فى الفضاء وحمدت الله على مرور الازمة مع شاهين بسلام . فبفضل هذه القصص والروايات التى ارويها له حصل المساجين على قسط كبير من الراحة اثناء العمل فى الجبل .. بل سمحت لهم بالجلوس والدخول فى مناقشات وحوارات واصبح العمل فى الجبل اجازة مفتوحة للجميع ، كما كانت فرصة للعبد لله للحصول على بعض الاعقاب الممتازة التى يدخنها البيه المأمور شخصيا .. ودعوت الله ان يجنبنى الوقوع فى مطب اخر شبيه بمطب ياجوج وماجوج ، ولكن شاءت الاقدار ان أقع فى مطب آخر كان كفيلا بوضع حد لعلاقتى بالصول شاهين .

كنا نجلس كالمعتاد على قمة التل وكنت احكى وكان يستمع وكان حديثى فى ذلك الصباح عن استراليا التى لم ازرها حتى الان . وعندما سالنى عن افضل اكله تناولتها فى استراليا رحت احكى له عن طاجن لحم الكانجرو ثم اسهبت فى الحديث عن الكانجرو وكيف انه يجرى على قدميه الخلفيتين فقط ويضع ابناءه فى كيس داخل بطنه وهو حيوان نظيف لانه لا ياكل الا الحشائش ولكن الصول شاهين قطع حديثى فجأة وسالنى ما عندهمش فول ؟ واجبته عندهم طبعا .. بس الفول هناك بياكلوه للبهايم وقال شاهين يعنى انت قصدك تقول اننا بهايم علشان بناكل الفول هنا . وقلت للصول شاهين .. بالعكس .. ده هم اللى بهايم علشان مش عارفين قيمة الفول . وارتاح عم شاهين لجوابى . وانتقلت بالحديث من طاجن الكونجرو الى لحم التمساح المسلوق . وكنت قد قرأت فى احدى المجلات ان الشعب الاسترالى ياكل لحم التماسيح الصغيرة مسلوقا ويعجب به كثيرا . ولكن شاهين بصق على وجهى وهتف فى غضب شديد .. الله يقرفك خليت معدتى لعبت .. حد ياكل التماسيح يا ضلالى ؟ فقلت له .. مش انا

اللى بأكل التماسيح يا عم شاهين .. دول بتوع استراليا .. فقال العم شاهين .. الله يقرفهم .. ده انا حتى اسمع ان الاسترالى ده زى البغل اوعى ياوله تكون اكلت التماسيح دى ؟ وقلت معقول يا عم شاهين انا آكل تماسيح أنا آكل ملوخية آكل مسقعة آكل بامية باللحمة الضانى .. وصرخ شاهين فى غضب ما تفكرناش بقى .. احنا بقى لنا ٦ شهور هنا بناكل خره .. الله يلعن ابو السجن لابو اللى اخترعوه ، وسادت فترة من الصمت بيننا اشعلت فيها احد الاعقاب التى حصلت عليها ..

عندما اقترب من موقعنا المهندس فوزى حبشى فى ثياب السجن المهلهلة وكان من عادته العمل طول النهار فى الجبل بشكل جاد للغاية وكأنه يؤدى واجبا لابد من تأديته وكان التراب قد علا وجهه وغطى ملابسه الرثة بينما امتزجت قدماه العاريتان بالطين ونظرت طويلا الى المهندس فوزى حبشى وهو يعبر الطريق تحت التل سألنى الصول مشيرا بأصبعه نحو المهندس حبشى .. الواد ده بيشتغل ايه ؟ واجبته ده مهندس كبير قوى يا عم شاهين وموظف كبير فى الحكومة .. وعاد الصول شاهين ينظر الى المهندس حبشى ثم سألنى .. يعنى بياخذ كام فى الشهر ؟ واجبته .. ياخذ ١٥٠ جنيه فى الشهر وقبل ان اكمل العبارة كانت قدم شاهين التى هى فى حجم كنبه بلدى اسطنبولى تندفع نحو صدرى واذا بالعبد لله اتدحرج من فوق التل الى السفح وكأننى جلمود صخر عمنا امرىء القيس .. حطه السيل من عل ! وقال لى : الصول شاهين وانا احاول صعود التل .. تعرف لو طلعت هنا ح اقتلك .. انت واد لئيم وفاهم ان انا حمار .. بقى ده بيأخذ ١٥٠ جنيه فى الشهر ؟ اذا كان البيه المأمور بتاعنا بياخد ٥٠ جنيه والا انت فاهم ان انا طور ..

وعلمتنى قدم الصول شاهين التريث فقد سألنى عدة مرات بعد ذلك عن مرتبات البعض من المعتقلين وكنت حريصا على عدم تجاوز مبلغ الاربعين جنيها باعتبار ان مرتب البيه المامور خمسين جنيها كما قرر الصول شاهين ومرت ايامى بعد ذلك سهلة مع الصول شاهين حتى جاء الضابط عثمان ذات صباح واختار عددا من المعتقلين وخصصهم لاحضار

الماء من نبع يبعد ثلاثة كيلو مترات عن مكان العمل . وهكذا انتهت مهمتى مع الصول شاهين واصبحت عضوا فى فرقه جلب المياه لزوم سقاية المعتقلين .. وكان بين افراد الفرقة النائب احمد طه عضو مجلس الامة عن دائرة روض الفرج واحمد شوقى عبدالهادى الشهير بالصاعقة واخرون .. وفى اول يوم ذهبنا فيه لاحضار المياه فى جرادل قذرة مثقوبة اكتشفنا ان المياه التى ذهبنا لاحضارها ليست من نبع ولا من بئر ولكنها من بركة آسنة وقذرة ومئات من العقارب الحديثة الولادة تسبح على وجه البركة وتتلعبط داخل الجرادل . ومع ذلك كان علينا ان نشرب من هذا الماء او نموت عطشا فى صحراء الواحات .

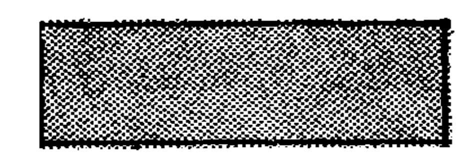


الفصل الثاني عشر

كان العمل فى فرقة جلب المياه فرصة لالتقاط الانفاس من جحيم الواحات . فقد كانت البركة الآسنة التى نستقى منها تبعد ثلاثة كيلو مترات عن مكان العمل وكنا نذهب اليها فى سيارة السجن اذا تيسرت ، ولكن هذا الآن يحدث مرة واحدة كل اسبوع ، وكان علينا ان نذهب مشيا على الاقدام . وبالرغم من الحفاء والملابس الرثة والجوع الذى يفرى الامعاء كنت اشعر بانها نزهة خلوية تجلب الراحة للاعصاب .

معركة السبارس !





وذات يوم عثرت على قطعة صغيرة أصغر من مشط الكبريت من مرآة محطمة وعندما شاهدت نفسى فيها انتابني نوع حقيقى من الذهول . كان شعر رأسى قد طال فغطى قفاى ، واذناى ، وكان شعر ذقنى طويلا كأننى فرد فى جماعات الارهاب .. وظهرت هنا وهناك شعيرات بيضاء بالرغم من اننى كنت فى شرخ الشباب . ونهرنى الشاويش عم أحمد طريشة ونزع قطعة المرآة من بين اصابعى بقسوة باعتبارها سلاحا . ولكن منظرى فى المرآة جعلنى اسرح بعيدا عن المكان والزمان تخيلت نفسى مجنون ليلى عندما سرح فى بيداء نجد . وتخيلت نفسى احد الخوارج الذين هاموا على وجوههم بعد كسرتهم . وتقمصت الشخصية الجديدة بعد ان انتابنى يقين لا يقبل الشك اننى لست محمود السعدنى وان العصر الذى نعيشه ليس هو القرن العشرين .

وفى اليوم التالى قطعت منطقة العمل وجردل الماء فى يسارى وعصا طويلة كانت فى الاصل فرع شجرة فى يمينى . ورحت اصيح وسط جموع المعتقلين هنا وهناك .. صوت صارخ فى البرية ، اعدوا طريق الرب ، مهدوا سبله مستقيمة . وكان بعض المعتقلين يصيحون بى .. تفضل يا ايها السيد . ولكنى كنت اكتفى بالتلويح لهم بالعصا من بعيد ، وخيل الى فى بعض اللحظات اننى جننت بالفعل ، خصوصا ان الجرب كان قد استبد بجميع المعتقلين ، ورحنا نهرش باظافرنا وبكل الادوات المتوافرة فى ايدينا من طوب وفروع شجر .

وذات يوم حار ، شديد الحرارة احسست باننى فى حاجة الى سيجارة ، ولكن كيف الحصول على السيجارة والحصول على كنوز سليمان اسهل منها بكثير . كانت السجائر ممنوعة والشاى رجس من عمل الشيطان وعلى جميع المعتقلين ان يتجنبوه . ولكن اشتياقى للسيجارة كان اقوى من كل شىء وكان لابد من البحث عن حل ، بعد ما حرمتنى التنقلات الاخيرة من سبارس عم شاهين ، واخيرا جاء الحل عندما اصدرت امرا لحزب زمش وفى جلسة تاريخية ضمت ابراهيم العطار وشوقى الصاعقة وعبدالموجود ابو زيد وعباس الدبيكى بجمع اعقاب السجائر واعادة تصنيعها .

والحق اقول ان حزب زمش ابلى بلاء حسنا فى هذه الموقعة وانطلق اعضاء الحزب يجمعون السبارس بكفاءة منقطعة النظير ، وكان اخلصهم واكثرهم نضالا هو شوقى الصاعقة الذى اكتسب اسمه الصاعقة فى هذه المعركة التاريخية ، حيث كان ينقض على عقب السيجارة كالصاعقة ، ولايصده عن ذلك صفعات العسكر او شلاليت البيه المأمور ، لدرجة انه كاد يفقد حياته ذات يوم عندما ارسل المأمور احد الضباط الى العنبر بعد التمام طالبا من المعتقلين الذين لهم شكاوى او مطالب لدى الادارة ان يحضروا فورا لمقابلة البيه المأمور ، ولم تكن الدعوة صحيحة ولكنها كانت فخا لاصطياد مندوبى الاحزاب الشيوعية وضربهم علقة ساخنة بسبب اختراقهم حاجز الامن المفروض على السجن ، ونجاحهم فى الحصول على رسالة هامة ارسلتها قيادة الحزب الشيوعى من القاهرة .

ولما كان الشيوعيون المعتقلون يخضعون للانضباط فقد توقع المأمور ان الذين سيخرجون لعرض الشكاوى هم مندوبو الحياة العامة وهم الذين يريدهم المأمور على وجه التحديد . وكان المأمور قد اعد مسرح عمليات خلف مكتبه ، وفى مساحة واسعة حشد فيها اكثر من ثلاثين جنديا تسلحوا بالعصى والشوم وجريد النخل . والذى حدث ان مندوبى الحياة العامة خرجوا تلبية لدعوة الضابط وهم سيد عبدالله وفوزى حبش من الحزب الشيوعى المصرى ومحمود المانستولى عن حَزب طش وخرج معهم مندوب حدتو عبدالعزيز بيومى ، وتحت إلحاح شوقى الصاعقة وتوسله

للضابط بان يأخذه للبيه المأمور لان لديه شكوى مهمة للغاية . وافق الضابط فخرج الصاعقة من الزنزانة وانضم الى وفد المندوبين . ولم يكن لدى الصاعقة شكوى من أى نوع ولكنه رأى انها فرصة ذهبية لكى يجمع ما يتيسر من الاعقاب من الحوش الذى خلا من المعتقلين .

وعندما خرج الضابط ومن خلفه اعضاء الوفد من الباب الرئيسى للعنبر اتجه الجميع يسارا الى مكتب المأمور واتجه الصاعقة عكس الاتجاه فذهب يمينا ليتفرغ لجمع الاعقاب . وكان المأمور فريد شنيشن يقف على باب الادارة بقامته المديدة وجسمه الضخم . وارتاب فى الحركة التى قام بها الصاعقة وظن انه فى طريقه الى الهرب فصرخ فيه صرخة جعلت قلب الصاعقة يهبط الى ركبته . وجعلته يعدو مسرعا فى اتجاه البيه المأمور . ولما كان المأمور لا يريده ولا يسعى الى تاديبه فقد نهره بشدة وامره بالعودة الى العنبر قائلا له فى حزم : إرجع ياغبى . وحمد الصاعقة ربه على السلامة وعاد الى العنبر والى الزنزانة . وسألناه عما حدث ، فأجاب بانه غير محظوظ لان الحوش عامر باعقاب السجائر ولكن المأمور لمحه فعطله عن اداء المهمة فاضطر الى العودة الينا ويداه فارغتان كما خرج .

عندما وصل الضابط ووفد المندوبين الى حيث يقف البيه المأمور .. صاح المأمور فى وجه مندوب حدتو المحامى عبدالعزيز بيومى قائلا : ارجع يا طور ! ووقف عبدالعزيز بيومى حائرا لعدة ثوان ولكن المأمور اعاد الصرخة فاستدار عبدالعزيز وعاد باقصى سرعة الى العنبر وسألته من خلال فتحة الباب عما جرى فحكى لى قصته مع المأمور وصرخته فى وجهه ارجع ياطور .. فقلت له .. يا خبر اسود ده السجن مليان جواسيس ، وسألنى عبدالعزيز ليه ؟! واجبته .. عرف منين انك طور .؟ مش لازم حد بيبلغ .. ضحك عبدالعزيز وانصرف الى زنزانته اسفا لانه لم يتمكن من عرض مطالب حزبه على البيه المأمور . ولكن ما حدث بعد ذلك للمندوبين الثلاثة يحتاج الى فرقة خضرة الشريفة لكى تندب حظهم السيىء فى ملحمة ولا ملحمة سعد اليتيم .. فما كادوا يفتحون المناقشة مع المأمور حتى كبس عليهم العسكر وهات يا طحن من الساعة السادسة حتى

الساعة الثامنة مساء .. والذى اطال وقت المعركة هو اصرار العساكر على اسقاط محمود المانسترلى على الارض ولكنه استعصى عليهم كما انهم فشلوا فى ذلك . وعندما ذهبت فى الصباح الباكر لزيارتهم فى مستشفى السجن لم اتعرف على محمود المانسترلى فقد تحول الى كتلة من اللحم الازرق والدم !

المهم ان حزب زمش استطاع ان يجمع فى اول يوم اكثر من عشرين عقبا اغلبها لسجائر ملفوفة باليد ، وهى سجائر نحيلة ونحيفة ومسلولة ولكن الصاعقة استطاع ان يعيد تصنيعها مما اتاح لنا الحصول على اربع سجائر لا باس بها.واجتمعت اللجنة المركزية لحزب زمش والمكونة من العبد لله وابراهيم العطار واستمتعنا بتدخين سيجارتين وحدنا ثم شاركنا الشغيلة فيما تبقى من سجائر . وكاد شوقى الصاعقة ان يثور على القيادة ولكنى قمعته بشدة ، وبعد خمسة ايام من بدء النظام الجديد جمعنا خمسين عقبا مما اتاح لنا اعادة توزيع الدخل بشكل ارضى الشغيلة وارضى القيادة معا . ولكنى فوجئت فى اليوم الثالث ونحن جلوس تحت شجرة خروع نبتت بشكل شيطانى فى الصحراء .

اقول فوجئت باثنين من غلاة الحنجورى حضرا من اجل حوار هام وحيوى وخطير مع زمش . وتكلم احدهما فركز على ضرورة مراعاة الانضباط اثناء فترة الاعتقال والظهور بالتماسك امام الادارة او التظاهر بذلك ، حيث ان المعركة فى الحقيقة هى صراع ارادات بين الادارة والمعتقلين . وبعد محاضرة طويلة عريضة قال الزميل الحنجورى : إن المسألة تحتاج الى مراجعة والى اعادة تفكير . وعندما سألته عن المسألة التى يقصدها .. رد قائلا : مسالة اعقاب السجائر التى يجمعها افراد زمش من الحوش ومن الصحراء ، وقال السيد الحنجورى .. انك كاتب معروف ومن الواجب ان تكف عن تدخين السجائر اذا كان تدخينها عن هذا الطريق . وقلت للسيد الحنجورى .. انا كاتب معروف وارغب رغبة شديدة فى تدخين السجائر وليس هناك سبيل لتدخينها الا عن هذا الطريق ، كما انك انت الآن ايها الرفيق تدخن هذه السيجارة التى

اعطيتها لك عن هذا الطريق وزميلك ايضا شفط عدة انفاس عميقة عن هذا الطريق ، فهل العيب فى رأى الرفاق هو عملية جمعها ام عملية تدخينها ؟

وضحك الرفيق وهو يقول .. انت كل حاجة تقلبها هزار ! وقلت للرفيق الحنجورى واين الهزار فى هذا الامر ؟ لقد قمنا بجمع اعقاب وأنت قمت بتدخينها ، وهو أمر يؤكد اننا اكثر شيوعية من سيادتك لاننا ندخن ما قمنا بجمعه بايدينا ، اما سيادتك فبرجوازى تدخن ما جمعه العمال امثالنا .

وتظاهر الرفيق الحنجورى بأنه لم يسمع كلماتى واستاذن منصرفا وهو يرجو ان نعيد التفكير فى هذه المسألة . وتكررت زيارات الرفاق فى الايام التالية . جاء فى اليوم التالى اربعة من الرفاق وزاد العدد حتى وصل الى عشرة رفاق .

والحق اقول انهم كانوا يدخنون بشراهة اثناء الاجتماعات واكتشفت بعد ذلك ان شوقى الصاعقة وهو غير منضبط حزبيا قد عمد الى دس اعشاب وورق شجر وقليل من التراب فى السجائر التى كان يلفها لنا اثناء احتدام الحوار . ولكن الزيارات توقفت بعد ذلك عندما اضطر الحزب الى اصدار امر الى جميع الرفاق بالتصرف حسب ظروف كل منهم والسماح بجمع الاعقاب اذا كان التدخين سيخفف عنهم بعض متاعب السجن الرهيبة .

وهكذا انتصرت زمش فى معركة السبارس واتضح للجميع ان خطنا السياسى كان هو الخط الصحيح . ولكن هذه النهاية التى انتهت اليها معركة السبارس كانت وبالا علينا فقد كثر عدد الذين يجمعون الاعقاب مما ادى الى خفض دخلنا القومى . وبعد ان كنا ندخن كل يوم ما بين سبع وعشر سجائر هبط العدد الى ثلاث سجائر . وكنت احيانا اشد نفسا وانا ادخن السيجارة ، ثم اتذكر فجاة ان للعبد لله رفاقا فى حزب زمش ولكن هذا كان يحدث دائما فى الوقت غير المناسب . وعندما تصبح السيجارة مجرد عقب يلهب الاصابع وكنت اقدمها للصاعقة ولكنه كان يتنازل عنها بطيب خاطر باعتبارى القائد الضرورة والرئيس المؤسس والزعيم

الملهم لحزب زمش ، أو هذا هو الذى تصورته من موقف الصاعقة .

ولقد اكتشفت بعد ذلك انه كان يقوم بحركة خيانة حزبية يستحق عليها الفصل . وانه كان يسلم الحزب ثلاث سجائر باعتبارها حصيلة اليوم ، بينما كان يدخن لنفسه سيجارتين على الاقل غير الاعقاب التى كان يدخنها فى موقع الاحداث ومن التراب الى فمه على الفور.وفكرت فى فصله من الحزب بالفعل ولكننى ترددت فى اتخاذ القرار لأن فصل الصاعقة كان سيؤدى الى شرخ حزبى لاتحمد عقباه .

وقد حدث ذات مساء حادث غريب للغاية .. كنا قد دخلنا الى الزنازين بعد يوم عمل شاق عندما اخرج اعضاء الحزب حصيلتهم من الاعقاب وانهمك الصاعقة فى اعدادها واعادة تصنيعها . وابتهجنا جميعا عندما اكتشفنا ان حصيلة اليوم هى خمس سجائر ملفوفة باتقان ، وبعد مداولات حزبية شاقة قررنا ان ندخن سيجارة واحدة قبل تناول العشاء ثم سيجارة بعد العشاء مباشرة ، ثم ندخن بقية السجائر فى السهرة .. ولكن حدث قبل أن نشعل السيجارة الاولى ان اقتحم العنبر عدد كبير من العساكر وهم يصرخون صرخات اشبه بصرخات المحاربين الاشاوس وهم يقتحمون موقعا للاعداء فى حرب ام المعارك . ثم سمعنا صوت ابواب تفتح ووقع ضربات مكتومة اشبه بعمية تنظيف سجادة او تنجيد مرتبة ثم صرخات شديدة لا نعرف مصدرها . وقام الصاعقة مسرعا يبحث عن مكان لاخفاء السجائر فيه فقد توقع شرا بغريزته المذعورة ، ولكنه لم يجد مكانا يخفى فيه السجائر الا جردل البول فالقاها فيه ، ولم يكد يفعل ذلك حتى اقتحم الزنزانة عشرة جنود اشداء ومعهم شوم من النوع الصلب وهات ياطحن فى أى مكان وفى كل مكان . وبعد ربع الساعة من الضرب المتواصل تركنا الجنود وانصرفوا ليدخلوا زنزانة مجاورة . وبعد ان انتهوا من ضرب جميع المعتقلين ، اكتشفت ان ذراعى مكسورة . وسبب كسر ذراعى هو غلطة ارتكبتها بغير قصد .

كان الذى يتولى طحن العبدلله شاويش من العصر الحجرى اسمه

متى ، كان فى الستين من عمره ولكنه كان يتمتع بصحة شاب فى العشرين ، وعندما بدا يضربنى بقسوة قلت له صارخا .. ليه يا عم متى .. انت بتضرب ليه يا عم متى ؟ ولكن متى استبد به جنون مفاجىء وراح يضرب بقسوة وبجنون واعتذر لى فى اليوم التالى وقال لى .. انت السبب فى اللى جرى لك ، تقوللى يا عم متى قدام البيه المأمور .. ايه يا عم متى دى ؟ احنا أصحاب بقى .. لازم تلتزم النظام قدام البيه المأمور .. تقولى يا افندى أو ياحضرة الشاويش .. هو ده النظام .. مفهوم .. امال متعلمين ايه ده انتم ولا اللى جايين من ورا الجاموسة !

المهم ان البيه المأمور مر بعد العلقة وجمع المكسورين من جميع الزنازين وجاء بالطبيب لتجبير الكسور . ووقفنا فى طابور طويل ، بينما جلس المأمور على مقعد مريح ومن خلفه جنديان . وعندما اصبحت فى مواجهة المأمور سألنى سؤالا مفاجئا .. انت انكسرت ؟ فلما اجبته بالايجاب .. قال .. احسن علشان تبطل تبقى شيوعى . وعندما قلت له اننى لم اكن شيوعيا فى أى وقت . قال متهكما .. ايوه كلكم بتقولوا الكلام ده هنا . ولكن عبدالستار الطويلة الذى كان يقف ورائى مباشرة تدخل فى الحديث بدون مناسبة وقال للمأمور .. لا هو مش شيوعى وهو بيقول لك الصدق .. السعدنى برجوازى وطنى شريف .. وسأله المأمور .. وانت كمان زيه كده ؟ ورد عبدالستار الطويلة .. لا انا عضو فى الحزب الشيوعى المصرى.وقال له المأمور .. وانكسرت ؟ فرد عبدالستار : ايوه انا عندى كسرين فى ذراعى .. واجابه المأمور .. تستاهل .. الدور الجاى ها اكسر رقبتك ان شاء الله .

وانتهت عملية التجبير عند منتصف الليل ودخلنا الى الزنزانة .. واكتشفت ان الصاعقة مشغول بتجفيف السجائر التى غاصت فى جردل البول . كان الدخان مبللا وتفوح منه رائحة نتنة وكان يحاول تخفيفها بالتهوية عليها بقطعة قماش فى يده ، وقلت له مستنكرا هاتدخن السجائر اللى فيها بول ؟ ورد قائلا وايه يعنى .. ما احنا شربنا البول.ومرت أيام كثيرة بعد ذلك لم نغادر الزنزانة لقد حبسنا داخلها عدة ايام ومارس

العساكر ضدنا هواياتهم فى تعذيب الناس فكانوايأمروننا بالوقوف طول الوقت ووجوهنا للحائط وكانوا يقدمون الطعام لنا قبل ان ينضج وبدون ملح ورفضوا اعطاءنا اى دواء لمكافحة الجرب الذى اكل جلودنا وسلب النوم من اعيننا. ومرض الصاعقة مرضا خطيرا وكان يموت ولكنى اكتشفت ان مرضه لم يكن بسبب عدوى أصابته ولكن لانهم حرموه من تدخين السبارس وكان المرض اهون لديه من حرمانه من الشاى والدخان وبعد ان انقضى اسبوع كامل ونحن فى الحبس الاجبارى جاء الفرج وسمحوا لنا بالخروج وعدنا الى الجبل نشترك فى تعمير الصحراء ونقطع ثلاثة كيلو مترات على الاقدام لكى نأتى بمياه تسبح على وجهها صغار العقارب ونجمع السبارس لكى نعيد تصنيعها ونحولها الى سجائر ولنكتشف ان السبب فى العلقة والتكديره وفى حرماننا من الشمس والهواء والسبارس هو عضو قيادى فى حزب طليعة الشيوعيين اسمه مجدى حمدان وهو من عائلة ثرية وقوية ويبدو انه دخل الحركة الشيوعية من باب الوجاهة والفشخرة وتقدم فى صفوف الحزب حتى وصل الى اللجنة المركزية ، ولكنه انهار فى سجن الواحات وقرر ان يفعل اى شىء لكى ينجو بنفسه من هذا الجحيم ، وكان الحزب الذى ينتمى اليه الرفيق حمدان قد تلقى خطابا من قيادة الحزب فى القاهرة عن طريق موظف فى السجن . وكان عدد الذين اطلعوا على الخطاب ثلاثة فقط من اللجنة المركزية ، وكان حمدان احدهم . وبعد عشر دقائق من فتح الرسالة كان خبرها قد وصل الى البيه المأمور وكانت هى السبب فى العلقة والتكديرة .

المهم انه عندما انكشف امره وقع عليه اعتداء من بعض المعتقلين . وكان الناقد ابراهيم فتحى احد الذين اعتدوا عليه وسبوه سبا شديدا وفضحوه . مما اضطر الادارة فى النهاية الى نقله من عنبر الشيوعيين الى عنبر الاخوان المسلمين .. واسكنوه فى زنزانة انفرادية .

وبالرغم من الخدمات الكبيرة التى قدمها لهم الا انهم لم يفرجوا عنه الا فى الدفعة الاخيرة وبعد خمس سنوات طويلة فى المعتقل الرهيب ، واغرب شىء انه عندما غادر المعتقل قرر ان يعتزل السياسة وان يبتعد عن

طريق الرفاق وذهب لقضاء الصيف فى مدينته الساحلية وبعد اسبوع قضاه على الشاطىء كان يحتفل مع بعض الاصدقاء بعيد ميلاده الاربعين وبعد ان اكلوا جميعا كميات كبيرة من الجمبرى والسمك وقف الرفيق حمدان امام شاطىء البحر يحدق فى الفضاء ، لعله كان يستعرض الاحوال السيئة التى عاشها فى سجن الواحات والتى فارقها منذ اسبوع واحد لا غير ، ولعله كان يفكر فى محنته الشخصية محنة الزعيم الذى يقود الطبقة العاملة نحو جنة ماركس ولينين . فاذا به يتحول داخل السجن الى مجرد مخبر رخيص للبيه المأمور .

لعله كان سارحا بخياله وبعقله فى شىء اخر لا احد يدرى .

المهم انه بعد دقائق من وقفته على الشاطىء محدقا فى الفضاء البعيد ، سقط مجدى حمدان ميتا ، فقد حياته بعد ان فقد نفسه وذهب فى الكازوزة غير ما سوف عليه !

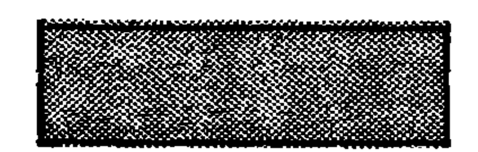


الفصل الثالث عشر

وكانت فترة المعتقل التى طالت فرصته لدراسة احوال الشيوعيين عن قرب ، وكانت دهشتى كبيرة عندما اكتشفت ان الحزب الشيوعى المصرى الذى يزعم انه ممثل الجماهير العريضة لم ينفتح فى اى يوم من الأيام على شعب مصر ، ولم يعقد صلة حقيقية بينه وبين الناس ، وان كل ما يدعيه عن تمثيله للجماهير ومعرفته بمشاكلها لم تكن الا مزاعم لا تقوم على اساس .

مسئول الأمن .. يالل !





والاغرب من ذلك انه بسبب العزلة التى فرضها على نفسه والحصار الذى فرضته الأجهزة حوله ، ابتعد كثيرا عن الناس وخاصمهم .

لم يعد يرى فى الحياة الا اعضاء الحزب ، وهم وحدهم المناضلون والاكفاء والمبدعون واولى الناس بالقيادة والريادة . ولذلك كان المعلم الالزامى فهمى حبيب مسئول الواحات يرى ان كل مخلوق خارج تنظيمه الحديدى هو بوليس . وكان بين المعتقلين صحفى هايف اسمه عبد الوهاب صبحى ، اشار فهمى حبيب نحوه وقال فى غرور وقح :

— اذا قدر للصحافة ان تنمو فى مصر ، فسيكون هذا النمو على يديه .

ولم يكن الأخ اياه معتقلا ، ولكنه كان محكوما عليه بالسجن لمدة ثلاث سنوات ، وكان مسئول المخابىء السرية فى الحزب ، ويبدو انه صدق مزاعم الأخ فهمى حبيب فكان يتصرف وكأنه محمد التابعى وكان يتكلم عن مصطفى امين وهيكل واحمد بهاء الدين وكأنهم بعض تلاميذه الذين فشلوا فى مهمتهم .. بسبب ترددهم وتطلعاتهم وقلة ثقافتهم وعدم فهمهم للصراع الحقيقى الذى هو الحياة !

وسألت المعلم الالزامى فهمى حبيب مرة بعد ان افاض فى شرح الأزمة الاقتصادية فى مصر سألته :

— هل لديكم فى الحزب الشيوعى كوادر تستطيع حل هذه المشكلات ؟

فاشار نحو رفيق حزبى كان يعمل مندوبا لاحدى الصحف بالقطعة فى

دوائر وزارة المالية ، وتصورت انه يهزل او يمزح ، ثم كدت اجن عندما اكتشفت انه جاد تماما ، وان ترشيحه للرفيق اياه كان عن اقتناع تام بأنه صانع المعجزات . وكان من بين المعتقلين صبحى منجد توافرت لديه النية الطيبة فى تأليف القصص ، وكانت قصصه اشبه بمواضيع الانشاء التى يكتبها طلبة المدارس المجتهدون ، ولكنه كان أهم كاتب قصة فى مصر فى دوائر الحزب الشيوعى ، ولكن لأنه شيوعى فقد تأمرت السلطة فى مصر لفرض الأدباء البرجوازيين على الحركة الأدبية فى مصر ، امثال نجيب محفوظ وتوفيق الحكيم ويوسف ادريس ! ! واذا كان الرفيق لينين قال يوما : ان الشيوعى الجيد ينبغى ان يكون حيث توجد الجماهير ، فإن الحزب الشيوعى المصرى فى الممارسة كان ضد الجماهير أو فى مواجهتها او بعيدا عنها .

اذكر انه فى شتاء ١٩٦٠ وكان قد مضى على اعتقالنا حوالى العام ، اننا تعرضنا لحملة تجويع منظمة ، فالافطار عبارة عن دود يقدمونه تحت اسم جبنة ، وفى الظهر يقدمون للمعتقلين « كرنب » مسلوقا ، اما فى العشاء فيقدمون للمعتقلين كمية ذباب ميت تحت اسم عسل اسود . وشعرت بهزال شديد وقررت ان استعين باصدقائى المساجين للحصول على بعض الاطعمة التى تعيننى على المقاومة وتحفظنى على قيد الحياة ، وذهبت الى عنبر المساجين الشيوعيين فى يوم جمعة للحصول على شىء من الطعام من الاستاذ زكى مراد المحامى ، والذى كان قد مضى عليه فى السجن اكثر من سبع سنوات ، وعندما رآنى عبد الوهاب صبحى مسئول الأمان فى الحزب ، اطلق صيحة تحذير دوت فى العنبر (عيسوى) وهى شفرة تعنى ان المباحث وصلت الى العنبر ، ولم يكن هذا التحذير بسبب شخصى المتواضع ، ولكن السبب الحقيقى كان زكى مراد المحامى ، لأنه كان زعيما من زعماء حدتو ، وهو تنظيم شيوعى انشق على الحزب الشيوعى المصرى ، واطلقوا عليه فى الحزب الأنقسام ، وبادلهم تنظيم حدتو المجاملة بالمثل فاطلق على الحزب .. التكتل .

هذا البطل العظيم الذى كان مسئول الامان فى الحزب الشيوعى

المصرى افرج عنه من السجن بعد شهر ، وقد جرت العادة حينذاك على عودة المسجون المفرج عنه الى الواحات مرة اخرى ، ولكن فى ثياب معتقل ، ولم يعد يسمح لاحد من الشيوعيين بمغادرة السجن ، وعليه ان يبقى خلف الاسوار . ولكن صاحبنا الثورى المناضل اياه خرج ولم يعد ، مع الاعتذار للفيلم الذى قام يحيى الفخرانى ببطولته واخرجه محمد خان ، ولم يمض اسبوع على خروجه من السجن حتى تعرضت الواحات لكبسة من رجال المباحث ، واقتحموا عنبر المساجين ، وبواسطة خريطة كانت معهم توصلوا الى كل المخابىء السرية التى كانت فى عهدة البطل المغوار اياه ، واستولوا على كل اوراق الحزب الشيوعى المصرى فى ضربة واحدة وعلمت بعد ذلك من مسئول حزبى كبير ان مندوب الامان عقد صلحا منفردا مع المباحث ، تم بموجبه الافراج عنه مقابل تسليمهم خريطة تحدد جميع الاماكن السرية التى توجد بها اوراق الحزب ، وقال المسئول الحزبى الكبير : لقد استطاع هذا العميل ان يخدع الحزب ويتسلل الى صفوفه ، ولأنه مدرب تدريبا عاليا فى جهاز المخابرات المركزية الامريكية ، فقد استطاع الوصول الى مستوى القيادة ، فصار مسئول الامان فى الحزب الشيوعى المصرى ! وكانت هذه آفة اخرى من آفات الحزب الشيوعى المصرى ، فهو يستخدم كلمات كبيرة لوصف لحوال هايفة . وهذا الصحفى الغلبان الذى اصبح بطلا مغوارا فى نظر الحزب الشيوعى المصرى لم يكن اكثر من شخص عادى ، نفخته عضوية الحزب الشيوعى فتحول الى بالون كبير ، ولكنه انفجر وانكمش وعاد الى حجمه الحقيقى عند اول امتحان . وقد ضاع فى الحياة بعد ذلك . ورأيته آخر مرة فى احدى دول الخليج يلقط رزقه .. فى الصحافة احيانا وبطرق اخرى فى أغلب الاحيان .

وهذا الغباء السياسى هو الذى اوقع الشيوعيين فى شر اعمالهم وجعلنا نأكل علقة فى سجن الواحات .. فشر حرامى فى مولد أو حمار فى مطلع ، فبالنسبة لدعوة القومية العربية التى اطلقها عبد الناصر ، كان تفسير الشيوعيين لها انها حركة سياسية لفتح اسواق جديدة امام الرأسمالية

المصرية ، عموما والعائلات الخمس الكبرى خصوصا . وعندما سألت عن هذه العائلات الخمس الكبرى، أجابني احدهم بطريقة محدثي البرامج الاذاعية .. بنك مصر وشركات فرغلي للأقطان وابو رجيلة وعبود والشوربجي ! وعندما امم عبد الناصر كل المصالح الرأسمالية الكبرى بما فيها العائلات الخمس ، اصدر الحزب الشيوعي منشورا آخر قالوا فيه : لقد اختارت الديكتاتورية العسكرية رأسمالية الدولة لاحكام السيطرة على الشعب المصرى من جهة ولحماية الرأسماليين الكبار من الخسائر التى يتعرضون لها وتحميل الخزانة المصرية الخسائر بدلا منهم ! واكتشفت ان تعبير العائلات الخمس الكبرى ليس من تأليف الشيوعيين المصريين ، ولكنه منقول حرفيا من دراسة الحزب الشيوعي السورى الذى كان يرأسه خالد بكداش عن وضع الاقتصاد السورى* المتدهور .

وجاء تعبير العائلات آلخمس فى هذه الدراسة ، حيث كان الاقتصاد السورى يقع فى قبضة خمس عائلات بالضبط ، وهو وضع يختلف تمام الاختلاف عن وضع الاقتصاد المصرى ، ولكن تأثير خالد بكداش على الحزب الشيوعى المصرى كان بلا حدود ، كان بمثابة المعلم والرائد والامام .. ولذلك كانت خيبة املهم كبيرة عندما لطمهم خالد بكداش بقسوة فى تصريح مشهور له ادلى به فى عام ١٩٦٠ وجاء فيه (لا توجد فى مصر احزاب شيوعية ولكنها مجرد دوائر ديدانية) هذا الغباء السياسى هو الذى ادى بهم فى النهاية الى تأييد عبد الناصر تأييدا كاملا ومنحه تفويضا على بياض ، وادى بهم فى النهاية الى حل الحزب الشيوعى والانضمام الى الاتحاد الاشتراكى والتنظيم الطليعى .

ولكن الشيوعيين المصريين رغم هذا الغباء السياسى كانوا اكثر مرونة واشد ذكاء من جماعة الاخوان المسلمين . ولقد كان فى سجن الواحات عنبران ، عنبر للشيوعيين وعنبر للاخوان ، ولكن ما ابعد الفارق بين نزلاء عنبر أ ونزلاء عنبر ب .

كان الشيوعيون يسعون دائما الى فتح حوار مع الاخوان المسلمين ، وكان الاخوان المسلمون يتحاشون هذا الحوار ويرفضونه بشدة ، وكان

الشيوعيون يؤمنون بأن الأخوان المسلمين سياسيون مجتهدون اخطأوا التحليل ، بينما كان الأخوان المسلمون يرون ان الشيوعيين كفرة وملحدون ومصيرهم جهنم وبئس المصير .

اذكر ذات يوم شديد القيظ ونحن نحفر فى رمال الصحراء فى الوادى الجديد ، وكان الشيوعيون يحفرون فى جانب والاخوان المسلمون فى جانب آخر . اذكر اننى شعرت بعطش شديد فعبرت الحدود ووصلت الى خطوط الاخوان المسلمين ، وكان احدهم وهو شيخ طاعن فى السن يجلس تحت مظلة صنعها بنفسه من فرع شجرة وخيشة وامامه جردل ماء مبطن بخيشة مبللة ومغطى بقطعة شاش بيضاء ، وفوق الشاشة كوز من الألمونيوم ، وكانت الخيشة المبللة قد جفت دليلا على ان المياه فى الجردل قد اصبحت مثلجة ، وكنت الهث بشدة وانا اتجه كالطلقة الطائشة نحو الشيخ الجليل والجردل المثلج ، وعندما القيت عليه السلام لم يرد وقلت له وحالى يصعب على الكافر .. ممكن اشرب من فضلك ؟ ورد فى برود وفى حزم .. لا . وسألته .. ليه ؟ وقال وبنفس اللّهجة وبنفس الطريقة .. أصل دى ميه طاهرة من غير مؤاخذة . تمالكت نفسى وقلت له بهدوء هو انا كلب هنجس الميه ؟ وقال وكأنه يقرر حقيقة .. انت أنجس من الكلب . وقلت للشيخ العجوز .. معقول فيه بنى آدم انجس من الكلب ؟ اجاب بشكل تقريرى .. انت .. مش انت شيوعى ؟ اجبته .. لا .. أنا مش شيوعى . فقال .. ياسلام .. امال الحكومة جايباك ليه ؟ قلت له .. وهل صدقت الحكومة ؟ قال .. طبعا .. قلت له .. غريبة .. ان الحكومة عندما جاءت بك الى هنا قالت عنك انك مجرم وسفاح وقاتل وابن كلب ، ولكنى لم اصدقها .

عندئذ القى على العبد لله نظرة ، وسألنى بلهجة مختلفة .. انت اسمك ايه ؟

وتبادلنا الحديث ، وتكرم فى النهاية فكشف الغطاء عن جردل المية المثلج ، وملأ الكوز الالمونيوم من الجردل وقدمه للعبد لله ، وجلست بجانبه وشربت ، واكتشفت انه من الاسماعيلية ويدعى الشيخ طرطور ، وان

الحكم صدر عليه بالاعدام ثم خفف الى الاشغال الشاقة المؤبدة ، وانه فى السجن منذ ست سنوات .

وتوثقت صلتى بالشيخ طرطور ، واكتشفت انه لا يعرف شيئا بالمرة عن الشيوعية او عن الشيوعيين ، وان لديه بعض الأفكار الساذجة التى كانت تنشرها اجهزة مكافحة الشيوعية فى الداخل والخارج ، وان لديه عقيدة ثابتة بأن الشيوعيين يتزوجون بدون عقود ويمارسون زنا المحارم ، وانهم مجرد افراد فاسدين ولصوص ، وكان يتصور ان الشيوعيين جهلة وانهم لا يحسنون اللغة العربية ويعبدون ماركس ولينين ، فى نفس الوقت كان الشيوعيين يعرفون كل صغيرة وكبيرة عن جماعة الاخوان المسلمين .. عن برنامجها واهدافها واخطائها ايضا .

وبينما كان الشيوعيون فى ذروة المعاناة داخل سجن الواحات ، حدث ان عمال الشحن فى ميناء نيويورك رفضوا تفريغ الباخرة المصرية كليوباترة ، فردت عليهم نقابة عمال الشحن والتفريغ المصرية بمقاطعة تفريغ وشحن السفن الأمريكية فى الموانىء المصرية ، وحذت النقابات العربية حذو النقابة المصرية فأعلنت مقاطعتها للبواخر الأمريكية ، وفى صباح اليوم التالى خرج المعتقلون الشيوعيون جميعا واتجهوا الى ادارة السجن وطلبوا تأييد نقابة الشحن والتفريغ المصرية وتأييد موقف الحكومة المصرية من هذه القضية . وسألت الشيخ طرطور فى اليوم التالى .. لماذا لم يؤيد الاخوان المسلمون موقف الحكومة المصرية من قرار مقاطعة السفن الامريكية ؟ نظر نحوى نظرة تحمل معانى كثيرة ، خليط من الدهشة والاحتقار والاستنكار .. وقال : هذه الحكومة كافرة ، ونحن لا نخاطب الكفار سلبا أو ايجابا ، وليس بيننا وبينها إلا الثأر ، اذا استطعنا ان نأخذه فى الحياة الدنيا كان بها ، والا فموعدنا يوم ينفخ فى الصور ونقف جميعا بين يدى الله-ومن يومها اطلقت عليهم وصف جماعة الاخوان الزعلانين .

كان موقفا سلبيا لا يمت بصلة إلى السياسة ، لقد دخل الاخوان المسلمون معركة ضد الثورة ، وهم الذين اختاروا مكانها وزمانها ، فلما

انهزموا فى المعركة انكفأوا على انفسهم يلعقون جراحهم ويمضغون غيظهم وينتظرون يوم الثأر وكأنهم عصابة من عصابات الجبل الغربى وليس تنظيما سياسيا كان ولا يزال يسعى الى السلطة لاقامة ولاية الفقيه .

وأعود مرة أخرى إلى حركة التجويع التى فرضها السجن على المعتقلين ، استطعنا رغم الرقابة المفروضة ان نحصل على بعض الاطعمة من مصادر مختلفة . احد هذه المصادر كان مهندسا يعمل فى هيئة تعمير الصحراء ، وكان اخر منصب تولاه هو مسئول مدينة ٦ اكتوبر . كان المهندس اياه شابا لا يزال ، وكان يأتى كل صباح لموقع العمل فى سيارة جيب ، وبالرغم من ان هواه كان مع الشيوعيين ، الا انه كان يعطى الشيوعيين بعض الشاى من الترمس الذى يحمله ، وبعض السندويتشات أيضا ، وكان هناك مسجون مجرم اسمه عاشور ، كان يذهب مع المعتقلين الى الجبل ليقوم باصلاح الفؤوس وترميمها وكان عاشور قد تعرض للعقوبة لاعتدائه على جندى من حرس السجن ، وجاءوا به الى عنبر الشيوعيين وحبسوه فى زنزانة التأديب وتأثر عاشور كثيرا بمعاملة الشيوعيين له اثناء حبسه انفراديا ، فرد لهم الجميل ايام المحنة ، وكان يمد البعض منهم بأرغفة خبز وبيض مسلوق وبعض السجائر ، وكان المساجين الشيوعيون الذين يعاملون معاملة عادية حسب اللائحة يمدون المعتقلين ببعض المواد الغذائية ، ولكن كل هذه الامدادات الضئيلة لم تشفع مع العبد لله ، فهاجمتنى عدة امراض مرة واحدة نتيجة سوء التغذية كان اخطرها ما اصاب لسان العبد لله ، فقد تحول كله الى جروح وصديد ، واصبحت عاجزا لا استطيع البلع ولا استطيع الكلام ، ولما ساءت حالة العبد لله ، عرضونى على طبيب الواحات ، فقرر اننى احتاج الى كميات من الليمون والسكر وبعض الاطعمة والا تعرضت للموت ، وهنا اصدر المأمور قرارا على مسئوليته بشراء دجاجة كبيرة على حسابى وسلقها فى مطبخ السجن وشراء كيلو سكر خصما من حسابى وخمسين ليمونه ، وبعد اول كوب من عصير الليمون الممزوج بالسكر خفت حدة القروح ، وبعد التهامى للفرخة اختفى المرض تماما ، وقمت اعدو كالغزال

فى حوش السجن . ولكن الجوع عاد لامعائنا بعد ذلك واصابنى الكرنب المسلوق بامتداد بالمصران الغليظ ، ثم حدثت الكارثة الكبرى ، وتعرض جميع المعتقلين للموت ، بسبب اكلة اكتشفوها فى الصحراء ، فهجموا عليها كالمجانين ، واكلوا منها حتى شبعوا ، وفى المساء نقلت الغالبية العظمى منهم الى المستشفى ، وجاءت الاسعاف الى السجن لرعاية الآخرين . ولكن .. كيف حصل المعتقلون على الأكلة اياها وكيف اصيبوا جميعا بالتسمم .. فهذه قصة اخرى ..

الفصل الرابع عشر

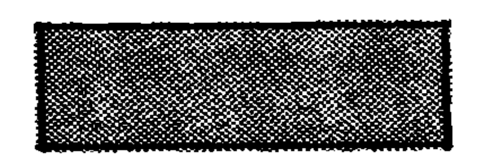
كان يوما مشمسا ودافئا رغم اننا كنا فى عز الشتاء وكانت قبضة عم شاهين قد خفت كثيرا ، وصار الرجل نفسه واحدا من المعتقلين فهو لا يغادر السجن ليلا او نهارا ، ولا يتذوق الا طعام السجن ولا يعرف من الحياة الا العنبر والجبل ومكاتب الادارة .





وليمة الخروع !





كان الصول شاهين قد بدأ يشكو من سوء احواله الى المعتقلين ، وكيف ان ابنه الذى فى الجامعة لم يرحم شيبته ولم يقدر شقاه ، فرسب للسنة الثانية فى كلية التجارة مع ان الصول شاهين كان ينتظر من ابنه ان ينتهى بسرعة من دراسته الجامعية لكى يعاون اباه على تربية بقية الابناء .

كان عم شاهين يحكى عن متاعبه وهو يكاد يبكى ، وكيف ان ابنته الوسطى خطبها ولد افندى معتوه ولكنه لم يكمل المشوار فهجرها واختفى عن الأنظار ، وفى ذلك اليوم المشمس الدافىء كان عم شاهين يبدو مهموما اكثر من ذى قبل ، فقد كان يطمع فى الحصول على الجنيه قيمة المكافأة الشهرية لأحسن سجان ولكن المأمور تجاوز عم شاهين رغم اخلاصه وتفانيه فى خدمة الحكومة . ولكنها حكومة اوباش لا تفرق بين المحسن والمسىء ! ويقسم عم شاهين بأغلظ الايمان انه خدم هذه الدولة عشرين عاما منذ كان حيدر باشا هو الحاكم بأمره فى مصر وحتى الآن وانه تولى بنفسه ضرب كل اعداء الحكومة ، الشيوعيين والاخوان والوفديين حتى الضباط المناوئين ، ومع ذلك لم يأخذ من الحكومة الا راتبه وهو ثلاثة عشر جنيها الذى لم يزد مليما ، بينما المشاكل تضاعفت بشكل فظيع .

فى ذلك اليوم المشمس الدافىء الذى كان فيه عم شاهين مهموما ومكتئبا وغاضبا وثائرا على كل شىء ، اختار منطقة مزروعة فى الصحراء لكى يمارس المعتقلون العمل فيها ونصحهم بعدم اجهاد انفسهم والنوم تحت

الاشجار بشرط ان يكونوا يقظين حتى لا يفاجئهم الضابط فيتسببوا فى توقيع الجزاء على عم شاهين ، وسرح المعتقلون فى الواحة الصغيرة وكانت دهشتهم كبيرة عندما اكتشفوا ان الاشجار مثمرة . كانت الثمرة خضراء وطعمها مش بطال وان كان الجميع قد فشلوا فى معرفة حقيقة هذه الثمرة ، ولم يكن المعتقلون فى حاجة الى عزومة من احد لكى يملأوا بطونهم من هذه الثمرة ، فهم يعانون الجوع منذ عدة اشهر ، ونزل المعتقلون على الشجر وهات ياأكل كالمجانين ، واكل الجميع حتى شعروا بالامتلاء والراحة ، وشكروا الله الذى يرزق كل حى حتى الدود فى الحجر والمعتقلين فى سجن الواحات ، وزاد من بهجة المعتقلين ان اليوم مر بسلام فلا الضابط حضر ولا التكديرة اصابت المعتقلين ولا لحق الاذى بعم شاهين ، وعاد الطابور البائس الى السجن والكل يشعر بنشوة لم يشعر بها من قبل ، وعندما اغلقت ابواب الزنازين اخذ المعتقلون فى الغناء ، ولماذا لا يغنون وقد عرفت بطونهم الشبع بعد فترة طويلة من الجوع ؟ ولكن لم تكد تمضى نصف الساعة على دخولهم الزنازين حتى شعر البعض بمغص خفيف فى البداية ثم اشتد بعد ذلك ، وانتقل المغص الى بقية المعتقلين ، ثم بدأ القىء ثم اعقبه اسهال ، وكان تشخيص الاطباء للمعتقلين انه تسمم حاد ، فقد كان بعضهم يحمل فى جيوبه بعض حبات من الثمر الذى اكلوه .

لقد اكتشف احد المعتقلين وهو مهندس زراعى لم يخرج الى الجبل فى ذلك اليوم ، اكتشف ان الثمرة اياها هى خروع وان حبة واحدة منها قد تصبح دواء شافيا اما كمية منها فقد تنقلب الى سم زعاف يقضى على من يتناوله فى خلال ساعات . وبدأ المعتقلون يتصايحون داخل الزنازين ويدقون بشدة على الابواب . وتلكأت الادارة فى البداية ثم فتحوا الابواب واستدعوا الاسعاف ، وتم نقل بعض المعتقلين الذين ساءت حالتهم بشدة الى مستشفى الواحات ونقل البعض الآخر الى مستشفى السجن وتم اسعاف الباقين داخل الزنازين .

وقام الدكتور حمزة البسيونى وهو معتقل فى الوقت نفسه بدور هام فى

علاج المصابين وساعده الكاتب الكبير صلاح حافظ الذى كان يمارس الطب داخل السجن ، ولم ينم السجن فى تلك الليلة ، وظلت ابواب الزنازين مفتوحة حتى الصباح ، ولم يغادر المأمور العنبر حتى الفجر ، وابدى همة مشكورة وظهر عليه فى بعض الاحيان انه شديد القلق وحزين على نحو ما ، ولكن اغرب شىء حدث تلك الليلة ان المعلم الالزامى فهمى حبيب الذى كان مسئول منطقة الواحات والذى صار فيما بعد سكرتيرا عاما للحزب الشيوعى ، مر على الزنازين يتفقد رعاياه ، ثم قرر فجأة ان يمارس نضاله من اجل الرفاق ، فوقف امام المأمور وصرخ فى وجهه .. الادارة مسئولة عن هذه الجريمة ونحملكم المسئولية اذا مات رفيق أو اكثر ، ورد عليه المأمور ساخرا : واحنا مالنا احنا وزعنا عليهم خروع علشان ياكلوه ؟ ! وعاد المسئول الهايف يصرخ فى عصبية .. كان لازم الصول اللى معاهم يمنعهم ، وده معناه ان السجن مفيش فيه ظبط ولا ربط ، ومادام الصول مسئولا يبقى سعادتك كمان مسئول !

وفى صباح اليوم التالى فرض الصول شاهين الضبط والربط على المعتقلين وعامل المعتقلين بشىء من القسوة ولما عاتبناه على هذا الموقف ، صرخ فى وجوهنا بحرقة شديدة .. هو انا ناقصكوا انتوا كمان .. الجدع الهايف بتاعكوا ده اللى بيتكلم باللاوندى قال للمأمور : السجن ما فيش فيه ظبط ولا ربط طب خدوا بقه ظبط وربط من هنا ورايح ، ثم مضغ الهواء بين اضراسه وارعش حاجبه وقال وهو يتمزق غيظا : طيب انا هاورى الافندى الهايف ده قال ايه عاوز ظبط طيب يافلفوس .. اما ارقعك عشر اقلام على قفاك .. هتعرف الظبط والربط صحيح ، وساءت العلاقة بيننا وبين عم شاهين اسبوعا كاملا بعد هذا الحادث .

كان حادث الخروع سببا فى تخفيف القيود المفروضة على المعتقلين كان الضابط نصرى وهو فى رتبة نقيب قد التحق بكلية الحقوق لكى يتمكن من الصعود الى اعلى رتبة فى سلك الشرطة ، والسبب انه لم يكن خريج كلية الشرطة ، ولكنه بدأ حياته كومستبلا فى ادارة المرور ثم رقى الى رتبة ملازم ثان ، وهو فى الثانية والثلاثين واصبح نقيبا الآن وهو فى الثالثة والأربعين

وسيخرج على المعاش عندما يصل الى رتبة المقدم لذلك نصحه البعض بالانتساب الى كلية الحقوق لكى يحقق حلمه بالترقى الى رتبة اللواء .. وفعلا التحق الضابط نصرى بكلية الحقوق ولكن انشغاله فى وظيفته كسجان كان يمنعه من متابعة دروسه . ولذلك كان فى حاجة الى من يساعده على استيعاب المواد الدراسية وفهمها .. وتطوع المحامى المعتقل على الشلقانى فى مساعدة الضابط على فهم دروسه . وسمحت له ادارة السجن بفتح عنبر (أ) ليلا ، وكان يأتى اليه كل مساء ، ويفتح زنزانة العبد لله حيث كان يقيم بها على الشلقانى . وكان الضابط التلميذ والمعتقل الاستاذ يجلسان معا داخل الزنزانة فى الوقت الذى كان فيه نزلاء الزنزانة يفضلون الانتشار فى الطرقة الطويلة التى تفصل بين الزنازين ، وفى الأيام التالية كان الضابط - يحرص على ان يحضر معه عدة بواكى من شاى التموين وقرطاس سكر ، وكان شوقى الصاعقة يتولى اعداد الشاى مستخدما ملابسه الميرى كوقود لاعداد الشاى ، سمح للأومباشى الذى يقوم بعملية تمريض المعتقلين المرضى بالمرور على زنازين السجن مرة كل اسبوع لحصر الحالات التى تحتاج الى علاج وتوقفت عمليات الضرب والاهانة ، وسمح لبعض المعتقلين بالتردد على عنبر المساجين ، وصار العمل فى الجبل متعة ، وعادت المياه الى مجاريها بيننا وبين الصول شاهين ولكنه كان اذا رأى الزعيم الشيوعى الهايف اياه فهمى حبيب الذى صار دكتورا وسكرتيرا عاما فى آخر الزمان . كشر عن انيابه وانتابته حالة عصبية تجعله يهتز بشدة ويردد فى غيظ شديد .. الافندى بتاع الظبط والربط اهه . ولكن لأن الحياة لا تمضى دائما على وتيرة واحدة فقد حدث ما عكر صفو المعتقلين فى تلك الأيام الهادئة ، فقد حدث ان هرش بعض المعتقلين فى اجسامهم وافتى بعض الرفاق انها مجرد حساسية نتيجة ارتداء ملابس السجن على اللحم ، ولكن لم تكد تمضى بضعة ايام حتى انتشر الهرش بين جميع المعتقلين وصار الهرش هو سيد الموقف .

واتضح ان الهرش نتيجة جرب انتشر بين المعتقلين جميعا ، وكان من المناظر المألوفة ان يشاهد عشرات من المعتقلين وقد التصقوا بجدار السور

وهات ياهرش على ودنه . ولا يكفون عن الهرش الا عندما تدمى جلودهم من شدة الاحتكاك بالحائط المبنى بالصخور ، ولكن الرفيق فهمى حبيب وجد ان الجرب فرصة لممارسة نضاله فقرر الدخول فى اضراب عن الطعام حتى تصل بعثة طبية من أسيوط تتولى علاج المعتقلين وتخليصهم من الهرش ، وحاول بعض العقلاء ان يقنعوه بالعدول عن فكرة الاضراب لأن الاضراب سيؤدى إلى افساد العلاقة بين المعتقلين والادارة ، وسيقطع شهر العسل الذى بدأ بعد حادث الخروع ، ولكن الزعيم المناضل فهمى حبيب رأسه والف سيف لابد من الاضراب وان يكون اضرابا مشهودا يدخل تاريخ المعتقلات من اوسع الابواب ، وانتصر بالطبع رأى فهمى حبيب ، واستعد بعض المعتقلين لبدء عملية الاضراب بحلاقة رؤوسهم زلبطة .

بدأ الاضراب عن الطعام فى سجن الواحات وجاء المأمور وحاول التفاهم فى البداية ثم اصدر امره للعساكر بادخال المعتقلين الى الزنازين واغلاق الابواب . ومضت خمسة ايام وبعض المعتقلين مضربون عن الطعام فقد رفض تنظيم حدتو الانضمام الى الاضراب باعتبار انه بلا سبب ، وليس من ورائه اى فوائد ، وأعلنت زمش بالطبع انضمامها إلى حدتو ثم عدل بعض المضربين عن اضرابهم ، وانتهى الاضراب تقريبا عندما تبين للمعتقلين مدى سخافة فكرة الزعيم الهمشرى فهمى حبيب . وبعد ان فشل الاضراب جاء المأمور ذات صباح وامر المعتقلين بالخروج الى الحوش ، ثم امر بالاصطفاف فى طابور واحد بجوار الحائط ، وافتى جناح فهمى حبيب بأن هناك حفلة تعذيب فى انتظارنا ثم اتضحت الحقيقة عندما امر المأمور بعض رجاله باحضار (الجماعة) وجاءت الجماعة يلبسون جلاليب مهلهلة عليها « بلاطى » بيضاء او كانت بيضاء ذات يوم بعيد ولم يكن مع الجماعة ادوات للتعذيب كما افتى الجناح المناضل ، ولكن كان معهم جرادل مملوءة بسائل ابيض ، وفى كل جردل فرشة من النوع الذى يستعمل فى طلاء الجدران ، ثم طلب المأمور من المعتقلين ان

يخلعوا ملابسهم وان يتعروا كما ولدتهم امهاتهم وبعد ذلك مر اصحاب الجرادل يغمسون الفرش فى السائل ثم يأخذون فى طلاء اجسام المعتقلين بالسائل الابيض الذى تمتلىء به الجرادل ، وبعد ان انتهوا من طلاء جميع المعتقلين ارتدى المعتقلون ملابسهم وانسحبوا الى العنابر . وافتى جناح المتشددين بانها حيلة خبيثة من جانب الادارة لامتصاص غضب المعتقلين وان هذا الطلاء الابيض ليس الا ماء ممزوجا بالجير ، وهو فى النهاية لا يؤدى الى شفاء المعتقلين ولكن الى مضاعفة عذابهم وقد يؤدى فى النهاية الى اصابة الكثير منهم بسرطان الجلد ، ولكن الذى حدث بالفعل ان عملية الهرش خفت فى المساء ، وعندما اعادوا عملية الطلاء فى صباح اليوم التالى لم يأت المساء حتى كان كل المعتقلين قد برأوا من داء الجرب وكأنهم لم يكونوا جربانين فى اى وقت . وعادت الأمور فى السجن عادية وعصا الادارة ليست مشدودة وليست مرخية .

ثم حدث ما جعل الأمور تختلف كل الاختلاف ، فى منتصف الليل حضر المأمور ومعه ضابط والصول شاهين وبعض الجنود ، وفتحوا العنبر وفتحوا الصالة الضيقة التى تفصل بين الزنازين ، بينما ادى الضجيج الذى تحدثه كعوب احذيتهم على البلاط البارد الى فرار النوم من عيون المعتقلين وهرع العشرات منهم الى الأبواب والنوافذ لاستطلاع الأمر ، فقد توجسوا شرا لحضور المأمور الى العنبر فى هذا الوقت من الليل ، واتجه المأمور بموكبه الصامت الى زنزانة الاستاذ صلاح حافظ واخرجه منها ، ثم اتجه بعد ذلك الى زنزانة الدكتور حمزة البسيونى واخرجه منها ثم اصطحب المعتقلين معه وخرج من باب العنبر بعد ان اغلقه على المعتقلين وضرب المعتقلون اخماسا فى اسداس ، فحضور المأمور الى العنبر بعد منتصف الليل واخراج معتقلين من السجن فى هذه الساعة امر لا شك خطير . وعلى الفور انعقدت الحلقات وبدأ النقاش بين الخبراء فى محاولة للوصول الى تفسير لهذا الاجراء غير المألوف . وافتى الزعيم فهمى حبيب بأنها مؤامرة لقتل اطباء المعتقلين بدعوى الهروب من السجن .

وقال الرفيق ابراهيم العطار امين التنظيم فى منظمة زمش .. ان الحكومة اوفدت مندوبها الى السجن لمناقشة المعتقلين ، وان المأمور اختار صلاح حافظ وحمزة البسيونى لأنهما عاقلان وغير متشددين ، وذهب الآخرون فى تفسير الأمر مذاهب شتى . ولكن الحقيقة لم تظهر الا فى الصباح ، وهى حقيقة ولكنها اغرب من الخيال !



الفصل الخامس عشر

اكتشفنا فى صباح اليوم التالى ان كل تحليلات الزعيم الخنفشارى فهمى حبيب باطلة . فقد جاء المامور إلى السجن فى الليلة الماضية واصطحب معه الدكتور حمزة البسيونى والأستاذ صلاح حافظ لسبب لم يخطر على بال الزعيم الهمشرى إياه ..

شاهين وأخواته !



وأصل الحكاية أن المأمور فريد شنيشن كان مدعوا على العشاء فى بيت محافظ الصحراء الغربية . وهو ضابط بسلاح الحدود اسمه البورينى . واصطحب المأمور السيدة حرمه تاركا طفليه الصغيرين فى المنزل تحت حراسة بعض جنود بلوكات النظام وانتهز أطفال المأمور فرصة وجودهما فى المنزل فعبثا بمحتويات المنزل . وامتدت أيديهما إلى الدولاب وإلى المكتبة وإلى الصيدلية . ويبدو أنهما تصورا أن حبوب الأدوية المختلفة هى نوع من الحلوى ، فابتلعا كميات كبيرة منها . وعندما عاد المأمور والسيدة حرمه إلى المنزل . كان الطفل الصغير فى حالة إغماء . بينما الطفل الأكبر كان فى حالة إعياء شديدة . ولم يكن أمام المأمور إلا الاستعانة بالطبيب المعتقل الدكتور حمزة البسيونى . وطلب حمزة البسيونى من المأمور أن يسمح للأستاذ صلاح حافظ بمساعدته ، على أساس أن المرحوم صلاح حافظ كان يدرس الطب قبل احترافه الصحافة . ولم يعد حمزة البسيونى وصلاح حافظ إلى السجن إلا فى مساء اليوم التالى وبعد أن نجحا فى إنقاذ الطفلين من موت مؤكد.بعد هذا الحادث ظهر المأمور فى ثوب آخر يختلف تمام الاختلاف عن الثوب الذى إعتاد الظهور به من قبل وظهر معدنه الأصيل كفلاح مصرى طيب . ويبرر هو نفسه موقفه القديم بأنه لم يكن قادرا على الظهور بمظهره الحقيقى وإلا كان مصيره السجن . وقال هو نفسه للعبد لله .. عندما قمت بزيارته ذات مرة وهو مأمور لمركز ميت غمر . لم أكن أكثر من ضابط شرطة برتبة رائد . بينما كان بين المعتقلين أساتذة

جامعة ومديرو عموم ووكلاء وزارة ونواب وزراء ومستشارون برئاسة الجمهورية .

والحق أقول أن المأمور فريد شنيشن كان ضابط شرطة محترما ومسئولا ، ولم يرتكب جرائم قتل كما فعل غيره فى معتقل أبوزعبل ولذلك حافظت على زيارته بين الحين والآخر فى كل المواقع التى احتلها ، منذ أن كان مأمورا لأحد مراكز الشرطة فى محافظة أسيوط . ثم بعد نقله مأمورا لميت غمر ، ثم مديرا لأمن الدقهلية . ثم رئيسا لمدينة جمصة ، وحزنت جدا عندما قرأت نبا نعيه وأنا مقيم خارج مصر فى سنوات التشرد والضياع .

والحق أن شنيشن لم يكن وحده بين ضباط الشرطة الذين ظهر معدنهم الأصيل أثناء المحنة ، كان هناك ضابط فى السجن إسمه عثمان وكان برتبة ملازم أول ، ولكنه كان رجلا يحمل قلبا كبيرا وحكمة أكبر من تجربته ، هذا الضابط الشاب لم تقع عينى عليه بعد خروجنا من السجن ولا أعرف أين انتهى به المصير ، وإن كنت أشك فى انه وصل إلى ما وصل إليه غيره ، لأنه كان صاحب ضمير حى ، وكان يؤدى واجبه بمنتهى الأمانة مع ابتعاده عن إرتكاب الصغائر ، وكان يعامل الجميع باحترام حتى عتاة المجرمين ..

وكان هناك الضابط عبدالعال سلومة وهو برتبة نقيب ، وكانت له ظروف خاصة فرضت عليه بذل كل ما يستطيعه لكسب رضا رؤسائه فى مصلحة السجون والمباحث العامة وفى وزارة الداخلية .

وأصل الحكاية أن الضابط عبدالعال سلومة كان مسئولا عن عنبر الاخوان المسلمين فى سجن طره عندما تمرد المسجونون من جماعة الاخوان المسلمين على إدارة السجن ، وقاموا باختطاف ضابط وأحد الصولات وحبسوهما داخل العنبر . وبعد يوم كامل من القلق والتوتر . صدر الأمر باقتحام العنبر . واقتحم عبدالعال سلومة العنبر . ونتج عن إقتحام العنبر مأساة . سقط عشرون قتيلا على الأقل واصيب عشرات بجراح خطيرة . من بينهم بعض الحراس وبدأ التحقيق فى الحادث . وقرر

عبدالعال سلومة فى التحقيق انه اقتحم العنبر تنفيذا للأمر الصادر إليه من وكيل السجن ، وقرر وكيل السجن انه أصدر الأمر بناء على أمر صدر اليه من مأمور السجن . وقال المأمور انه نفذ أمر البيه المدير . وقال المدير انه نفذ أمر الوزارة ثم غابت الحقيقة بعد ذلك عندما بدأ تحديد معنى الوزارة . هل هو مبنى الوزارة الذى أصدر الأمر ؟ هل هو واحد فى الوزارة ؟ ومن هو هذا الواحد ؟ هل هو الوزير ؟ هل هو الوكيل ؟ هذا السؤال البسيط لم يجد جوابا على الاطلاق . وجاءت الطوبة فى المعطوبة ، ووقعت الوزارة جزاءات على الضباط الذين نفذوا الأمر . والذى تبين بعد التحقيقات الطويلة أنه أمر بلا صاحب . وكان جزاء عبدالعال سلومة هو تأخير ترقيته ، وعندما كان وكيلا لمعتقل الواحات كان برتبة نقيب . بينما كان المأمور الذى هو أحدث منه فى التخرج برتبة رائد .

ولكى يسترد عبدالعال سلومة وضعه الطبيعى بين دفعته بذل مجهودا كبيرا ونجح فى النهاية فى تجنيد عضو اللجنة المركزية لأحد الأحزاب الشيوعية وهو فى الوقت نفسه ابن شقيقة أحد مليونيرات مصر الكبار ، الذى لعب أدوارا هامة وخطيرة فى الثلاثين عاما الأخيرة من تاريخ مصر ، ولكن هذا العمل لم يشفع لعبدالعال سلومة . وظل فى مكانه محلك سر . وقد أصيب من جراء هذا الاهمال بأمراض خطيرة ، ولقى ربه فى النهاية فى أحد مستشفيات لندن بعد اجراء عملية خطيرة، ومات وهو لا يزال شابا وبرتبة عقيد ، وكان هناك الضابط نصرى ، وهو الذى تعرضنا لسيرته من قبل . وقد بدأ حياته كونستبلا والتحق بكلية الحقوق أثناء خدمته فى الواحات وساعده المعتقل الأستاذ على الشلقانى ، وكانت فرصته طيبة لكى يفتحوا علينا الزنزانة ليلا . لنملأ صدورنا بهواء الواحات العليل ، خصوصا أثناء الليل.وهذه الفرصة جعلتنى اكتشف شيئا رهيبا بالنسبة للسجون . فكل مسجون حتى المحكوم عليه بالاعدام من حقه الاستمتاع بطابور شمس أثناء النهار ، ولكن ليس من حق المسجون أن يستمتع بالليل أو يعيشه . الليل من حق الذين خارج القضبان . أما الذين وراء القضبان فليس من حقهم أن ينعموا بالليل ، ولكن طموح الضابط نصرى

والتحاقه بكلية الحقوق جامعة القاهرة أتاح لنا هذه الفرصة الذهبية ومع هذه الباقة من الضباط كان يعمل معهم عشرات من الحراس . كل منهم دنيا بأسرها وعالم بأكمله . بعضهم أغبى من وحيد القرن . وبعضهم يتمتع بذكاء المصرى العادى ، ويحمل بين جنبيه روحا فكهة واحساسا بمتاعب الآخرين ، ولكن كلهم .. وحتى الأغبياء منهم كانوا يتمتعون بروح طيبة ، والجميع يشتركون فى لعن الظروف التى أدت بهم إلى هذه المهنة السيئة التى تجعلهم يقضون العمر كله وكأنهم يمشون على طريق من الشوك ، واكتشفت خلال فترة السجن فى معتقل الواحات أن مصلحة السجون لها فلسفة فى معاملة هؤلاء الحراس ، فهى تضع هؤلاء الحراس على صفيح ساخن طول الوقت ، وتجعلهم يمشون على أعصابهم متوقعين فى كل لحظة أن تنزل بهم الادارة أقسى أنواع العقاب . واكتشفت أيضا أن اضطهاد هؤلاء الحراس للمعتقلين هو نوع من أنواع الاحتجاج على الاضطهاد الواقع عليهم . وكانت حياة أى معتقل فى سجن الواحات رغم الضرب والتعذيب أفضل من حياة أى حارس حتى ولو كان برتبة مساعد أو زين كم جاكتته بأربعة شرائط ونسر .. كانوا يأكلون نفس طعام السجون ، ولكنهم لا يحصلون على فترة نوم تساوى فترة نوم المعتقل .

كان المسجون تنتهى مشاكله تماما عندما يغلقون باب الزنزانة عليه ، ولكن مشاكل الحارس كانت تبدأ بعد ذلك ، كان على كل منهم أن يقدم تقريرا إلى الادارة عن سير العمل فى المعتقل أثناء النهار . عن المخالفات التى ضبطها أثناء العمل . عن الممنوعات التى شاهدها مع المعتقلين ، وبعد ذلك يجلس الحارس يفكر فى أمر العائلة التى تقطن بعيدا عنه فى القاهرة . بينما كان بعض المعتقلين ينعم أثناء الليل برشف كوب شاى . كان الحارس محروما من الشاى ومحروما من السجاير وحروما من أى شىء إلا النوم على الأرض فى خيمة يحيطها أخدود مملوء بالماء ليصد عنه غارات العقارب والأفاعى والعناكب السوداء .

كان أبرز هؤلاء الحراس بعد الصول شاهين الأومباشى حسن ، وهو رجل طويل وعريض . ويصلح لمنصب تشريفاتى فى قصر أحد بشوات

أسرة محمد على . وكان طيبا ومتكلما ومتفلسفا على نحو ما . وكان الأومباشى حسن يختلف عن أغلب زملائه الحراس . فقد سبق له العمل فى معتقلات تضم الشيوعيين قبل الثورة وبعدها وكان أكثر ما يغيظه هو وجود عدد من أبناء البشوات بين المعتقلين الشيوعيين وكانت معلوماته عن الشيوعية هى أنها نظام يدعو إلى إبادة الأثرياء ورعاية مصالح الفقراء . فهل يعقل أن يدافع البشوات عن جماعة تسعى للقضاء عليهم ؟

هذا اللغز المحير أدى بالأومباشى حسن إلى الاقتناع بأن هؤلاء الشيوعيين من أبناء البشوات هم مجرد مجانين فقدوا عقولهم وينبغى إيداعهم مستشفى الخانكة وليس معتقل الواحات .

وذات مرة ونحن جلوس أمام الكانتين وأحمد شوقى الصاعقة يوزع علينا أكواب الشاى - وكنا لانزال فى بداية فترة الاعتقال - أشار الأومباشى حسن إلى المعتقل على الشوباشى وقال وهو يتمزق غيظا : حد يصدق إن الراجل ده عايش فى عمارة طويلة فى وسط البلد وعلى بأبها بواب بيأخد فلوس فى الشهر أكثر من الفلوس اللى بيأخدها البيه الوكيل . عاوز حد يفهمنى ايه اللى رماه ع المر ده ؟

وذات يوم قال الأومباشى حسن للعبد لله وأنا أعزم عليه بسيجارة كنت ، تصدق بالله ، ماحد حقه يبقى شيوعى إلا أنا . طب أنا عندى مشاكل مش تخلينى أكتب منشورات بس دى تخلينى أضرب بالنار ..

ولقد شاءت الصدف أن التقى مرة أخرى بالأومباشى حسن وبعد إثنتى عشرة سنة كاملة فى سجن القناطر الخيرية . كان هو مساعدا فى قوة السجن وكان العبد لله نزيلا بسجن القناطر ومحكوما عليه بالسجن لمدة سنتين فى قضية ما يسمى بمراكز القوى ، وعندما وقع بصر المساعد حسن على العبد لله قال : ياأخبر أسود . إنت جيت تانى ؟ أنتو لا مؤاخذه بقيتو زاى الحرامية من سجن لسجن تانى تعرف تقوللى إنت ضد الحكومة ليه ؟ دنا روحتلك الشغل لقيتك قاعد فى مكتب ولا مكتب البيه المأمور وعندك تليفون وساعى واقف ع الباب . وقدامك جرس تدوس عليه الساعى يجيلك . يعنى إنت حكومة يبقى عاوز ايه تانى ؟ دنا بأخد

عشرين جنيه فى الشهر وبحمد ربنا وما بطلبش حاجة منه غير الستر ، تصدق بالله يا أستاذ . ما تأخدنيش فى دى الكلمة .. انتو تستاهلو الحرق !

أما الشاويش نمر فكان يختلف كثيرًا عن الأومباشى حسن . الأومباشى حسن كان من أبناء الغربية ، بينما كان الشاويش نمر من أبناء أسيوط وكان الأومباشى حسن أومباشى نظام . بينما كان الشاويش نمر شاويش رياضة ، وكان حسن يجيد القراءة والكتابة ، بينما كان نمر لا يعرف الفرق بين الألف وكوز الدرة . ومع ذلك كان نمر حريصا على استخدام لغة المثقفين فى الحديث ، وكان يردد بمناسبة وبدون مناسبة عبارة .. أنا أسلوبى . وكان ينطقها بفتح الألف .. وكان لا يقبل من أحد سيجارة أو شيئا من الفاكهة كما يفعل غيره من الحراس ، وكان ينفذ الأوامر دون تجاوز وبشىء من الانسانية ، وكان يعامل الجميع باحترام ..

وكان الشاويش محمود احترام نموذجا جديرا بالدراسة ، كان غبيا إلى أقصى حد . لم يكن اسمه محمود احترام بالضبط . ولكن العبد لله هو الذى أطلق عليه هذا الاسم ، والسبب انه كان دائم الشجار مع المعتقلين ، وكان كلما تشاجر مع معتقل ، صرخ فى وجهه بكلمة واحدة يكررها عشر مرات . وكانت الكلمة هى احترام ، مع تسكين الحاء وفتح الراء . وكان لا يتورع فى اتهام من يتشاجر معه بشتى أنواع الاتهامات ، أبسطها هو سب دين الحكومة والهتاف بسقوط الرئيس ! وكنت أسأل نفسى أحيانا .. هل من الممكن أن يتحول الانسان إلى حيوان ؟ وكان من حسن حظ المعتقلين أن محمود احترام نقل من سجن الواحات إلى سجن طره قبل أن تبدأ عمليات التعذيب ضد المعتقلين ، وإلا لمات بعضهم تحت ضربات هراوته التى كان يزين مؤخرتها بقطع من الحديد .. ولكن كل الحراس كوم ، والعسكرى متى كان كوم لوحده ..

كان العسكرى متىّ عجوزا يقترب من سن الستين . وكان يعول عائلة من زوجة وسبعة أبناء ، بعضهم يعمل باليومية وأغلبهم عاطل عن العمل وكان مرتبه ثلاثة عشر جنيها فى الشهر يرسله كاملا إلى أسرته ويعيش على

طعام السجن ، وكان فى أحيان كثيرة يطلب كمية من الملح من المعتقلين ليضيفه إلى طعامه ، وكان متين البنيان ، وقبضة يده فى حجم صخرة ، وكان طويلا وعريضا ، وكانت لطمة واحدة منه على وجه أى مسجون كفيلة بطرحه أرضا ، وكان يبدو وكأن بينه وبين المساجين السياسيين ثارا ، ويتباهى دائما بأنه ضرب أبوالخير نجيب علقة فى سجن طره وكان شقيا وتعيسا لأن الثورة حررت المساجين من أغلالهم وسمحت لهم بتربية الشعر وتدخين السجاير وكانت كل أمنياته فى الحياة أن يصل يوما ما إلى رتبة عشماوى ، ويتولى بنفسه اعدام المذنبين وكان يتعجب لأن الحكومة تضع أعداءها فى السجن وتقدم لهم الطعام والشراب والدواء أحيانا . مع أنها لو أنصفت لوضعتهم جميعا فى ساحة واحدة وأطلقت عليهم النار وانتهت منهم بضربة واحدة وإلى الأبد ..

وقد رأيت العسكرى متى بعد ذلك بعدة أعوام داخل غرفة الاعدام فى سجن الاستئناف ، وكان يتدرب على تنفيذ أحكام الاعدام . ولكنه لم يستمر ، وعاد مرة أخرى كسجان إلى أحد سجون القاهرة بسبب (اضطراب أعصابه وعدم تركيزه وارتعاش يديه أثناء عملية تنفيذ الاعدام) وفشل متى فى تحقيق أمنيته الوحيدة فى الحياة ومات بعد ذلك بسنوات غير مأسوف عليه !



الفصل السادس عشر

في بداية الصراع بين بغداد والقاهرة ، رفع الشيوعيون المصريون شعار الإطاحة بالحكومة ، ولم يكن اكثر من شعار ، ولكنه اعطى الفرصة للحكومة للإطاحة بالشيوعيين ، وكانت ضربة قاضية ، ليس للشيوعيين وحدهم ، ولكن للشيوعيين والماركسيين ولكل باب قد تهب منه ريح عاتية .

الرقص على السلالم !





كانت ضربة ساحقة ماحقة - على رأى المعلق عادل شريف - جمعت العاطل على الباطل والشامى على المغربى . أحد المعتقلين كان عاملا ممتازا فى شركة من شركات الغزل والنسيج . كان اسمه أحمد وشهرته اليابانى ، وكان ابن بلد وشهما ومن النوع الذى يضحى من أجل صاحبه وإلى آخر مدى ، ولم يكن اسم اليابانى فى قائمة المعتقلين ، ولكنه فوجىء بأن رئيس نقابته الذى هو صديقه فى نفس الوقت قد ساقوه إلى المعتقل ، وعز على اليابانى أن يعتقل صديقه ، فهو صاحب عيال وصاحب عيا . فذبح فرختين وأخذ شوية بطاطس محمرة وكمية من الطرشى من النوع الذى يحبه صديقه وجاء إلى المباحث وسأل عن صديقه ولكنه لم يعثر عليه هناك واليابانى حدق ويفهمها وهى طايرة ، ولذلك استطاع معرفة مكان المعتقلين من مخبر فى المباحث دردش معه قليلا وعزم عليه بسيجارة ، وسيجارة بعد سيجارة رق له قلب المخبر فأبلغه بالسر ، وهو السر الذى حرصت المباحث على أن تخفيه .

من المخبر عرف اليابانى أن جميع المعتقلين فى سجن القلعة . وخرج اليابانى من المباحث وقفز إلى الأتوبيس ونزل فى ميدان باب الخلق . ومن هناك ركب الترام إلى القلعة ، وراح يصعد الهضبة على قدميه حتى وصل إلى سجن القلعة ، وعندما اقترب من باب السجن شخطوا فيه ونهروه بشدة وأمروه بالابتعاد . ولكن اليابانى رأسه وألف سيف لابد أن يقابل

صديقه ويراه أو على الأقل يتحدث اليه من وراء الجدران ، ولذلك راح يدور ويلف حول السجن مناديا بأعلى صوته على صديقه ، ولفتت الضجة التى اثارها اليابانى أسماع ضابط المعتقل فأمر بالقبض عليه واحضاره وقبضوا عليه بالفعل واحضروه إلى قائد المعتقل . وبعد استجواب قصير قرر اليابانى انه علم باعتقال صديقه رئيس النقابة فذبح الفراخ وقام بتحمير البطاطس واشترى الطرشى وجاء لصديقه بلقمة تسند قلبه فى معتقله الرهيب .

وكان من الممكن أن يأخذ قائد المعتقل الورقة الملفوفة من اليابانى ويتركه إلى حال سبيله ، لولا أن اليابانى ذكر عبارة استوقفت قائد المعتقل ، قال اليابانى أن صديقه لم يرتكب أى جريمة ولم يصنع أى شىء غلط ، وهو يعرفه أكثر من غيره لأنهما يعملان معا طول الوقت ، لأن اليابانى عضو منتخب فى نفس النقابة التى يرأسها صديقه المعتقل .

فى هذه اللحظة ترك قائد المعتقل حجرته واتصل من حجرة أخرى بالمباحث العامة . وبعد عشر دقائق جاءه الأمر باعتقال اليابانى وحجزه فى سجن القلعة ، وتحققت أخيرا أمنية اليابانى فرأى صديقه واجتمع به وعاش معه فى الزنزانة أكثر من ثلاث سنوات ، ولكن الأهم من ذلك أن صديقه أكل من الفراخ البلدى والبطاطس المحمرة والطرشى الذى يحبه ! وقضى اليابانى فترة السجن فى الواحات منشغلا برش الحوش طول النهار . وعندما ساقونا للعمل فى أرض الواحات الخارجة ، كان اليابانى أكثر الناس انهماكا فى العمل ، وأغلب الظن أن اليابانى ابن البلد الشهم لم يفهم كلمة واحدة من الحنجورى الذى كان ينطق به جهابذة الشيوعية المعقدون .. وعلى رأسهم الجهول المتعاظم فهمى حبيب . الذى صار دكتورا واشتغل بالتأليف فى آخر الزمان .

كان هناك أيضا المحامى محمد أبو الفرج ولم يكن شيوعيا فى أى يوم من الأيام ، ولكنه كان صديقا للشيوعيين ومعجبا بنضالهم وكان إذا جمعته السهرة أو القعدة بأصدقاء أو زملاء أو معارف من غير

الشيوعيين ، حاول أن يبدو أمامهم فى صورة الزعيم الشيوعى ولا ستالين ..

وكان يحفظ بعض التعبيرات وبعض الكلمات الحنجورية ، وكان يستعملها بإصرار فى مثل هذه اللقاءات ، وكان هؤلاء المعارف يتصورون أن المحامى أبوالفرج هو زعيم الشيوعية فى مصر ولابد أن هذا الانطباع قد انتقل منهم إلى المباحث ، وساعد أبوالفرج على تثبيت هذه الصورة لدى جهات الأمن ، إذ كان حريصا فى أى مكان ، سواء فى قهوة المحامين بالمحكمة أو فى المقهى الذى يجلس عليه أو حتى فى الأتوبيس الذى يركبه .

كان حريصا إذا تكلم فى أى موضوع أن يبدأ حديثه قائلا : أنا كشيوعى ! وانتقلت معه هذه العادة إلى السجن ، فكان إذا تحدث مع أى أحد نطق بنفس العبارة .. أنا كشيوعى ، مع أن الجميع كانوا يعلمون انه لا شيوعى ولا يحزنون . ولم يفلت المحامى أبو الفرج من لسان العبد لله فأطلقت عليه لقب رئيس الحزب الشيوعى المصرى ، وانكشف الأستاذ أبوالفرج عندما عرضوا عليه الاشتراك فى الحياة العامة بخمسين من مائة من دخله فى السجن (عشرة جنيهات شهريا) فرفض بشدة . ورفض أن يتقاسم معهم السجائر التى يدخنها . ورفض أى تعاون مادى مع الشيوعيين وحرض المستقلين على أن يسلكوا نفس السلوك . وانتهى أبوالفرج نهاية رهيبة فى سجن الواحات ، نبذه الجميع وخاصمه الجميع ، وانزوى أبوالفرج بعيدا واصيب بالذهول ، ولم يعمر طويلا بعد ذلك ، فمات بعد الافراج عنه بقليل .

وكان هناك الدكتور لويس عوض ، وهو ماركسى ولكنه ليس شيوعيا ، وهو أمر طبيعى باعتباره واحدا من ألمع المثقفين العرب ، وقد احتمل الدكتور لويس المحنة بشجاعة ، وكان سجينا نموذجيا ، وقام بتكسير الأحجار فى الجبل بكفاءة ولا كفاءة مجرم من عصابة الخط بتاع الصعيد ، ولكنه فى الوقت نفسه لم يتخل عن كبريائه وشموخه واحساسه بالتفوق .

حدث ذات يوم جمعة ، وهو يوم اجازة فى المعتقل ، أن اقتحم العنبر الذى يقيم فيه لويس عوض أحد الحراس العواجيز ، وبعد أن ألقى نظرة فاحصة على المعتقلين . قال : أنا عاوز واحد متعلم ونبيه ورد لويس عوض على الفور .. أنا ! وقال له الشاويش العجوز وهو يخرج من العنبر .. تعالى ورايا .. وخرج الاثنان معا ، الشاويش فى المقدمة ولويس عوض يمشى وراءه .. وتعلق المعتقلون بنوافذ العنبر . توغل الشاويش فى حوش السجن ومن خلفه لويس عوض حتى وصلا إلى نهاية الحوش تقريبا ، وأنحنى الشاويش على الأرض ونزع غطاء البكابورت ، وكان طافحا بشكل ظهر واضحا للمعتقلين الذين كانوا يختلسون النظر عبر النوافذ . ونظر الشاويش للدكتور لويس عوض باعتباره ولدا نبيها ومتعلما .. وطلب منه تسليك البكابورت الطافح ! وبالفعل شمر لويس عوض عن سواعده وقام بتسليك البكابورت على أكمل وجه ، ولكن المسألة التى لفتت نظر العبد لله هى التصدى للمهمة عندما طلب الشاويش واحدا متعلما ونبيها . هل خطر فى ذهن لويس عوض أنهم كانوا يبحثون عن واحد « متعلم ونبيه » لتسليك البكابورت ؟ أم انه تصور عندما سمع الشروط المطلوبة (متعلم ونبيه) انهم يريدونه لحل مشكلة عويصة فى الجامعة العربية ، لدراسة مشروع جديد فى وزارة الثقافة ؟ انها اهانة لا تغتفر لمثقف مصرى عظيم فى حجم لويس عوض .

ولكن المضحك فى الموضوع أنها لم تكن مقصودة ، فلم تتعمد الحكومة اختيار لويس عوض ، لهذه المهمة ، ولم يكن اختياره نتيجة تدبير من مأمور السجن أو أحد ضباطه ، حتى الشاويش كان بريئا من مؤامرة التدبير . لقد سأل الشاويش سؤالا لم يوجهه إلى أحد بالذات ، وتطوع لويس عوض بترشيح نفسه للمهمة ، باعتباره متعلما ونبيها ، فمن نلوم على موقف مثل هذا قام فيه لويس عوض أحد كبار المثقفين فى عصرنا بتسليك البكابورت باعتباره متعلما ونبيها ! انها مسألة تجعلنا نتساءل عن العلاقة بين البكابورتات والتعليم !

والشيخ محمد عبدالواحد ، لم يكن شيوعيا ولم يكن ماركسيا ، ولكن

مشكلته التى جاءت به إلى السجن انه كان عاملا ورئيسا لنقابة عمال ، وكان نشيطا ومشاغبا وحريصا على مصالح أبناء الطائفة من عمال النسيج ، ومنذ اليوم الأول الذى جاء فيه إلى المعتقل جلس وحيدا منعزلا يقرأ القرآن ، وعندما طالت مدة الاعتقال راح يقرأ الغيب ، وكان يستعين على ذلك بالمصحف الكريم ومسبحة طويلة ومفتاح عثر عليه بالمصادفة أثناء حفره فى رمال الواحات ، والغريب أن الشيخ مجمد عبدالواحد تنبأ بموعد الافراج عن العبد لله وآخرين . وكان منظرا غريبا أن يتصاعد آذان الفجر من عنبر الشيوعيين يرفعه الشيخ محمد عبدالواحد ، وفى وقت مبكر بعض الشيء عن موعد رفع الآذان من عنبر الاخوان المسلمين .

ولم يكن الشيخ محمد عبدالواحد هو الوحيد الذى يرفع آذان الفجر من عنبر الشيوعيين ، كان هناك الرفيق مشرف وهو موظف بالسكة الحديد وغلباوى بعض الشيء ومن عشاق الكلام ، وكان قد اتصل ببعض الشيوعيين بعض الوقت ، ونقل عنهم بعض أدبيات الحنجورى ، وأصابه عوج فى اللسان فصار يتحدث مثلهم ، مع انه فى الحقيقة بينه وبينهم مسافة أوسع من المسافة التى بين المريخ والزهرة . فقد كان حافظا للقرآن ومحبا لسماعه ، وكان يفخر دائما بأنه على علاقة بالشيخ منصور الشامى الدمنهورى . ولكن مصيبته انه تصور أن الحنجورى هى لغة المثقفين ، ويبدو انه اكتسب من خلالها موقعا متميزا بين شلة أصدقائه من موظفى السكة الحديد ، ويبدو أن مشرف تصور ان الشيوعيين فى الطريق إلى السلطة فحاول بكل الطرق أن يبدو وكأنه واحد منهم . ثم جاءت الكارثة ووجد مشرف نفسه حافى القدمين يرتدى ملابس (ميرى) مهلهلة ، والضرب على ودنه ، والاهانات بلا حدود ، عندئذ اتجه مشرف إلى أدواته القديمة ، اعتكف يقرأ القرآن ويؤم المصلين يوم الجمعة ، وكان أول من رفع الآذان فى عنبر الشيوعيين بالواحات الخارجة !

كان هناك أيضا فهد شنودة ، وهو بائع عيش فى مدينة ساحلية ، وكان يغادر منزله كل صباح بعد الفجر يوزع العيش على البيوت ، واستغل الحزب الشيوعى سذاجته وطبيعة مهنته ، فكلفوه بتوزيع المنشورات مع

العيش ، وتصور فهد شنودة انه يؤدى مهمة جليلة ، ولكنه فوجىء ذات صباح بالبوليس يقبض عليه ويلقى به فى المعتقل . كان ذلك فى بداية الثورة وفى عام ١٩٥٣ على وجه التحديد . وكان المعتقل السياسى لايزال يعامل باحترام.وفوجىء شنودة بالمعاملة الكريمة ووجبات الطعام الطيبة ، وكاد يفقد عقله عندما علم انهم خصصوا له ستة جنيهات شهريا تسلم لأهله .. بدل اعتقال . يا لها من مهنة ظريفة ، يجلس عمنا فهد شنودة مستريحا فى معتقله مع عدد من صفوة المثقفين فى مصر ، يلتهم كل يوم كميات لا بأس بها من الفراخ واللحوم وصوانى البقلاوة ، ويدخن ما يوزعه عليه التنظيم من سجاير يوميا ، وهى سجاير متنوعة تبدأ بالبلمونت وتنتهى بالكنت ، وستة جنيهات مضمونة تذهب إلى بيته كل شهر ، ولكن بلهنية العيش لم تستمر كالعادة ، سرعان ما أفرجت عنه الحكومة بعد أن بدأت معركتها مع الاخوان المسلمين .

خرج فهد شنودة واستأنف حياته من جديد يوزع العيش والمنشورات كل صباح . وبحماس أشد ، طالبا من الله أن يعيد اعتقاله ولمدة طويلة فيريح جسمه المكدود ويشبع معدته التى أحرقها الفول والمخلل ، واستجاب الله لدعائه فجاءوا به إلى معتقل الواحات فى عام ١٩٥٩ ، ولكن ما أبعد الصورة وما أعمق الفرق . الحكومة لم تعد تدفع مرتبات ، والطعام يقرف الكلب ، والملابس هراديب ، والأقدام عارية ، والضرب على القفا ، لا تستطيع أن تحدد مصدره ، واعتكف فهد شنودة فى أحد الأركان يقرأ العهد الجديد ويكتب تظلمات للحكومة ، على أساس انه بياع عيش ولا يفهم فى السياسة ، وخرج فهد شنودة من المعتقل فى عام ١٩٦٣ ، ولا أعتقد أن أحدا رآه بعد ذلك ويبدو أنه اكتفى بتوزيع العيش بدون منشورات !

أما أغرب هذه الشخصيات فكان يدعى أحمد عبده ، وكان من سكان الجيزة ، ولكنه ينحدر من أصول ريفية ومن طبقة فقيرة ، وبعض أهله كانوا يعملون بنظام التراحيل ، وكان قد أطلع على كتب الشيوعيين وقرأها ، ولكنه لم ينضم اليهم فى أى وقت ، وكانت التنظيمات الشيوعية

تنظر إليه فى ريبة وفى شك ، وكانوا يشيعون أنه على علاقة بضباط المباحث ، وكان مسلكه يقف إلى جانب هذا الشك ، فقد كان من عادته اقتحام السرادقات العامة والهتاف بشعارات شيوعية ، وكان يجلس على المقهى ويعلن بصوت عال انه من الشيوعيين ، وكان يهدد التجار ويحذرهم بأن يوم حسابهم قادم عما قريب ..

وعندما القوا القبض عليه خلال الحملة الشاملة ، توجس الشيوعيون شرا من وجوده ، وكان كثير الشغب فى معتقل الفيوم ومع ذلك ظل فى الفيوم لم يغادرها قط ، لم يتعرض للموت فى أبو زعبل ، ولم يذق طعم العذاب فى الواحات ، وخرج بعد عامين ليواصل مسلكه نفسه فى شوارع الجيزة ، وعندما قامت ثورة التصحيح انضم لها بكل قوة . وحاول أن يعمل محررا فى جريدة حزب مصر ، ولكنهم فصلوه بعد أسبوعين فانقلب عليها ثم اصابه مرض غامض ، فمات بعد قليل ، مات وحيدا فى غرفته فى بيت متهدم فى حارة كئيبة من حوارى الجيزة ، ولم يعثروا فى الحجرة إلا على عدة كتب وبعض المنشورات وخطاب كان ينوى ارساله للمحافظ لمنحه شقة فى المساكن الشعبية ، باعتباره من أنصار الحكومة ومن أشد المؤيدين لها !!



الفصل السابع عشر

التنظيمات السرية عادة تجتذب اليها المؤمنين بالفكرة الى حد الجنون ، وتجتذب ايضا اصحاب العاهات وضعاف العقول .

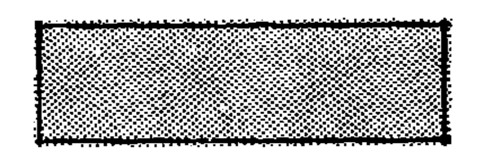
والسرية ـ كما يقولون ـ جلباب يخفى ما تحته ، ولذلك ازدحمت التنظيمات الشيوعية السرية بعباقرة ومجانين ، وعلماء وحمير ، ومثقفين واشباه مثقفين وجهلة اجهل من البعير ، ومن سوء حظ الشيوعية ، او إن شئت الدقة من حسن حظ الشعب المصرى ، ان عددا من هؤلاء الحمير والبعير والمجانين تسللوا الى موقع القيادة ، واصبح منهم القومسيار ومسئول التنظيم ومسئول التثقيف .

الرفيق



إعدام !





هؤلاء كانوا السبب فى تحجيم الحركة الشيوعية وتقزيمها واقصائها عن حركة الجماهير ونبضها . وبعض هؤلاء « القتلة » قتلوا الحركة الشيوعية بحسن نية ، وبعضهم ارتكب جريمته مع الترصد وسبق الاصرار ، الذين قتلوها بحسن نية « قادة » مصريون من امثال فخرى حبيب ، اما الذين قتلوها عن عمد فأغلبهم كانوا يهودا . ومعظمهم كانوا غير مصريين .

وهذه الحقيقة نتيجة مشاهداتى وتجاربى مع الشيوعيين فى الحياة وفى سجن الواحات الخارجة ، كما أنها شهادة زعيم من زعمائهم لا يرقى اليه اى شك ، وهو فى النضال دفع ثمنا باهظا لم يدفعه من الشيوعيين الا قلائل لا يزيدون على عدد اصابع اليد الواحدة .

الزعيم الشيوعى الذى يقصده العبد لله هو مصطفى طيبة ، وهو يعمل بالصحافة الآن وفى مؤسسة اخبار اليوم ، وقد اصدر عدة كتب ضمنها تجربته الطويلة الرهيبة فى التنظيمات الشيوعية المصرية ، والتى ادت به الى قضاء ١٣ عاما متصلة خلف اسوار السجن يقول مصطفى طيبة : انه قبل حرب فلسطين باسابيع وقبل قيام دولة اسرائيل ، اصدر الرفيق يونس وهو الاسم الحركى للمليونير اليهودى هنرى كوريل ، وكان يقود تنظيما شيوعيا سريا يدعى الحركة المصرية ، وكان مصطفى طيبة هو انبغ تلاميذه واخلص اعوانه واقربهم اليه ، اصدر تقريرا وزعه على كوادر

التنظيم ، يتضمن الموافقة على حق اليهود القومى فى تكوين دولتهم على ارض فلسطين ، ووصف التقرير الحرب الدائرة فى فلسطين بأنها صراع بين طليعة مثقفة وتقدمية « اليهود » ضد الرجعية العربية المتعفنة ! ويقول مصطفى طيبة : ان هذا التقرير احدث صدمة فى دوائر الحزب ، وكان السبب فى اعتزال اغلب الكوادر للعمل السياسى واستقالتهم من عضوية التنظيم . يقول مصطفى طيبة : « وفى خلال فترة زمنية قصيرة لم يبق فى صفوف التنظيم من بين ٢٧٠ عاملا فى منطقة شبرا الخيمة الا ٧٠ عاملا فقط لا غير » .

هذا العمى السياسى الذى كان يلوى ذراع الحقيقية لتخدم اهداف الزعماء اليهود فى الحركة الشيوعية المصرية هو الذى ادى الى انفصال الحركة الشيوعية عن بحر الشعب المصرى ! ولم تتوقف حلقات الوكسة السياسية التى ارتكبتها الحركة الشيوعية احيانا بقصد واحيانا بدون قصد ، ولكنها اخذت تتوالى واحدة تلو الأخرى كموج البحر ، فبعد حريق القاهرة بساعات ، اصدر الحزب الشيوعى المصرى منشورا اتهم فيه الوفد والاخوان والاستعمار بالتآمر ضد الشعب المصرى ، وخلع على النحاس باشا وصف المضلل ، واتهم حزب الوفد بأنه حزب البورجوازية الوطنية التى خانت الثورة والقت بعلم الوطنية فى الوحل ، ثم دمغ قيادة الوفد بالخيانة ، هكذا ببساطة وكأن شيئا لم يكن وبراءة الاطفال فى عين الحزب الشيوعى المصرى !

وبعد قيام ثورة ٢٣ يوليو بأيام ، اصدر الحزب الشيوعى منشورا وصف فيه حركة الجيش بأنها « انقلاب عسكرى فاشى جاء ليجر الشعب الى الحرب الثالثة التى يستعد لها المستعمرون ضد الاتحاد السوفيتى وطن الاشتراكية وحصن السلام ونصير الشعوب » !

وفى ذروة خلاف عبد الناصر مع حلف بغداد كتبت « راية الشعب » ان الخائن عبد الناصر دعا الحكومات العربية لاقناعها بدخول الحلف حسب الخطة الاستعمارية الانجليزية !

وعند سفر عبد الناصر الى باندونج ، كتبت « راية الشعب » تقول : ان

الفاشستى المفلس جمال عبد الناصر يبحث عن المجد فى باندونج ! وظلت الاحزاب الشيوعية المصرية على موقفها المعادى لثورة ٢٣ يوليو الى حد رفع شعار « اسقاط الحكومة .. الشريك الاصغر للأستعمار ! » وبعد عام ١٩٦٢ بدأت الحركة الشيوعية تنتقل بسرعة الوعل من خندق معاداة عبد الناصر الى خندق تأييده ، وتدرجت من الاشادة بالنظام الذى يسلك « الطريق اللا رأسمالى للبلاد المستقلة حديثا » حتى انتقلت الحركة الشيوعية عدة خطوات الى الأمام ، فوصفت النظام بأنه استفاد من تجاربه وتجارب الشعوب الصديقة ، وبدأ فى سلوك « طريق التطور الذى يقود فى النهاية الى الاشتراكية » ثم جاءت النهاية الدرامية بالزحف على تنظيم طليعة الاشتراكيين الذى أسسته القيادة السياسية الناصرية بعد ان حل الحزب الشيوعى تنظيمه المستقل !

ويزعم العبد لله ان هذه المسيرة الطويلة من الاخطاء والعثرات لا يمكن ان تكون لوجه الله ، كان وراءها تدبير مقصود ، وكان وراءها ايضا حركات جنونية قام بها بعض الجهلاء وأنصاف المتعلمين وبعض المجانين ، الذين كانوا يبحثون عن دور للزعامة وللقيادة .

وابرز هؤلاء كان « فهمى حبيب » الذى تخصص فى إحداث الانقسامات داخل الحركة الشيوعية والتشنيع على القيادة الاشد صلابة والأفضل نضالا والأقرب الى نبض الشعب المصرى ، وكما حدث مع مصطفى طيبة نفسه ، الذى اتهمه الزعيم العنترى اياه بعد ١٣ عاما خلف الاسوار ، بأنه اتفق مع المباحث العامة على اطلاق سراحه مع وعد منه بالكف عن النضال والابتعاد نهائيا عن صفوف الحركة الشيوعية ! ! ثم عاد الى الاعتذار ، ولكن مصطفى طيبة رفض اعتذاره ، فقد علمته تجربته الطويلة ان الحركة الشيوعية تضم فى صفوفها عشرات من هذا المدعى المخبول .

والحق اقول ان الزعيم الهمشرى اياه كان جهولا للغاية ، فى الوقت الذى كان يعتقد فيه انه عبقرى الجيل وانه مبعوث العناية الالهية لانقاذ مصر ووضعها على الطريق الصحيح .

اما جهله النشيط فكان واضحا للجميع فهو لا يعرف اى شىء عن تاريخ مصر او جغرافيتها ، كما كان مقطوع الصلة تماما بالمجتمع العربى ، ولا يعرف عن جنس العرب الا ما يعرفه الخواجات والمستشرقون ، كل ما كان يعرفه هو كتاب رأس المال الذى حفظه عن ظهر قلب ، وبعض كتب الرفيق لينين التى قرأها ليس للفهم ولكن للحفظ ، اما الأدب فلم يكن على علاقة به من قريب او بعيد ، ولم يقرأ اى شىء له صفة الأدب الا عدة صفحات من رواية الأم التى كتبها مكسيم جوركى ، وفيما عدا ذلك فقد كان يخضع كل شىء واى شىء للنظرية التى يحفظها والقوالب الجامدة التى اعدها سلفا وكان يعتقد انه يملك مفاتيح المعرفة وعنده سر الكون .

اما يوسف إدريس فهو مجرد بورجوازى صغير ، وزكريا الحجاوى مشروع مناضل خان شعبه ، ونجيب محفوظ انتهازى يجيد وصف تفاصيل حياة الطبقة الوسطى المتفسخة . وكان غباؤه يصور له انه قائد تاريخى على نفس المستوى الذى يضم لينين وستالين وتروتسكى .

وكان تحليله المريض يتنبأ بأن الثمرة نضجت وحان قطافها وانه سيصبح رئيسا للدولة خلال السنوات الخمس القادمة ! ولأنه لبس هذا الدور واقتنع به فقد كلف خمسة من اعضاء الحزب بالسعى للحصول على سجاير له ، فإذا تعذر وجود السجاير فلا بأس من جمع الأعقاب لزوم مزاج الزعيم الذى سيقود مصر فى القريب العاجل ! والعجيب انه كان بين الخمسة المكلفين بجمع اعقاب السجاير للزعيم صحفى ومحام ومحترف ثورى ، واثنان من عمال النسيج ! ومن نفس قماشة الزعيم المخبول اياه كان هناك عشرات ، أبرزهم الرفيق ضياء وكان عضو لجنة منطقة . كان متشائما وكئيبا ، ويعتقد اعتقادا جازما بأن الحزب الشيوعى المصرى هو هدف كل اجهزة مخابرات العالم الغربى ، وكان يؤمن ايمانا راسخا بأن المخابرات المركزية والمباحث الفيدرالية والاسطول السادس الأمريكى وسكوتلانديارد والمكتب الثانى الفرنسى كلهم بلا استثناء لا هم لهم الا تعقب خطوات الرفيق ضياء ومحاصرته تمهيدا لتصفيته جسديا حتى

يخلو لهم الجو من بعده ، ولتتولى اخضاع المنطقة العربية ومن صنهاجه الى صنعاء !

فى البداية تصورت ان الرفيق ضياء يمزح او يبالغ ، ولكنى بعد وقت قصير من وصولى الى سجن الواحات تأكدت بأنه جاد جدا وانه يؤمن ايمانا لا يتزعزع بأنه هدف كل اجهزة المخابرات الرجعية . وكان من عادة المرحوم ابراهيم العطار نائب رئيس تنظيم زمش الخروج يوميا من بوابة السجن والتحديق فى الافق البعيد ليكون اول من تقع عيناه على قافلة السيارات القادمة لترحيل المعتقلين الذى تقرر الافراج عنهم . وكنا جميعا نضحك من تصرف ابراهيم العطار ، وفى الوقت نفسه كنا نتمنى من اعماقنا ان تتحقق نبوءته بقرب الافراج عن المعتقلين فى الواحات .

ولكن كل القتلة فى الحزب الشيوعى كانوا ينظرون الى مسلك ابراهيم العطار باحتقار شديد ، وكان الرفيق ضياء هو اشدهم احتقارا لهذا السلوك واكثرهم جرأة على اعلان رأيه .. ويوما بعد يوم تكاثر انصار ابراهيم العطار الذين يذهبون معه كل صباح الى الباب الخارجى والقاء نظرة على الصحراء العريضة لرؤية قافلة الافراج .

كان من بين هؤلاء احمد شوقى الصاعقة وعبد الموجود ابو زيد وعباس الدبيكى ومحمد عبد الواحد ومشرف والعبد لله ، وذات يوم ونحن عائدون من رحلتنا اليومية قرب الباب ، التقينا بالزعيم ضياء يقوم بجولته المعتادة فى الحوش وقد تجهمت اساريره وبان الغضب على وجهه ، وراح ينفخ بشدة وهى عادة عند الزعيم اياه وليست حالة طارئة وسألنا ضياء متهكما :

الأفراج وصل ؟

— ورد عليه ابراهيم العطار :

— الميعاد بكرة ان شاء الله .

— ابقى قابلنى اذا بكرة دا جه .

ووجدناها فرصة لمناقشة الزعيم الهمشرى إياه ، وجلسنا على الأرض وجذبناه بشدة لكى يجلس معنا ، ورحنا نسأله عن سر تشاؤمه وضجره

وقرفه من الناس والحياة .

وانطلق الزعيم الهمشرى يتدفق فى حماس شديد قال وكأنه يقرأ من كتاب مفتوح : الفرق بينى وبينكم أننى ارى المصير واضحا امام عينى ، بينما انتم مصابون بالعمى لا ترون شيئا ، ولا تدركون هول الكارثة التى تنتظر الجميع . انتم تتصورون ان الافراج على الابواب ، بينما نحن فى الحقيقة نخوض المعركة الأخيرة ضد قوى الرجعية والتخلف ، وستنتهى المعركة عما قريب بشنق كل القوى اليسارية والتقدمية والديمقراطية ، وتتخلص القوى العميلة من جميع مشاكلها بضربة واحدة والى الأبد .

ورد عليه ابراهيم العطار بأننا سنخرج من السجن وسيفرج عنا جميعا ، ووعده ابراهيم العطار بزيارته فى المقهى التى يجلس فيها بعد الإفراج . ونظر ضياء نحونا بإشفاق وقال وهو ينهض من مكانه موجها كلامه الى ابراهيم العطار :

ستكون فى اول دفعة من المعتقلين تواجه الاعدام وسيتم ذلك فى القريب العاجل ، وسأرثى لك وأنت معلق على حبل المشنقة !

وابتعد ضياء عنا مسرعا ، ولكننا خرجنا من الحديث بنتيجة لا بأس بها ، وأضفنا الى اسمه لقب اعدام ، وأصبح ضياء اعدام . ورد علينا باضافة كلمة إفراج الى اسم ابراهيم العطار .. فصار ابراهيم إفراج .

ومضت بنا الحياة فى سجن الواحات على هذا النحو ، نحن مع الافراج وهو فى صف الاعدام ، وكانت انباء الافراج التى تصل تذيعها احيانا وكالة واس تثيره بشدة وكان دائم الدخول فى معارك مع الزملاء الذين يشيعون جوا من التفاؤل داخل المعتقل ، ثم مضت الأيام وخرج الجميع الى الحياة العريضة . واجتمع العبد لله فى اجتماع حزبى مع الأخ ضياء . ووقف فى حماس شديد والقى خطبة عصماء ، ووصف الحكومة « الفاشستية العميلة » بأنها حكومة العمال والفلاحين ورائدة الاشتراكية فى الوطن العربى واتهم خصومها بالعمالة والخيانة ، وطالب بالاعدام للجميع !!

نموذج آخر يدعى نوح ، وكان على باب الله عامل سريح يبيع

الخضراوات فى احدى مدن محافظة الشرقية ، وكان اميا لا يجيد القراءة والكتابة ولكنه كان لماحا وشديد الذكاء .

وكان يحفظ عن ظهر قلب بعض العبارات الخنفشارية التى تعلمها من التنظيمات الشيوعية كان يصف الشيوعيين ، المعتدلين بالتيتاوية ويصف غير الشيوعيين بالعملاء . والتنظيمات المعادية لتنظيمه بأن جميع افرادها جواسيس وعملاء للمباحث ، أما « فهمى حبيب » المسئول الأول فى تنظيم نوح ، فهو المعلم والرائد والمدافع الشرس عن حقوق الكادحين ولم يكن يقبل اى نقاش فى هذه البديهيات التى يؤمن بها ! فالناس عنده إما تيتوى واما مباحث واما خائن وعميل . ولم يكن يعلم اى شىء عن مصر أو غير مصر ، ولم يكن يعرف احدا من رجال الثورة إلا ثلاثة : عبد الناصر وعبد الحكيم عامر والراجل بتاع الداخلية زكريا محيى الدين . وكان يعتقد اعتقادا راسخا لاشبهة فيه ان الجيش المصرى يحكم مصر ، بمعنى آخر يتعين على كل مواطن لكى يحصل على حق من حقوقه ، عليه ان يحصل على تأشيرة بالموافقة من احد ضباط الجيش .

وعندما حاولنا تصحيح معلوماته الخاطئة نظر الينا فى غضب وقال : هو إنتو عارفين حاجة ، تعالوا شوفوا البلا اللى إحنا فيه ، ساكن نواحينا واحد ضابط أبوه كان غلبان ، النهاردة عقبالكم عربية بتوديه وعربية بتجيبه ، وكل يوم وهو مروح بيشترى جوافة وعنب وبطيخ !! وكان اذا ضاق بنا وبالمناقشة اسرع الى جردل البول وجلس عليه وراح يقضى حاجته ناشرا روائح كريهة فى جو الزنزانة . فإذا حاول احدنا ان يلفت نظره الى قضاء حاجته فى دورة المياه قبل موعد التمام نظر الى السقف وانهمك فى الغناء ، وكان غناؤه اسوأ بكثير من رائحة فضلاته ، وكان يغنى اغنية واحدة مبتورة ، وبصوت اشبه بصوت البقرة التى على وشك الوضع ، كان صوته غالبا يبعد النوم عن عيون العساكر ، فيهبون من النوم ساخطين لاعنين ابو الأيام التى حكمت عليهم بالمجىء الى سجن الواحات ، حيث لا يوجد شىء فى هذا المنفى البعيد الا تعب القلب ووجع الدماغ !



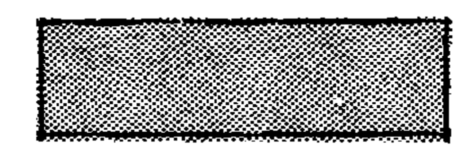
الفصل الثامن عشر

فى ذلك الصباح جاء العساكر وفتحوا ابواب الزنازين كالعادة ، ولكنى لاحظت اختلافا عميقا فى الأسلوب . فتحوا الابواب بلطف غير معهود ، ثم القوا علينا تحية الصباح بشكل مهذب لم نعهده فيهم خلال الشهور الطويلة الماضية ، ولم يدفعونا دفعا الى دورة المياه، ولم يتعجلوا خروجنا للعمل ، واكثر من ذلك منحونا اجازة من العمل فى ذلك اليوم .

مفتى

الديار الشيوعية !





وساد السجن موجة من التخمينات ، وأفتى الزعيم فهمى حبيب بأن السلطة اضطرت تحت الضغط الشعبى والزحف الجماهيرى الى تغيير أسلوب تعاملها مع الشيوعيين وستضطر مرغمة فى الأيام المقبلة الى الافراج عنهم والدخول معهم فى جبهة بعد أن وجدت نفسها فى طريق مسدود بسبب سياستها الخرقاء المعادية لمعسكر اليسار والاشتراكية ، ولكن عرفنا سبب المعاملة الحسنة والسلوك الطيب من جانب ادارة السجن ، وسر منع تشغيلنا فى حمل الرمال وشق المصارف فى الصحراء ، عندما أذاعت وكالة (واس) التى كان يديرها عبدالستار الطويلة أن حادثا مؤسفا وقع فى سجن أبو زعبل أودى بحياة الأستاذ شهدى عطية . وكان المرحوم شهدى عطية أحد المثقفين المصريين القلائل المعروفين على المستوى الدولى . وقد بدأ حياته مدرسا للغة الانجليزية فى المدارس الثانوية . وكان أول مفتش عام للغة الانجليزية بوزارة المعارف بعد تمصير هذه الوظائف . وقد دخل السجن قبل الثورة واعتقل أكثر من مرة ، وعندما اعتقل فى المرة الأخيرة كان أحد قادة تنظيم حدتو ، الذى كان يرى أن عبدالناصر وطنيا يحقق مصلحة الطبقة الوسطى ومصالح الطبقات الدنيا ويعادى معسكر الاستعمار والأحلاف العسكرية .

وكان تنظيم حدتو يختلف اختلافا جوهريا عن الحزب الشيوعى المصرى ، الذى كان يتهم عبدالناصر بالعمالة والرجعية والفاشية ويرفع

شعار الاطاحة به وبحكومته ! ولكن ادارة سجن أبو زعبل لم يكن لديهم الوقت الكافى للتفرقة بين شيوعى وآخر ، ولذلك جاءت ضربتهم فى الموضع الخطأ . وانهالت هراواتهم على رأس المرحوم شهدى عطية ولم تتركه إلا جثة هامدة . وكان الرئيس عبدالناصر فى ذلك الحين فى زيارة ليوجوسلافيا ، وكان يحضر جلسة للبرلمان اليوجوسلافى عندما فوجىء بأحد الأعضاء يدعو المجلس الى الوقوف دقيقة حدادا على المناضل شهدى عطية الذى سقط شهيدا فى أحد السجون المصرية . وفى المساء .. طلب عبدالناصر تقريرا عاجلا عما حدث فى سجن أبو زعبل ، ثم طالب بالتحقيق الفورى مع المسئولين عن الحادث ، ثم انتهى التحقيق بطرد مصطفى عشوب مدير المباحث العامة فرع القاهرة ، واحالة المسئول عن معتقل أبو زعبل الى الاستيداع ، وتوقفت على الفور كل الاجراءات الاستثنائية فى المعتقلات الشيوعية . كما تقرر تصفية معتقل أبو زعبل ونقل جميع المعتقلين الى سجن الواحات تحت سيطرة المأمور فريد شنيشن ، الذى فرض النظام على السجن ولم يرتكب جريمة واحدة .. وبدأت الحياة تصفو داخل المعتقل ، وطرأ تحسن خفيف على أنواع الطعام التى يقدمها السجن ، خصوصا فى الخبز .

عاد الشيوعيون الى عقد المؤتمرات ومناقشة الأحوال خارج الأسوار ، واحتدم الصراع بين المنظمات الشيوعية ، وجرت عمليات انتقال للأفراد من تنظيم الى آخر ، وكان الربيع فى أوجه ونسائمه تذكرنى بروعة الحياة فى ريف مصر ، وسألت الله أن يخرجنا من هذا القبر الذى انحشرنا فيه ، وتمنيت أن تسمح لنا ادارة السجن بمغادرة الزنازين ليلا لكى نعيش ليل الواحات فى ذلك الجو الرائع . ولكنى سرعان مانسيت كل شىء واندمجت فى جو السجن من جديد ، وساعدنى على ذلك سلسلة المحاضرات القيمة التى كان يلقيها بعض المعتقلين أصحاب الخبرة والعلم ، وقد استفدت كثيرا من محاضرات قيمة للغاية للأستاذ أديب ديمترى والأستاذ فايق فريد والاستاذ اسعد حبيب والاستاذ على الشلقانى والمرحوم محمود المانسترلى ، الذى كشف فى محاضراته القيمة عن دوره فى تنظيم الضباط

الأحرار وعن سبب خلافه مع قادة الثورة . وكانت هذه المحاضرة سببا فى وقوفى على حقائق جديدة كنت أجهلها عن ثورة ٢٣ يوليو ، كما كانت سببا أيضا فى أننى ظللت أحمل تقديرا كبيرا للمرحوم المانسترلى ، فقد كان يستطيع - لو أراد - أن يصل الى أعلى المناصب وأن يحظى بصولجان السلطة وينعم بكل أبهتها ، ولكنه آثر أن يقول رأيه وتحمل نتيجة هذا الموقف سجنا وتعذيبا وتشريدا وبقاء فى الظل حتى مات يرحمه الله .

وكما فى أفلام السينما تقع الكوارث عندما يشعر البطل بأنه صار فى أمان . ويأتى الفرج عندما يتصور البطل أن كل الأبواب أغلقت وكل المنافذ سدت وكل الأنوار أطفئت . عندما علمت أن المعتقلين فى أبو زعبل فى طريقهم الى الواحات ، تصورت أننا سنقضى العمر كله هناك ، وطبيعى أن تتحسن المعاملة مادامت الاقامة ستطول . وانتابنى غم شديد ، فقد كنت فى الواحدة والثلاثين يوم اعتقالى وهأنذا الآن على أبواب الثالثة والثلاثين والنظام فى القاهرة يبدو قويا وعفيا ، ورجال الثورة جميعا فى سن الشباب ، وسنموت قبلهم لامحالة .

عندما عششت فى مخى هذه الفكرة البائسة ، حدث مالم يكن فى الحسبان . وصل قطار الواحات فى الخامسة مساء ونزل منه خمسة عشر جنديا وأربعة ضباط بينهم ضابط عظيم برتبة عقيد ، وعندما وصلوا الى بوابة السجن ، انطلقت الصفافير ، وانتشر الحراس فى الفناء وداخل العنبر يحشرون المعتقلين داخل الزنازين . ولم تلبث الأنباء أن وصلت الى العنبر بأن الحملة جاءت ومعها كشف من تسعة أسماء سيتم ترحيلهم فى الغد ، وأفتى الزعيم فهمى حبيب وعلى الفور بأن التسعة المطلوبين من زعماء الحزب الشيوعى المصرى ، وسرح بخياله بعيدا فحدد أسماء التسعة ووضع اسمه على رؤس قائمة الزعماء المطلوبين . وأفتى الرفيق فهمى حبيب بأن النظام بدأ فى تنفيذ الخطوات الفعلية لتصفية المعتقل ، وأنه سيبدأ بقتل الزعماء ، وهؤلاء التسعة هم طليعة الشهداء . ولم يخجل الزعيم الهمشرى فهمى حبيب عندما فتحوا العنبر فى التاسعة مساء وبدأوا فى تلاوة أسماء المطلوبين .

كان أول اسم فى القائمة هو اسم الحاج محمد عبدالواحد زعيم نقابة الغزل والنسيج بكفر الدوار ، وكان الاسم الثانى هو اسم أحمد شوقى الصاعقة مسئول الأمن الغذائى فى تنظيم زمش وكان اخر اسم فى الكشف هو اسم العبدلله ، وسرت فى أنحاء العنبر نسمة تفاؤل ، فهى نقطة بداية لتصفية المعتقل وقد بدأت الرحلة بالافراج عن العناصر الأقل خطورة ، وهو وضع طبيعى يبشر بالخير . والتف الرفاق حولنا يزفون الينا التهنئة ويتمنون لنا حياة سعيدة خارج الأسوار . ولكن الزعيم فهمى حبيب والرفيق نور اعدام وواحد اسمه عبدالله شامل كان مسئول التنظيم فى الحزب الشيوعى ، كان هؤلاء الثلاثة كأنهم فى مأتم ، وحزنوا حزن غرائب الابل ، لأن جميع تحليلاتهم طلعت على فاشوش . وانتاب العبد لله نوع من الذهول ، لأننى كنت بالرغم من تفاؤلى الظاهرى ، كنت شديد التشاؤم فى داخلى ، وكان لدى احساس عميق بأننى لن أرى شوارع القاهرة مرة أخرى ولن تكتب لى العودة الى المنزل فى يوم من الأيام .

وكان يؤرقنى هاجس سيطر على تفكيرى طويلا ، أن ينتابنى مرض خطير فأتوفى بسببه الى رحمة الله ، أو يلدغنى ثعبان طريشة فأنتقل الى الدار الآخرة . والموت حق . وهو لايخيف العبد لله لأننا جميعا سنذوقه ، ولكن الذى كان يخيفنى حقا هو أن تدفن جثتى فى الواحات الخارجة ، فلا يزور قبرى أحد ولايمر به انسان . ولذلك عندما سمعت اسمى يردده الضابط انخلع قلبى وطار عقلى شعاعا ورحت أعدو كالمجنون من جانب الى جانب آخر . وصراخى يسبقنى بكلام ليس له معنى ، ولكنى أذكر أننى رددت فى سياق هذه الهلوسة التى انتابتنى أسماء فهمى حبيب وضياء اعدام .

كان ابراهيم العطار هو أكثر الناس ابتهاجا بما حدث مع أنه لم يكن ضمن كشف الافراج . وتوقعنا لأنفسنا سهرة طيبة داخل العنبر حيث سيحتفل بنا الرفاق ، خصوصا رفاقنا فى زمش وفى حدتو ومن أعضاء الحزب الشيوعى المصرى الذين لايؤمنون بالتحليلات الغبية لأخينا فهمى حبيب ، ولكن فرحتنا لم تدم ، فقد دخل العنبر فجأة الضابط عثمان

وأبلغنا بأننا لن ننام الليلة فى العنبر ولكن فى خيمة نصبت لنا خصيصا فى فناء السجن ، لأننا سوف نستيقظ فى الرابعة صباحا لكى نلحق بالقطار الذى سيغادر الواحات فى الخامسة صباحا . وشعرت بالحزن لأننا سنحرم من قضاء الليلة الأخيرة مع بقية الرفاق ، ولكننا نفذنا الأمر بالطبع ، بعد أن طفت على أعضاء زمش وودعتهم جميعا فردا فردا ، ثم أصدرت قرارا بتعيين ابراهيم العطار خلفا للعبد الله لزعامة تنظيم زمش .

قبل أن أغادر العنبر للمرة الأخيرة ، لمحت محمود المانسترلى وسيد عبدالله يسرعان نحوى ، وكنت أحترم الاثنين وأشعر نحوهما بود عميق ، فتلقيتهما بالأحضان ، وهنأنى المانسترلى ثم قال لى بود عميق : لى عندك رجاء أتمنى أن تحققه لى . وقال سيد عبدالله : وأنا أيضا أضم صوتى الى صوت الرفيق محمود . وأصغيت باهتمام شديد الى محمود المانسترلى ، فهمس لى وعلى وجهه البشوش ابتسامة طيبة .. أرجوك يا محمود .. لاتشنع علينا فى الخارج . قلت للمانسترلى ضاحكا .. دا طلب صعب قوى ياعم محمود . فأجاب محمود والابتسامة لاتفارق شفتيه .. أنا لست معتوها لكى أطلب منك عدم التشنيع مدى الحياة ولكنى اطلب منك عدم التشنيع علينا أثناء وجودنا خلف الأسوار . قلت له جادا .. هذا الطلب مقبول وسأنفذه لك . ولكن بعد الافراج عنكم قريبا بإذن الله ، سيصبح التشنيع على الكيف يا عم محمود . ورد المانسترلى وسيد عبدالله فى وقت واحد .. اتفقنا ..

خرجنا الى الحوش وكنا فى التاسعة مساء على وجه التقريب ، والجو رائع والطقس بديع والبدر يتوسط السماء ، ووقفت كالمذهول أتأمل المنظر وكأن بصرى لم يقع على الطبيعة من قبل . واستولى على شعور غريب هو مزيج من الدهشة والفرحة والرغبة فى البكاء . السكون الذى يلفنا ليس له مثيل فى أى مكان ، فلا توجد هنا ضفادع ولا حتى حشرات ، ومنظر الصحراء الممتدة الى آخر الدنيا يجعل الخيال يشطح فى كل اتجاه .

ولكن سرعان ما تبدد السكون وأقبل علينا الضابط عثمان وبصحبته أحد الصولات وموظف يحمل عدة دفاتر وجندى عجوز يبدو أنه نهض لتوه

من النوم . وفتح الموظف دفاتره ووزع على كل منا قيمة الأمانات التى كانت له ولم تسلم اليه على مدى أربعة عشر شهرا . كان للعبد لله مائة وأربعون جنيها وتسعة جنيهات وعدة قروش ، تسلمت منها مائة وأربعين جنيها فقط ، ثم اعتذروا لعدم وجود فكة لديهم ، وأعطونى بثمنها مأكولات وعلب محفوظة من الكانتين . وفعلوا نفس الشىء مع الآخرين .

ولما كنا فى طريقنا الى الحرية ، فلم نكن فى حاجة الى هذه المأكولات . فاستأذنت الضابط عثمان أن نترك مامعنا من مأكولات للمعتقلين ، ولكنه اعتذر لأن الأوامر صريحة ، المهم ، توسلت للضابط عثمان أن يعفينا من حمل هذه الأثقال ويسمح لنا بمنحها هدية منا للعساكر .. ولكنه رفض ! طلبت منه أن نعطيها للمساجين فى قضايا جنائية ، وفكر قليلا ثم وافق . طلبت منه أن يستدعى المسجون عاشور لكى نسلمه هذه المأكولات .

كان عاشور هو أشرف مسجون فى سجن الواحات ، وكان قد حكم عليه بالسجن المؤبد لقتله جنديا انجليزيا فى منطقة القناة . صحيح أنه حرامى . ولكنه حرامى معسكرات ، وهو اضطر الى قتل العسكرى عندما ألقى القبض عليه وهو داخل المعسكر ، ولكن الذى حدث بعد ذلك أن عبدالناصر أصدر قرارا جمهوريا بالافراج عن المحبوسين فى جرائم ضد قوات الاحتلال .. باعتبار أن جريمة الاحتلال تجب كل الجرائم . وخرج من السجون عدة مئات ، ولكن عاشور وحده هو الذى تركوه خلف الأسوار . والسبب أن عاشور ارتكب جريمة داخل السجن ، عندما قتل أحد الحراس بسبب غبائه ورغبته الشديدة فى تعذيب المساجين . وحدث فى سجن الواحات أن اعتدى بالضرب على حارس آخر وأصابه بارتجاج فى المخ . وقد صدر ضده الحكم بالجلد . ونقلوه من عنبر المساجين الى عنبر المعتقلين وحبسوه فى زنزانة انفرادية لايفتح بابها الا لتسلمه الطعام والشراب .

حدث فى تلك الأثناء وهو محبوس حبسا انفراديا لايرى فيه الشمس ولا ضوء النهار ، اننى أثناء مرورى بالزنزانة أجريت معه حديثا من وراء الباب وعرفت أنه من الاسماعيلية وعلى علاقة ببعض الذين أعرفهم هناك .

ثم بعد أن انتهى الحديث القيت له بعلبة سجاير من خلال قضبان الباب . ثم قمت بنفس الشيء عدة مرات خلال الشهر الذى قضاه فى زنزانة التأديب . وعندما أعادوه الى عنبره أصر على مقابلتى ليشكرنى بحرارة . وعندما تدهورت أحوالنا فى المعتقل ، رد عاشور الواجب بصورة مضاعفة ، فمدنا بالسجاير والطعام . وكان اعطاؤه مامعنا من مأكولات هو رد لجميله الذى لاأنساه .

جاء عاشور الى الفناء والدنيا بين الليل والنهار . وعندما رآنى ارتدى البدلة الملكى لم يتعرف على العبد لله وظن أننى أحد رجال الشرطة فعظمنى بحرارة ونادانى بسعادة الباشا . ولما عرفته بنفسى بكى من شدة الفرح وهتف قائلا : الحمد لله اللى فك سجنك .. وعندما أعطيته مامعنا من مأكولات . بكى مرة أخرى وأصر على أن يذهب معنا الى المحطة . ولكن الصاغ عثمان رفض طلبه بالطبع واعاده من حيث جاء .

ركبنا قطار الواحات بشكل لايبشر بخير . كل معتقل منا مربوط في حديد مع عسكرى ، والضباط الأربعة أحاطوا موكبنا بشكل يدل على أننا لايمكن أن نكون فى الطريق إلى الافراج . وبقية العساكر اختبروا أسلحتهم ووقفوا يحرسون أبواب العربة التى نجلس فيها .

عندما وصلنا إلى محطة أبو طشت تأكد للعبد لله اننا فى طريقنا إلى الاعدام . كان أكثر من مائة عسكرى يحتلون المحطة وكلهم مسلحون بالمدافع الرشاشة والبنادق السريعة الطلقات . وعندما جاء القطار الذى سيحملنا إلى القاهرة منعوا المسافرين من الاقتراب من العربة التى سنركبها ووضعونا فى أول عربة خلف القاطرة ، وهى من عربات الدرجة الأولى . وعلى طول الطريق كانت الحراسة مشددة فى جميع المحطات التى مر بها القطار ، حتى المحطات التى لم يتوقف القطار بها . أما المحطات التى توقفنا بها فكانت أشبه بميدان حرب : عساكر مسلحون وضباط يحملون المسدسات فى أيديهم والقوة كلها تحت قيادة لواء .

وفى محطة أسيوط حدث فصل مضحك رغم الظروف البائسة .. دخل العربة لواء جيش صرخ عندما وقع بصره علينا فقد كان منظرنا لايسر

عدوا ولا حبيبا .. ملابس مهلهلة كانت مركونة فى المخزن لمدة ١٤ شهرا وأحذية معطوبة ومجروحة ووسخة إلى الحد الذى يجعل من يراها يتصور أن صاحبها قضى شهرا على الأقل يخوض فى منطقة مستنقعات .

المهم أن اللواء صرخ فينا يأمرنا بالخروج على الفور . لقد تصور الرجل الطيب أننا مجرمون من عصابة فى الجبل الغربى . ولكن الضابط المسئول جاء على عجل وهمس فى أذن اللواء بعدة كلمات غادر على أثرها العربة وانتقل إلى عربة أخرى .

عندما غادرنا القطار فى فجر اليوم التالى بمحطة الجيزة ، كانت المحطة والساحة الممتدة أمامها تبدو كأنها ميدان حرب . عساكر من بلوكات النظام وعساكر درجة أولى ، وعربات نجدة وعربات شرطة ومدافع وبنادق على كل لون . وسارت بنا سيارة شرطة من النوع الذى يستخدم فى نقل العساكر ، وأمامنا وخلفنا سيارات حراسة من كل الأنواع . واخترقت شوارع الجيزة . وعندما وصلنا إلى ميدان الجيزة ، حاولت أن ألقى نظرة عليه ولكنى فشلت . فقد كان الجزء المفتوح من السيارة مسدودا تماما بعساكر الحراسة . وأخيرا توقفت بنا السيارة أمام سجن القلعة . ونزلنا من السيارة ونحن فى شوق إلى دخول السجن لكى نشرب شايا ونستريح . ولكن مأمور السجن رفض تسلمنا لأنه ليس لديه أوامر بذلك وجلسنا على دكة أمام باب السجن ، وبعد اتصالات أجراها المأمور مع المباحث العامة عدنا إلى السيارة من جديد فى طريقنا إلى معتقل الفيوم .

عندما وصلنا إلى معتقل الفيوم وجدنا الضابط العيسوى فى استقبالنا . كان قد تغير كثيرا ، ويبدو أنه تغير لأن الأوامر تغيرت . ! استقبلنا بود وعاملنا بلطف شديد . وكان المعتقل قد تغير أيضا . فلا شتائم ولا تعذيب ، والأبواب مفتوحة طوال النهار . والمعتقل حر يخرج ويدخل على كيفه ، واكتشفنا وجود بعض المعتقلين لم يغادروا الفيوم فى أى وقت . منهم المعتقل أبو حليقة والدكتور محمد الخفيف . ولما كان مسموحا بممارسة الرياضة ، فقد انضمت على الفور إلى فريق كرة القدم . وبدا أن الحياة ستبتسم للعبد لله من جديد !

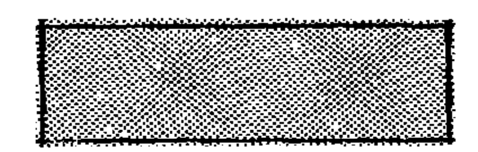
الفصل التاسع عشر

كانت القعدة فى معتقل الفيوم بمثابة اجازة سعيدة بعد فترة التعذيب الطويلة التى قضيناها بمعتقل العزب بالواحات الخارجة . كان بالمعتقل الدكتور محمد الخفيف المشرف على طابور الصباح .

والجماهير

آه يانى !





وكان يحلو له معاملة المعتقلين الذين يؤدون التمارين الصباحية بنفس الاسلوب الذى كان يعاملهم به الشاويش محمد غطاس فى الفترة الاولى من المعتقل . وكنا نداعب الدكتور الخفيف بالاضراب عن طابور الصباح ، واحيانا كنا نهتف بسقوطه وسقوط غطاس .

كان غطاس الذى فقد نفوذه وفقد دخله الوفير الذى كان يحققه عن طريق فرض الجزية على المعتقلين والا تعرضوا للهلاك على يديه ، قد مارس اضرابا صامتا عن العمل ، فكان يقضى النهار كله على مقعد بجوار دورة المياه لاعنا الزمن النكد الذى أوقف عملية التعذيب ضد المعتقلين . وكان ينفخ أحيانا من شدة الضيق اذا مر به بعض المعتقلين وهم يلقون النكت ويضحكون . وكان احيانا لا يستطيع السيطرة على اعصابه ، فيهتف وكأنه يحدث نفسه .. اتفو على دا زمن ..

وبعد طابور الصباح والتجول فى فناء المعتقل نقوم بزيارة بعض المعتقلين من الاصدقاء فى العنابر البعيدة ، ثم نعود إلى عنبر (١) لتناول طعام الغداء .. كنت اتناول طعام الغداء مع شوقى الصاعقة ، وكان يعد الطعام لنا زميل ماركسى دخل المعتقل من أجل طبقة واحدة تسود المجتمع كله وتقود المسيرة الى الجنة الموعودة حيث لا سيد ولا طباخ ! ولم نكن وحدنا الذين اتاحت لنا الظروف طباخا ماركسيا يعد اطايب الطعام بشرط ان نوفر له جميع المواد الخام التى تحتاجها مائدة عامرة بكل ما لذ وطاب .

كان ينضم الينا على مائدة الغداء المعتقل إبراهيم ابوحليقة .. وكان يحضر معه طعامه الذى طبخه زميل شيوعى اسمه أحمد فازيكا . وكان الدكتور محمد الخفيف يشاركنا الطعام ايضا بعد ان يحضر معه الوانا شتى من الاطعمة طبخها زميل ماركسى ثالث اسمه سعفان . كنا نحن البهوات المعتقلين نجلس على مائدة واحدة نتناول الطعام ، وفى الناحية الاخرى من العنبر يجلس الطباخون المعتقلون يتناولون الطعام ويثرثرون بأحاديث عن رأس المال وفائض القيمة والتناقض بين الثورة والدولة !

اغرب شىء أن التيار الذى يدعو الى عالم بلا طبقات وسيق افراده زرافات الى المعتقل ، لم يستطع ان يخلق هذا العالم خلف الاسوار ، لقد انقسمنا فى معتقل الفيوم الى يساريين بهوات ويساريين اجراء . كان معنا نقود ولم يكن معهم شىء فاشتغلوا فى خدمتنا لكى يضمنوا الطعام والسجاير والشاى ، يالها من صورة مضحكة ولكنه ضحك كالبكاء ، وسمعنا ونحن فى الفيوم ان التليفزيون المصرى بدا ارساله وان نظام الحكم المحلى قد بدأ تطبيقه ، وان هناك حركة تعمير كبرى تجرى على قدم وساق فى مختلف المحافظات .

وأكد لنا معتقل حديث ان ملامح المجتمع الجديد بدأت تظهر بوضوح وان هناك حالة من الازدهار والاستقرار آخذة فى النمو والانتشار فى كل انحاء البلاد وعلى جميع المستويات . ولكن بعض الزملاء المعتقلين هبطوا على معتقل الفيوم قادمين من الواحات قرروا ان النظام فى احتضار وان الجماهير الشعبية غاضبة وان الثورة الشعبية على الابواب !!

إذن لا تزال نظرية عبدالستار الطويلة هى السائدة فى الحزب الشيوعى المصرى وهى النظرية التى افصح عنها عبدالستار الطويلة حين سألته عن الطريقة التى ستخرج بها من المعتقل فأجاب بثقة شديدة .. سنخرج بزحف جماهيرى يحطم اسوار المعتقل ويأخذنا على الاعناق الى الحرية والى السلطة والى حيث يجب ان نكون !

واذكر اننى يومها القيت نظرة على الخارج من خلال نافذة السجن ثم

صحت فى وجه عبدالستار .. لا أثر هناك لأى زحف جماهيرى ، العساكر فقط هم الذين يزحفون !

ومرت الايام بنا بطيئة فى معتقل الفيوم ولكنها مرت فى هدوء وهزتنا من الاعماق اغنية جديدة للعندليب عبدالحليم حافظ (ع الشوك مشانى زمانى) ولم يكن الزمان فى الحقيقة هو الذى مشى بنا على الشوك ولكنه التحليل الخاطىء للحزب الشيوعى المصرى والذى ادى بالحزب الى الانضمام لجانب عبدالكريم قاسم بحماس وبجنون والوقوف ضد عبدالناصر بنفس الحماس والجنون ايضا .. وعلى اساس ان عبدالكريم قاسم هو ممثل اليسار العربى ضد عبدالناصر (الفاشستى الصغير وعميل المخابرات الامريكية) وليس أدل على الطفولة السياسية التى كانت طابع الحزب الشيوعى المصرى انه فى الوقت الذى كان الحزب يؤيد فيه عبدالكريم قاسم ، كانت السلطة فى بغداد تعادى الجميع .. رجعيين ووطنيين وقوميين وشيوعيين .

كانت سجون بغداد والموصل والبصرة تضيق بألوف النزلاء السياسيين من جميع الاتجاهات ولكن .. اخطر سلبيات الحزب الشيوعى المصرى انه لم يكن لديه معلومات الا المعلومات التى يحصل عليها من الرفاق فى الحزب الشيوعى العراقى والحزب الشيوعى السورى ايضا . واخطر شىء فى السياسة ان نشتغل بها بدون معلومات حقيقية ولكن مشكلة المعلومات لم تكن فى دائرة اهتمام الحزب الشيوعى المصرى ، وهذا هو السبب الحقيقى وراء الاحكام الخنفشارية التى اصدرها الحزب الشيوعى وآمن بها فترة من الزمان ، فالزعيم عبدالناصر عميل امريكى .. كده وبس ! والنظام المصرى فاشستى .. ممنوع الاعتراض ! ونظام عبدالكريم قاسم بالعراق هو الذى سيملأ الارض زهورا وورودا وسيفجر الارض بالعسل والسمن واللبن الحليب .. ومفيش مناقشة ! وهو الاسلوب الذى ادى بالحزب الى اتهام ماركسى مصرى هو الاستاذ فيليب جلاب ـ وهو بالتأكيد من اشرف من عرفتهم فى حياتى ـ اتهمه الحزب بأنه

جاسوس للمباحث العامة ، والسبب ان عملية القبض عليه تأخرت بعض الوقت .

كان الاستاذ فيليب قد تمكن من الهرب والاختفاء عدة اشهر قبل ان تصل اليه يد الشرطة وتأتى به الى المعتقل ! كان اغلب الشيوعيين الذين استقروا فى معتقل الفيوم ولم يغادروه إلى أى معتقل آخر .. كانوا من النوع مكسور الجناح وكان بعضهم على علاقة ببعض اصحاب النفوذ فأبقوهم فى الفيوم وانقذوهم من الموت فى ابو زعبل ومن العذاب الشديد فى الواحات ، وكانت قلة قليلة منهم على علاقة بأجهزة الامن قبل المعتقل وبعده .. من بين هؤلاء المدعو أحمد عبده الذى كان يحرص على ان يبدو متطرفا اكثر من لينين نفسه .. وكان يتعمد جرجرة الاخرين الى النقاش حول النظام المصرى ، وكان واضحا انه يريد الايقاع ببعض المعتقل ولكن محاولاته كانت مكشوفة ولذلك كان اغلب نزلاء العنبر ينامون او يتناومون عندما يبدأ احمد عبده المناقشة !

ولكن رغم تشاؤم الحزب الشيوعى واصراره على الاطاحة بالنظام كانت هناك بعض الاشارات التى تدل على ان الازمة فى طريقها الى الانفراج ، فقد اخذت كلمة التعاونية تتردد على ألسنة بعض المسئولين من الصف الثانى . كما وصلت إلينا أخبار من سجن الواحات بان ضابطا كبيرا فى جهاز المخابرات اجتمع أخيرا مع بعض قادة التنظيمات الشيوعية بالواحات وابلغهم بعد مناقشة طويلة ان الافراج عن المعتقلين الشيوعيين تقرر بصفة مؤكدة ، وان المسألة مسألة وقت .

حدث ايضا ان دخل معتقل الفيوم ضابط مباحث والقى كلمة قصيرة فى المعتقلين ، اعلن فيها أن لديه اوامر بنقل المرضى بأمراض خطيرة إلى المستشفيات . ووجدها العبدلله فرصة فادعيت اننى مريض بالسل ولم اكن مريضا بالسل ولا حتى بالانفلونزا ولكننى كنت اطمع فى الخروج من المعتقل والبقاء فى احد المستشفيات . وبالفعل نقلونا ذات صباح فى سيارة لورى بمقاعد مكسوة بالقماش وذهبوا بنا الى مستشفى الفيوم العام وهو مستشفى لأن على بابه يافطة تشير الى ذلك ، وبعد ان كشفوا طبيا على

صدورنا وعلى قلوبنا عادوا بنا فى العصر الى المعتقل،ولكننى مازلت اتذكر هذا اليوم واعتبره من اجمل ايام حياتى . فهذا هو الشارع وهذا هو الاسفلت بعد غيبة طويلة وراء الاسوار . وواحد بتاع خيار واقف على الناصية يغنى بصوت ولا صوت محمد طه .. ياخيار ياقشة يابتاع الجنانين يالوبيا .. تمنيت فى لحظتها ان اكون بائع خيار سريحا اتجول فى الشوارع واتوقف عند النواصى واطلب واحد شاى وكرسى معسل من أى مقهى يصادفنى ولو كان فى عشة صفيح ..

وها هو ذا الشعب المصرى الذى ينتظر الشيوعيون زحفة المقدس ليحملهم على الاعناق الى الحرية والسلطة ، هاهو الشعب المصرى .. ولا هو هنا ! كل انسان مشغول بنفسه ومهموم بحاله .. والحوار الذى يشغل وقت الناس هو سعر التليفزيون وحجمه وماركته والراديوهات مفتوحة على الاخر فى الدكاكين وفى المنازل والاغانى لعبدالحليم وام كلثوم وفريد تتصاعد من حولنا فى الجو . والدنيا ربيع والجو بديع وقفلى على كل المواضيع !

حدث فى مستشفى الفيوم ان سألنى احد المرضين العجائز عندما دخلت غرفة الاشعة .. انت قطعت تذكرة ؟ فلما اجبته بالنفى ، قال بسخرية .. ليه ؟ انت على رأسك ريشة .. فلما ابلغته باننى لا املك نقودا قال فى دهشة .. افندى وما معكش فلوس ! اخيرا اخبرته باننى نزيل فى معتقل العزب بالفيوم .. فنظر نحوى نظرة طويلة وقال .. انتوا لسة قاعدين هناك ؟ علشان كدة الحشيش سعره ولع ! فقد تصور المرض اننى تاجر مخدرات ، فقد كان معتقل العزب بالفيوم ولسنوات طويلة سجنا لتجار المخدرات الذين لم يصدر ضدهم احكام لحرصهم الشديد ولعدم وجود ادلة ضدهم .. والفيوم كلها كانت تعلم عن وجود هذا المعتقل وعن هوية المعتقلين الذين يوجدون فيه .

لا حول ولا قوة الا بالله ، تعليق الممرض دليل على ان شعب الفيوم لم يسمع ان وظيفة المعتقل تغيرت وتغيرت ايضا صفة النزلاء المقيمين فيه ، هذا هو السر اذن وراء تأخر الزحف الجماهيرى للافراج عن الشيوعيين ،

فالناس لم تعلم بعد ان الشيوعيين فى المعتقل ولو عرفوا لبدأوا الزحف المقدس فى الساعات المبكرة من الصباح للافراج عن الرفاق المناضلين !!

قضيت تلك الليلة ساهرا على فراشى بالمعتقل . انتابتنى مشاعر شتى هى مزيج من السعادة لرؤية الشارع واختلاطى بالناس مع مشاعر الاحباط الشديدة لاننى كنت متصورا ان اعتقالنا يمثل ازمة ولو صغيرة للحكومة وان قضيتنا تحتاج لمكان ولو متواضعا فى هموم الشعب ، ولكن ها هى ذى رحلة المستشفى تثبت للعبدلله إننا لا فى العير ولا فى النفير ، وان اعتقالنا لا يشغل احدا الا اهالى المعتقلين .

ياله من شعور بالاحباط القاتل عندما تدرك انك مجرد نملة على الطريق ، اين هى الجماهير الكادحة وقد رايتها تكدح بالفعل ولكن على اكل عيشها وتقاتل من أجل لقمة العيال وهى فى النهاية سعيدة لانها عثرت على عمل وعلى شقة وعلى تليفزيون مقاس ١٢ بوصة .. ولكنه احسن من ما فيش .

يالها من ليلة طويلة لم يغمض للعبدلله فيها جفن الا مع اشراقة الصباح !

الفصل العشرون

وجاءنا نبأ تأميم الصحافة ونحن فى معتقل الفيوم . ولكن كيف يكون تأميم الصحافة ؟ قال واحد من دراويش الماركسية وزميل معتقل الفيوم فى الوقت نفسه : إن الحكومة لم تؤمم الصحافة ولكنها أممت الرأى .. وإن العصابة الفاشيستية أسفرت عن حقيقتها بهذه الخطوة التى ليس لها مثيل فى التاريخ ..

المأمـــور والشـــاعر !



لم يشغل للعبدالله هذا التفسير الخنفشارى للزميل اياه ، خصوصا اننى بعد يومين فقط اكتشفت ان هذا التحليل من وضع المحللاتى فهمى حبيب اكبر حمار انجبته أمة آدم ؟

ولكن الذى شغل بال العبدالله هو موقف امثالنا بعد التأميم . لقد كنت أعمل قبل المعتقل سكرتيرا لتجرير روزاليوسف . وهى قطاع خاص وصاحبة المجلة السيدة روز اليوسف هى التى تدير كل الامور .. تحريرية ومالية . فما هو الوضع بعد التأميم ؟ هل نعود لاعمالنا فى حالة الافراج عنا ؟ وصرفت ذهنى عن التفكير فى هذا الأمر حتى لا أكون مثل صاحبنا الذى باع جلد الدب قبل صيده . فالمهم ان يفرج عنا أولا ثم بعد ذلك .. فليكن ما يكون .

والحق اقول .. ان الذى صرف عن ذهنى هذه المشكلة وغيرها من المشاكل هو تسرب انباء العبدالله عن مرض ابنتى هالة . اخطأ احدهم وهو يتمنى للعبدالله حياة سعيدة بعد الافراج وقال فى نهاية حديثه .. وان شاء الله تعالج هالة وتشفى.أول مرة اسمع ان هالة مريضة .. ولذلك سألت بصوت اشبه بالفحيح .. هية هالة مريضة ؟ وانتبه الرجل الى اننى اجهل كل شىء عن مرض هالة ، فبدأ عليه الاضطراب ، ثم قال وهو يتصنع الضحك .. انت ما عرفتش انها كانت عيانه بالحصبة ؟ وهل الحصبة مرض ينتظر الافراج عنى لكى اسعى فى شفائه ؟ ثم راح يقسم بأغلظ الايمان انه سمع من أحد الزملاء المعتقلين انه كان فى زيارة لبيتى وانه رأى هالة مريضة بالحصبة ، وان هذا كل ما فى الامر .

لم انم طوال الليل افكر فى هالة وفى مرضها . ما الذى ألم بهذه البنت التى كانت كالوردة .. آخر بهجة وآخر عفرته ؟ لقد تركتها وعمرها عام ونصف العام كانت تحاول الكلام والمشى .. وكانت تقلدنى ، اذا شتمتها شتمتنى . وكانت لهجتها مضحكة ، ومشيتها اقرب الى مشية البهلوان . ما هو المرض الذى يصيب بنتا كالوردة وينتظر خروجى من المعتقل لكى تشفى بإذن الله تعالى . هل عميت هالة ؟ كانت عيناها جميلتين وواسعتين رموشها طويلة ومدببة كأسنان مشط ، ولكن ما الذى عماها ؟ هل اصيبت بالرمد واهمل علاجه ؟ هل احترق وجهها فأصيبت بالعمى ؟ وطردت هذه الافكار السوداء أو حاولت ذلك .. وفى الصباح كلفت احد . عساكر المعتقل وكان فى طريقه الى اجازة لمدة يومين عند اسرته فى الجيزة بالمرور على منزلنا والاستفسار عن ابنتى هالة .

ذهب العسكرى وغاب يومين ثم عاد ومعه صورة هالة وعليها اهداء .. واضح ان امها هى التى كتبته ، الى بابا الحبيب .. انا بخير .. والامضاء هالة .

كانت فى الصورة كما تركتها حلوة وجميلة ووجهها كالقمر فى ليلة تمام . الحمد لله .. لم يحرق وجهها ولم تفقد عينيها . كانت إذن مريضة بالحصبة كما ابلغنى الزميل . وربما فلتت منه العبارة التى ارقتنى زيادة منه فى المجاملة . ولكنى عدت افكر من جديد فى امر الاهداء ، لماذا لم تذكر لى شيئا عن ابى ؟ هل هو مريض ؟ هل لايزال على قيد الحياة ؟ ما الذى جرى له وجرى به بعد الاعتقال ؟

عشت اسبوعا فى جحيم حقيقى . فأنا لا اعلم شيئا عما جرى لاسرتى ولم اتسلم منهم خطابا واحدا منذ جرى اعتقالى . لان الخطابات ممنوعة ، وممنوع عليهم معرفة المكان . الذى نوجد به ، وتمنيت فى تلك الايام الاخيرة من اقامتى فى معتقل الفيوم ان تقوم ثورة وتقبض على زكريا محيى الدين وكمال الدين حسين.الاول لانه كان وزيرا للداخلية ، والثانى لانه كان رئيس وزراء الاقليم الجنوبى .

ويقبض معهما على مدير المباحث العامة وعلى العقيد حسن المصيلحى وعلى كل ضباط معتقل الواحات ومعتقل القلعة ومعتقل الفيوم ، وان يوضع

الجميع فى معتقل بعيد داخل الصحراء ثم يصدر قرار بتعييني مديرا للمعتقل . والف خيوب على العبدالله اذا لم يجعل كلا منهم ينسى نفسه .. لا اقتلهم ولا اتركهم احياء .

فكرت فى الذين سأقوم بانتدابهم للعمل معى داخل المعتقل الرهيب .. واخترت اوسخ العساكر الذين صادفتهم فى المعتقل لمعاونتى على اداء هذه المهمة . ولكنى طردت هذه الفكرة من رأسى وفكرت فى الهروب من مصر عقب خروجى من المعتقل . اذهب الى بلد بعيد واقيم بعيدا حيث لا تستطيع يد السلطة ان تمتد نحوى ..

افكار كثيرة مرت بالعبد لله ولكنها كانت افكارا كثيرة مؤقتة نتيجة التعذيب النفسى والضغط العصبى على العبدالله بعد هذه الشهور الطويلة التى مرت بنا فى السجن . وليته كان سجنا .. فالمسجون له حقوق ، ولكننا اشبه بالمخطوفين ، فلا أحد يعرف مكاننا ، ولا حقوق لنا ، ولا احد يعرف متى يكون الخروج من هذه الكارثة ! وقبل يوم واحد من مغادرتى لمعتقل العزب بالفيوم ، وقعت حادثة غريبة كان ضحيتها « عسكرى » من بلوكات النظام . وانطلقت رصاصة من مدفع كلاشنكوف فى قلب العسكرى الذى كان يحمل المدفع فسقط ميتا .

ادخلونا العنابر على الفور واغلقوا الابواب لاول مرة . وجاء ضباط كبار من الخارج ، وقضوا النهار كله ، يحققون فى اسباب الحادث ، ثم طووا اوراقهم وغادروا المعتقل . ولكن العسكرى ظل مطروحا على الارض مغطى بالجرائد ولم يرفع من مكانه الا فى المساء ، عندما حضرت سيارة لورى اشبه بسيارة الزبالة حملت العسكرى المسكين الى المشرحة . ليس اعداء الدولة وحدهم هم الذين تصيبهم الاهانة من الدولة ، ولكن الاهانة تصل ايضا الى رجالها . وهاهو ذا العسكرى ينقل فى عربة زبالة بعد ان تركوه جثة هامدة على الارض طوال النهار !

حدث شيء اخر فى المعتقل جعلنى اسرح بعيدا عن المعتقل الى امور الخلق والخالق . كان فى المعتقل مأمور برتبة رائد ، كان فى الاصل (عسكرى) ويبدو انه خدم ايام الانجليز وكان مواليا لهم ومؤمنا بهم الى

حد بعيد ويبدو انهم كافأوه الى رتبة صول . ثم ترقى بعد ذلك لانضباطه وغبائه حتى وصل الى رتبة رائد . وكان الرائد الجهول يتصور ان المعتقل فرصة للوصول الى اعلى الرتب . فحول المعتقل الى معسكر اعتقال ولا معسكرات النازى . وأذكر فى الفترة الاولى التى قضيتها فى المعتقل اننا كنا نقف فى صفوف فى الفناء عندما جاء الينا حضرة المأمور ليستعرض الطابور البائس .

وكان اثناء مرورة بين الصفوف يتفضل ويتوقف عند احد المعتقلين ويستفسر منه عن اسمه ومهنته . وتوقف امام الفنان زهدى رسام الكاريكاتير الشهير وسأله عن اسمه ثم سأله عن مهنته ، فلما اجابه بأنه رسام كاريكاتير قال مصححا .. اه شاعر يعنى ! ورد عليه زهدى .. لا انا رسام كاريكاتير . فشوح المأمور بذراعه وقال فى حدة .. شاعر يا جاهل..

حضرة المأمور الذى كان يخطو نحو الستين من عمره راح يمارس كل انواع الاضطهاد فى المعتقلين وينزل بهم كل الوان العذاب ، على أمل أن يتعطف عليه المسئولون بالداخلية ، فيرقوه الى رتبة المقدم ويتركوه فى الخدمة حتى يبلغ سن المعاش ، ولكن القاعدة التى كان يعامل بها هذا الصنف من الضباط هى ترقيته الى رتبة المقدم وفى الوقت نفسه يجرى احالته على المعاش ..

وذات صباح دخل حضرة المأمور الى المعتقل واختفى فترة ثم خرج من مكتبه يتقدمه عسكرى مراسلة وقد حمل بدلة ميرى وقميصا وجلبابا وبعض الاوراق .

وكانت هذه هى كل متعلقات حضرة المأمور وغادر سعادته المعتقل لآخر مرة . فقد حصل على رتبة المقدم وخرج من الخدمة . فى نفس الوقت لم تشفع له خدماته الكثيرة ومحاولاته المستمرة لتحويل حياة المعتقلين الى جحيم . لم يهتم احد باستغاثاته التلغرافية وتوسلاته الشفهية لكى يبقوا عليه فى الخدمة . امتصوه كالليمونة ثم القوا به على الطريق ، هل يتعظ الاخرون ؟ بالعكس جاء من بعده ضابط مؤهل اسمه التونسى وراح يمارس

نفس اسلوب سابقه مع بعض التطور . ولا اعرف اين ذهب التونسى بعد ذلك ، ولكنى لم اصادفه حتى الآن فى أى مكان .

المهم ان هذا الضابط الذى طردوه من الخدمة زارنى بعد ذلك بسنوات فى دار روزاليوسف . وبعد ان جلس يستعرض امامى مآثره وأياديه البيضاء علينا ! طلب منى ان اسعى لتوظيفه فى المؤسسة . ولما ابديت له اعتذارى لعدم وجود وظيفة تليق بمقامه العالى فى المؤسسة ابدى استعداده لقبول اى وظيفة ، فكل الوظائف تليق بعد الخروج من الخدمة ! وبعد ان قضى فى مكتبى فترة طويلة قال للعبدالله : ما هو كل الناس اللى كانوا فى المعتقل بيشتغلوا هنا . وحبكت النكتة مع العبدالله فقلت له .. مضبوط .. بس اللى كانوا فى العنابر .. مش فى الادارة !

المهم .. جاء اليوم الذى انتظرته طويلا ..حضر حلمى العيسوى فى المساء الى العنبر ونادى على اسمين من المعتقلين . محمد عبدالواحد رئيس نقابة عمال الغزل والنسيج والعبدالله . ثم طلب منا احضار ملابسنا ومتعلقاتنا لأننا سنرحل فى الصباح الباكر الى القاهرة . سألته .. الى اين ؟ فرد باقتضاب .. ما عرفش . حملنا حقائبنا وذهبنا خلفه .. فإذا به يضع كل منا فى زنزانة منفردة من زنزانات التأديب . زنزانة انفرادية بلا نور وارضيتها تراب ، ودبيب الحشرات تلتقطه الأذن بوضوح ، وكان للحجرة شباك مغطى بأسياخ حديد ، ولكنه كان يسمح لشاغل الزنزانة بالتحدث الى الواقف خارجها . وجاء الضابط حلمى العيسوى فى الليل وراح يتجاذب الحديث مع العبدالله . اعدت سؤاله عن المكان الذى سنذهب اليه قال .. علمى علمك .. وراح يسألنى عن الخلاف بيننا وبين الحكومة . فأجبته بأنى لم أكن مختلفا مع الحكومة . وحتى فى موقفها مع عبدالكريم قاسم لم اختلف معها ، ولكننى لم اكتب حرفا فى صفها وآثرت الصمت لأنى كنت ادرك ان الخلاف ليس فى مصلحة احد ، وان الهدف الوحيد من الخلاف هو تدمير عبدالكريم قاسم وتدمير عبدالناصر فى نفس الوقت .

سألنى .. لماذا قبضوا عليك ؟ اجبته بأنى لا اعرف السبب ، ولم اسأل

احدا فى الحكومة حتى هذه اللحظة . وقلت له ضاحكا .. لقد جاء الى بيتى ضابط اسمه طوسون وطلب منى أن اذهب معه الى مكتب المباحث العامة بالجيزة ، اخبرنى بأن المهمة لن تستغرق ساعة على الاكثر .. ولكن الساعة اصبحت ساعات ، واليوم صار اياما ، والشهر صار شهورا ، والشهور صارت عاما ، والعام اصبح اعواما . وابتسم العيسوى ابتسامة بلا معنى وقال .. مسائل غريبة !

وبالطبع لم انم طوال الليل . لأن زنزانة التأديب التى حشرونى فيها لم تكن تسمح بالنوم . وفى الخامسة صباحا دخلت المعتقل عربة بوكس ووضعوا ايدينا فى الحديد ، ووضعونا خلف العربة فى حراسة نصف دستة من العساكر ، بينما جلس الضابط برتبة نقيب بجوار السائق . وكان الضابط مسلحا بمسدس ايطالى سريع الطلقات . واخترقنا الطريق الصحراوى من الفيوم الى القاهرة . وفى وسط المسافة توقفت السيارة ونزل الضابط ليقضى حاجته فى الصحراء . وطلبت منه ان نفعل نفس الشىء ولكنه رفض . ثم شرح الامر بعد ذلك .. بأن قضاء الحاجة بالنسبة لى يستلزم فك الحديد وهو أمر ممنوع فى كل الظروف وحسب التعليمات ! .

المهم اننا وصلنا الى الجيزة فى نهاية الامر واخترقنا ميدان الجيزة . وانقبضت نفسى بشدة عندما القيت نظرة على قهوة عبدالله ورأيت العمال يضربون فيها معاولهم والجزء الاكبر منه تحول الى انقاض ورأيت المجنون عبادة يذرع الميدان فى خطوات عسكرية وقد ازداد جنونا واتسخت ملابسه وصارت ذقنه فى حجم المكنسة . ياسبحان الله .. تغير كل شىء ، حتى الميدان نفسه تغير . اختصروا ارصفته ووضعوا بعض الاسوار الحديدية القصيرة حول المناطق الصغيرة المزروعة بالنجيل على جوانب الميدان ، ونظموا سوقا للباعة الجائلين على ناصية الميدان من نهاية شارع عباس .

ولكن على رأى تشارلز ديكنز .. من انا الذى يعيب على المدينة لأنها تغيرت ، وقد عدت اليها أنا نفسى وقد غيرتنى الايام !

الفصل الحادى والعشرون

عندما دخلت مبنى المباحث العامة لمحت الدكتور لويس عوض واقفا فى. الممر الضيق المظلم الذى يفصل بين المكاتب . كان يرتدى بدلة مكسرة وقميصا مكرمشا ، وكان واضحا ان شعر راسه لم يعرف طريقه الى الحلاق منذ شهور طويلة ، وكانت نظارته الطبية مغبشة ، وكرافتته مطوية وملفوفة كانها حبل غسيل . وعندما اقتربت من المكان الذى يقف فيه الدكتور لويس عوض ، بادرته قائلا :

« المصيلحى »

أول مرة !



صباح الخير يادكتور

فأجاب قائلا :

— جود مورننج سعادة البيه

وادركت انه لم يعرفنى ، فقد كان منظر العبدلله يختلف تماما عن منظر الشخص الذى اسمه محمود السعدنى ، ولم اشأ ان اصدمه بعد ان تصور اننى فى حال يسمح باطلاق لقب البيه على شخصى الضعيف ، وبعد خطوات من المكان الذى كان يقف الدكتور لويس ، اصدر الضابط امرا للعسكرى الذى كان مربوطا معى بالتوقف والانتظار ، وتركنا الضابط وغاب طويلا وبعد حوالى نصف الساعة خرج من احد المكاتب شخص متوسط الطول اسمر البشرة تنبت على خده حسنة كبيرة ، اتجه نحونا مادا يده وهو يهتف بحرارة :

— اهلا سعدنى بيه

ولم اتمالك نفسى فاجبته بمنتهى الغيظ :

— بيه .. بيه ايه ونيله ايه .. فين البيه ده ؟

وقال ويده مازالت ممدودة فى الهواء :

— طبعا بيه ونص كمان .

قلت وانا انظر نحو الكلبش الذى يقيد معصمى :

— انا آسف لانى مش هاقدر اسلم عليك علشان ايدى مربوطة بالحديد وصرخ الرجل فى العسكرى .

— فك الحديد يا عسكرى
رد العسكرى ببرود :
— لا ما فكش حد انا.
وعاد الرجل يصرخ فى وجه العسكرى بشدة
— انا العقيد حسن المصيلحى .. ولما اقولك فك الحديد .. تفك الحديد على طول.
وعاد العسكرى يقول بنفس الهدوء.
— أنا ما باخدش اوامر من حد الا من الضابط اللى معايا.
وفى تلك اللحظة التى تأزم فيها الموقف بين العقيد والعسكرى وصل الضابط المكلف بمهمة ترحيلنا الى مبنى المباحث ، وعندما اصبح فى مواجهة العقيد ، دق الارض بكعبه وضرب تعظيم سلام للبيه العقيد ، وعلى الفور انهار العسكرى ومال على يد العقيد لتقبيلها ، ولكن العقيد سحب يده بشدة وامر الضابط بأن يأتى بى وبالعسكرى الى مكتبه . وفى الطريق إلى مكتب البيه العقيد راح العسكرى يولول كامرأة فقدت سبعها ، لاعنا اليوم الذى كلفوه فيه بهذه المهمة الصعبة . وعندما اصبحنا فى حجرة البيه العقيد حاول العسكرى ان يعتذر للبيه ، ولكن العقيد نهره وامره بالصمت ، ثم فتح درج مكتبه واخرج منه ورقتين من فئة العشرة جنيهات ومد يده نحو العسكرى قائلا له :
— خد دول مكافأة علشانك .. انت عسكرى ميرى .. واوعى تسمع كلام اى حد وتفك مسجون الا اذا امرك الضابط اللى معاك .
ثم نظر المصيلحى الى الضباط وقال له اديله امر يفك الحديد .
واصبحت يدى طليقة لأول مرة منذ غادرنا معتقل الفيوم فى الفجر .
وبعد ان امر الضابط والعسكرى بالانصراف دعانى الى الجلوس وطلب لى فنجان قهوة مضبوطا ثم عزم علىبسيجارة ، ثم اشعل لنفسه سيجارة وراح يدخن فى هدوء .
جلست اتأمل الرجل الذى يجلس امامى ، اذن هذا هو حسن المصيلحى ، الرجل الذى سمعت عنه قصصا اشبه بالاساطير فى جميع

السجون التى نزلت بها ، هذا الرجل الضئيل الذى تبدو على وجهه الطيبة هو بعبع الحركة الشيوعية فى مصر ، لقد تصورت من خلال ما سمعته عنه انه طويل القامة مفتول العضلات له وجه قاتل محترف . وبعد فترة صمت طويلة نظر نحوى نظرة فاحصة ثم قال :

— تعرف ان مصر كلها كلمتنى عنك

سألته على الفور :

— انت اعتقلتنى ليه ؟

— انت ذكى وهتعرف لوحدك

— انا مش عارف اى حاجة

— لزم الصمت فترة وراح يعبث ببعض الاوراق التى امامه ثم سألنى :

— اخبار زمش ايه ؟

— زى ما انت شايف

قهقه عاليا ثم قال :

— عارف ان حزبك ده دخل تاريخ الحركة الشيوعية وعملنا له ملف عندنا فى المباحث .

— معقول ؟ بقولك دى يعنى زى ما انت شايف .

— ما انا عارف .. بس الشيوعيين خدعوك وكتير منهم دخلوا زمش.

هتفت مدافعا عن اعضاء الحزب :

— ولا واحد واتحدى .

قال وهو ينقر بسن القلم على المكتب :

— حتى اسعد حليم ؟

— حتى اسعد حليم

— مش بقولك أنت رئيس حزب طيب .. عارف اسعد حليم ده مالوش علاقة فعلا بالشيوعيين المصريين .. عارف ليه ؟ لانه بيحتقرهم .. لأن مستواه من مستوى خروشوف وماوتسى تونج ومولوتوف .. ومين تانى فى الحزب مش شيوعى ؟ عبدالموجود ابراهيم ابو زيد ؟

— دا راجل طيب وبتاع ربنا .
رد ساخرا :
— ما كلنا طيبين .. عارف الطيب ده انا جبته هنا فى مكتبى قبل ما اعتقله وقلت له انت عندك عيال بطل اللى بتعمله .. عارف كان بيعمل ايه ؟
— انا فى الحقيقة عرفته فى السجن بس .
— كان بيوزع منشورات فى العنابر ، والمصيبة انه عامل حدق وفاهم انى نايم على ودانى يوزع الف منشور فى العنابر ويجبلى خمسة ويقوللى انا لقيت دول .

ساد الصمت بيننا بعض الوقت .
قطعه هو قائلا :
— واحمد شوقى عبدالهادى بتاع منيل شيحة .. راخر طيب ؟!
— دا مش طيب بس .. دا راجل غلبان كمان
— شفت بقى ازاى انك رئيس حزب طيب وزى الزوج آخر من من يعلم .. عارف شوقى ده كان بيعمل اجتماعات فى بيته وضم أخوه الصغير للتنظيم .. وبعدين دا أخطر واحد لأنه دخل الشيوعية فى قرية صغيرة .. وعلشان يحرم هايكون آخر واحد يخرج من المعتقل .

قلت للمصيلحى :
— لو قعد شهر تانى هايموت .
— لو مات يبقى مصلحة .. الراجل أبوه طيب وحافظ كلام ربنا .. ولو مات ده يبقى فايدة لابوه ؟
سألنى اذا كنت أرغب فى فنجان قهوة آخر ، فشكرته وطلبت منه ان يسمح لى بالانصراف اذا كان قد تقرر الافراج عنى قال لى وهو ينهض من مكانه :

— انت حر منذ دخلت مكتبى ، وتستطيع ان تذهب الى بيتك أو تذهب الى مكتبك ، وانت منذ هذه اللحظة مواطن حرّ لك كافة الحقوق وعليك كافة الواجبات . ومد يده الى مصافحا ، ثم استدعى احد المخبرين وأمره بأن

يحمل البقجة التى كانت معى حتى الشارع . وبالفعل وجدت نفسى فى الشارع أحمل فى يدى بقجة ومنظرى يوحى لمن يرانى اننى كنت نائما بالبدلة تحت كوبرى عباس ..

وقفت عدة دقائق فى الشارع اتلفت حولى غير مصدق اننى اصبحت حرا ، واستنشقت نفسا عميقا ودخل صدرى كمية ضخمة من الهواء المختلط بعادم السيارات ، ومع ذلك كان انقى هواء دخل صدرى منذ حوالى عامين !

عبرت شارع نوبار الى الرصيف الاخر ، واتجهت الى مكان عصير قصب وطلبت كوبا من العصير لم اكن فى حاجة اليه فى الحقيقة ، ولكنى كنت فقط اريد ممارسة حريتى فى الشراء واستخدام الفلوس كغيرى من البشر . كان امام الدكان جمع من الناس نظروا نحوى نظرات مستريبة مما جعلنى اتناول الكوب واشرب نصفه بسرعة ثم اترك الكوب بما فيه واهرع مسرعا فى اتجاه ميدان الازهار .

حاولت ان استوقف اكثر من تاكسى ، توقف بعضها بالفعل ، ولكن كانت اول نظرة من السائق نحو العبدلله كفيلة بتغيير رأيه ليسرع بالفرار .

اخيرا وصلت الى ميدان الازهار (باب اللوق) ووجدت سيارة تاكسى راكنة على رصيف وبدون سائق ، ركبت فى المقعد الذى بجوار السائق انتظر ، بعد قليل جاء السائق ، وبعد ان فحصنى بنظرة شاملة سألنى بدون مبالاة :

— اى خدمة ان شاء الله .

اجبته :

— فيه جماعة جنبنا هنا هايروح معاك مشوار بعيد .

— وما خدتش تاكسى من هناك ليه ؟

— لأن أنا ساكن هنا وضربو لى تليفون عاوزين تاكسى .

مد يده نحو البنديرة وكسرها وقال :

— طيب ما فيش مانع .. بس انتظار كثير هناك يفتح الله ؟
ثم قال :
— انتظرنى شوية لحد ما اشرب الشيشة ·

وغاب عشر دقائق قبل أن يعود ، وقاد السيارة بمحاذاة سكة حديد حلوان وبين الحين والاخر كان يختلس النظر نحو ملابسى المهلهلة وحذائى المخيط فى أكثر من موضع ، ثم سألنى سؤالا ونحن نقترب من سعد زغلول

— بتشتغل ايه من غير مؤاخذة ؟
— على باب الله ·
— المهم الصحة والستر ·

توقفت بنا السيارة امام مؤسسة روزاليوسف ، تركت البقجة فى السيارة وغادرتها وعندما حاولت الدخول استوقفنى عم حسين البواب وسالنى بحدة .

— انت رايح فين ؟ بوابة من غير بواب ، توقفت امامه برهة ثم قلت له :

— ازيك يا عم حسين .. انت مش عارفنى ؟ دقق طويلا فى وجهى ثم هتف :

— يا خبر .. ازيك ياسعادة البية .. انت لسة طالع من السجن دلوقت .. ازى الاستاذ فتحى والاستاذ زهدى والاستاذ حسن فؤاد .. حمدالله على السلامة يابيه

صعدت على السلالم المتهالكة ودخلت صالة التحرير ولم يكن بها الا صلاح جاهين ، كان يرسم كعادته . وشدنى صلاح ودخل بى مكتب الاستاذ احسان . الذى فوجىء بمنظرى فصاح مندهشا :

— ايه ده ؟ انتوا محبوسين ببدلكم ؟ قضيت فترة فى مكتب الاستاذ احسان واتصلت تليفونيا بصديقى الرسام طوغان لكى يمهد لعودتى عند زوجتى ووالدتى ، ثم غادرت روزاليوسف بعد نصف ساعة وعندما لمحنى

السائق ترك مقعده مسرعا وفتح لى الباب الخلفى ، ولكنى آثرت الجلوس بجانبه وراح يعتذر وهو فى طريقه الى الجيزة ، وعرفت انه سال حسين البواب وراح يسألنى عن احوال المعتقلين وعن عددهم ، وهل كلهم من الصحفيين والمحامين والفنانين . ثم قال :

— ما تأخذنيش يا بيه .. اللى ما يعرفك يجهلك ..

وعندما وصل الى بيت طوغان رفض ان يتقاضى مليما واقسم بالطلاق انه لن يتقاضى اجر هذه التوصيلة قائلا :

— ده اقل شىء نعمله يا بيه .

ثم تركنى وانصرف بعد وعد منه بزيارتى فى مكتبى بروزاليوسف

هأنذا فى بيت طوغان اخيرا . وبعد قليل سأكون فى بيتى ، لقد انتهت رحلة الضنى والعذاب .. او هكذا تصورت !



الفصل الثانى والعشرون

لحظة دخلت بيتى لأول مرة بعد هذا الغياب الطويل ورؤيتى لأفراد أسرتي ، أدركت أن طريق الضنى والعذاب قد بدأ . كانت ابنتى هالة قد أصيبت بالشلل أثناء وجودى فى السجن .

أجمل سنوات العمر !





اما الشقة التى كانت تقيم بها اسرتى الصغيرة ، فقد اضطروا الى تركها بعد ثلاثة اشهر من سجنى ولجأت الاسرة الى بيت والدى . اما الوالد نفسه فقد سقط طريح الفراش نتيجة انفجار فى المخ ، تركه مجرد جثة متحركة ، ومخلوق بين الحياة والموت . وبدأت على الفور فى رفع الانقاض التى تساقطت فوق رأس الاسرة . وعندما اصطحبت معى العبقرى العظيم انور المفتى لفحص والدى ، ترك لى شيئا اشبه بالروشتة ، ولكنى اكتشفت بعد مغادرته المنزل ان الذى كتبه كان شهادة وفاة ، ولكن لان مسألة الحياة والموت من شأن الخالق الاعظم ، فقد بقى الوالد على قيد الحياة ثلاث سنوات كاملة ، يعيش على السوائل ولا يغادر الفراش ، ولا يتكلم ولا يسمع ، ثلاث سنوات وهو مجرد جثة ينقصها الدفن .

اما ابنتى هالة فقد قرر طبيب الاطفال العالمى على عبدالعال ضرورة اجراء عملية جراحية لها فى بريطانيا واشار باجرائها عند الدكتور (أو زمان كلارك) وسافرت الى لندن بالفعل وعرضت الامر على الدكتور المذكور ولكنه اعتذر عن عدم اجراء العملية ، واشار باجرائها عند دكتور بروكس . وقابلت الدكتور بروكس الذى وافق على اجراء العملية وحسبت الحسبة فوجدت اننى احتاج الف جنيه مصرى . وعندما عدت الى القاهرة اكتشفت ان الحصول على هذا المبلغ دونه قطع الرقاب ، وكتبت مقالا فى روزاليوسف بعنوان (عبقرى للبيع) وابديت استعدادى لبيع نفسى لأى

راغب فى الشراء مقابل الف جنيه اعالج بها هالة ، وقلت فى المقال ان البضاعة حاضرة والتسليم على الفور ، واستعرضت مواهبى وقلت : انا استطيع ان ارقص واغنى واطبخ ايضا واكتب احيانا واتشقلب واعمل عجين الفلاحة مقابل الالف جنيه .

وفى الصباح زارنى فى مكتبى زائران يرتديان نفس الملابس وعلى وجهيهما نفس السمات ، وقدما نفسيهما للعبدلله بأنهما من رئاسة الجمهورية ، وقلت لنفسى : يا فرج الله يبدو ان العقدة انحلت وكل شىء سيكون على ما يرام . ولكنى اكتشفت بعد دقائق انهما جاءا للحديث معى ، فكيف يكتب مثل هذا الكلام ؟ وما هو الهدف على وجه التحديد ؟ وهل الهدف هو التشنيع على النظام ؟ ثم سألنى احدهما سؤالا محددا : هل تقدمت بطلب الى رئاسة الجمهورية لعلاج ابنتك بالخارج ؟ ولما أجبته بالنفى أشار باصبعه على الورق الذى امامى وقال اكتب طلبا الان ، وكتبت الطلب وسلمته له . وانصرفا بعد ان أوصانى احدهما بعدم الخوض فى هذا الحديث مرة اخرى . ولم اتلق ردا منهما حتى هذه اللحظة ، ولكن الذى حدث بعد ذلك ان يوسف السباعى يرحمه الله اتفق مع احسان عبدالقدوس على تسهيل بعض المصاعب ، فاصدرا لى تذكرتين للسفر الى لندن على الطائرة الهندية مقابل نشر اعلانات لها بروزاليوسف ، واشترت منى المؤسسة كتابا فى سلسلة الكتاب الذهبى على ان اكتبه بعد ذلك ، وصرفوا لى ثلاثة شهور مقدما من مرتبى واشترى منى الدكتور سعيد قدرى اربعة كتب للاطفال فى سلسلة كانت تصدرها منظمة اليونسكو ، وليلة السفر زارنى صديق لا انسى جميله ، هو الكاتب الاسلامى الكبير محمود شعبان ، واعطانى مائة وخمسين جنيها استرلينى وقال : هذه هديتى لهالة فى رحلة علاجها. واستطعت قبل السفر العثور على شقة فى عمارة حديثة ، رفض صاحبها الطبيب تقاضى اى خلو رجل أو مقدم من أى نوع ، ولم تكن هذه الحالة مع العبدلله وحده ، ولكنه فعل ذلك مع كل السكان .

سافرت الى لندن مع هالة وفى ذهنى ان ملكة انجلترا ستكون على رأس

المستقبلين فى مطار لندن ، باعتبارى من كبار المستثمرين ولكنى اكتشفت هناك ان المسالة ليست سهلة كما تصورت وان شفاء هالة سوف يتم ، ولكن بعد خمسة عشر عاما ، يجرى خلالها عدة عمليات لهالة فى الحوض وفى الركبة وفى القدم . المهم ان هالة شفيت فى النهاية وتم علاجها مرتين بعد ذلك بأمر من الرئيس جمال عبدالناصر وعلى نفقة الدولة ، وعولجت بعد وفاة عبدالناصر لمدة سنتين على نفقة الشيخ زايد رئيس دولة الامارات العربية ، واجريت لها عملية صعبة فى مستشفى (دولس هل) على نفقة الشيخ سلطان بن محمد حاكم الشارقة ، ووعدت حكومة الثورة الليبية بعلاجها فى عام ١٩٧٥ ، ولكن يبدو ان انشغال الدولة الليبية بجلائل الاعمال حال بينها وبين تنفيذ هذا الوعد ، وللحقيقة وللتاريخ فإن اخر عملية اجرتها هالة فى لندن غطى تكاليفها الرئيس صدام حسين رئيس العراق ، وبهذا تكون هالة قد تحولت من مجرد مريضة الى رمز قومى !

كل شىء والحمد لله بعد فترة السجن صار على احسن وجه ، وعندما دخلت السجن فى عام ١٩٧١ جاءنى مندوب من وزارة الصحة فى سجنى وطلب منى رد المبالغ التى صرفت على هالة فى لندن فى عهد جمال عبدالناصر وقلت لمندوب وزارة الصحة ساخرا .. إن علاج هالة تم بناء على قرارات جمهورية اصدرها جمال عبدالناصر رئيس جمهورية مصر العربية حسب الدستور والقانون ولم تعالج بقرار صادر من مهرب الحشيش كتكت ، وعلى العموم .. فليس امامك الا اللجوء الى القضاء لاسترداد هذه الفلوس منى ، حيث اننى مفلس وسجين وحتى عفش بيتى تحت الحراسة !!

انتهت ايام السجن بكل متاعبها ولكن متاعب ما بعد السجن كانت اخطر . ولكن العبد لله استطاع بفضل الله ان ينتصر على كل المتاعب وان يتجاوزها.

تبقى هنا كلمة لابد من قولها فهذه الفترة التى قضيتها فى سجن الواحات ، وسجن القلعة ، وسجن الفيوم كانت من اخصب فترات حياتى تعرفت على تيار سياسى كان له وجود فى الساحة المصرية واكتشفت وسط

هذا التيار مجموعة لآلىء كان يمكن ان يكون لها شأن كبير فى مصر لولا اهتمامها بالعمل السياسى واصرارها على ان تقول كلمتها رغم كل الظروف .. العالم الاقتصادى الكبير الدكتور عبدالرازق حسن . والكاتب الاديب الفنان محمود امين العالم ، والاقتصادى العالمى اسماعيل صبرى عبدالله وزميله فؤاد مرسى ، رجل القانون اللامع على الشلقانى ، الناقد الكبير حسن ابراهيم فتحى ، العالم الكبير الدكتور فايق فريد ، الاديب الموسوعى الدكتور لويس عوض ، الصحفى اللهلوبة عبدالملك خليل ، المطرب النوبى الكبير محمد حمام ، والذى اكتشفنا موهبته فى السجن ، وكان اول اشتغاله فى الفن فى مسلسل تليفزيونى من تأليف العبد لله وعشرات من الصحفيين والكتاب الحقيقيين ، من اول لطفى الخولى الى فتحى خليل ابراهيم وفتحى خليل عبدالفتاح وعبدالستار الطويلة والفريد فرج وغالى شكرى وفيليب جلاب ومصطفى طيبه وعشرات من الفنانين على رأسهم وليم الملك وعشرات من السياسيين على رأسهم شهدى عطية ومحمود المانسترلى واحمد طه وفوزى حبشى ومحمد شطا والدكتور حمزة البسيونى واديب ديمترى وسيد عبدالله الى جانب عشرات من اصدقائى من فنانين ومفكرين .. على رأسهم الفنان الذى فقدته مصر حسن فؤاد والفنان جمال كامل والفنان الكبير زهدى ، وكانت سعادتى بلقاء هؤلاء خلف الاسوار لا يعادلها الا الحسرة على اهدار كل هذه الطاقات المبدعة بسبب غباء البعض وغرور البعض ، من امثال فهمى حبيب . والذى يدعو الى الحسرة ان امثال فهمى حبيب لا تستطيع ان تضعهم فى أى خانة ، فلا هم صحفيون ولا هم فنانون ولا هم مفكرون ولكنهم وكما اثبتت التجارب من سقط المتاع ، مجرد نبت شيطانى ، وجدوا فى التنظيمات السرية مجالا لاجترار حقدهم وفك عقدهم بالسيطرة على كل هذا الطابور الطويل من الموهوبين .

كانت مقاليد الامور فى التنظيمات السرية فى يد هؤلاء واضاعو زبدة مصر فى معارك وهمية محكوم عليها بالفشل . وتحت ثوب السرية الواسع ، تسرب المئات من الجهلاء والصياع كان وجودهم فى التنظيم

ضروريا لحسم الصراع لصالح القادة امثال فهمى حبيب الذين هم من سقط المتاع وتبددت اربعون سنة من العمر فى شعارات جوفاء وكلمات فارغة من أى مضمون ، وعبارات مسبوكة .. امثال الحنجورى المتنامى فى اللانهائى المترامى عند الشفق لحظة الغسق المتأجج بفعل انفاس الشغيلة وعرق العمال من أجل عالم يسوده الرخاء والماء والهواء . والجلاء بالدماء ، من اجل تأصيل المبادىء وتسديد البنادق فى الخنادق ثم بعد ذلك يمكن شرب الكبتشينو فى الفنادق !

ما أعظم التضحيات وما ابخس النتائج ودفع الشيوعيون المصريون دم قلبهم من اجل الحصول على لاشىء وبددوا العمر من اجل تحقيق لاشىء وخرج الجميع من المولد بلا حمص . واكتشفوا بعد فوات الاوان انهم لم يكونوا فى المولد .. ولكنهم كانوا فى سوق لم يستفد منها احد الا فهمى حبيب وامثاله حيث صار البعض منهم دكاترة واغلبهم حصل عليها من المنطقة الحرة فى مطار تشيكوسلوفاكيا وبعضهم حصل عليها من سوبرماركت فى هولندا ، وكان الثمن ضياع عشرات ومئات من المواهب المصرية الحقيقية .

يالها من فترة رهيبة ،فترة بدأت خلال الحرب العالمية الثانية واستمرت حتى سقوط الاتحاد السوفيتى.ولكن والحق اقول استطاع هذا التيار ان يقاوم ويقاتل . وان كان قتالا اشبه بمعارك فارس السيف الخشبى ضد طواحين الهواء . ولكن الخطأ التاريخى الذى ارتكبوه هو ايمان القيادات اياها بانهم وحدهم الذين يملكون مفاتيح الحقيقة وهم وحدهم الذين لديهم الحلول الجاهزة لكل المشكلات وهم وحدهم المثقفون وبقية حلق الله جهلة وانهم المناضلون الوحيدون على هذه الارض وما عداهم جواسيس وعملاء المخابرات المركزية ومرشدون لاجهزة المباحث ولم ينج من هذا الاتهام احد حتى اشرف الناس من امثال محمد عودة والمرحوم فيليب جلاب والمناضل الوطنى مصطفى طيبة ، خطا قاتل ادى بهم الى العزلة والتقوقع والابتعاد عن دنيا الناس . حتى الكاتب الشاعر عبد الرحمن الخميسى اتهمه احد الصياع فى سجن ابو زعبل بأنه مدسوس على المعتقلين لمعرفة اخبارهم

لحساب جهاز المباحث .

وفاض الكيل بعبدالرحمن الخميسى ذات صباح فصرخ فى وجوه مجموعة من المعتقلين من أمثال الصايع اياه .. يا حشرات .. انا عبدالرحمن الخميسى ، دورى فى مصر اهم بكثير من دور اغلب الوزراء الذين حكموا مصر ، انتم تتهموننى باننى اتجسس عليكم لحساب المباحث ومن انتم ؟ انتم مجموعة من الاوباش لو عرضوكم فى السوق ما دفع أحد فيكم فلسا واحدا !

ولكن .. لأن كل شيء مكتوب على الجبين لازم تشوفه العين ولان ما كان سيكون . كان لابد ان تنتهى التنظيمات الشيوعية الى ما انتهت اليه ، فتنظيم يؤسسه يهود قادمون من وراء البحر ، لابد ان ينشأ غريبا ويظل غريبا ويستمر غريبا وينتهى غريبا كما بدا . فلم يشعر الشعب المصرى فى اى لحظةبوجود تنظيم شيوعى حقيقى فى الشارع المصرى ولم تشعر الجماهير بحركة هذا التنظيم فى أى وقت .

ولكن يبقى من التجربة المرة عشرات من هذه النماذج الرفيعة والمواهب العظيمة التى ذكرنا بعضها من قبل ، ويبقى ايضا أن الغالبية العظمى منهم يغفر لهم انهم من اصحاب النوايا الحسنة والهمة العالية وانهم تعرضوا للتعذيب وللتشرد وليس من اجل مصلحة شخصية ولكن من اجل ما تصوروا انه لمصلحة مصر وكانت الغالبية العظمى من هؤلاء الشرفاء والقلة فيهم من الاغبياء اصحاب النظرة القصيرة والحقد على كل موهبة .

وعلى كل حال . بقدر العذاب الذى عانيناه فى السجن مع الشيوعيين فإن الفائدة التى خرجنا بها كانت بقدر المعاناة وهى فترة بالرغم من كل شيء اعتز وافخر بها . ولو عادت الايام من جديد . لتمنيت ان اخوضها وكما حدثت من قبل .. وبالتمام والكمال ..

والحقيقة ان الفترة التى قضيتها معهم قد أثرت تجربتى واضافت الى ثقافتى ، كما انها انضجتنى كسياسى وجعلتنى اعمق فهمها واشد صبرا واطول نفسا مما كنت عليه . باختصار خرجت من سجن الواحات سعدنى آخر غير الذى كان !


روائع مجلة
الابتسامة
من الكتب
المعالجة
والصفحات الفردية